



دار الكتب والوثائق القومية

# النَّصِيفُ الْإِسْلَامِيُّ فِي الْأَدَبِ وَالْأَخْلَاقِ

بقلم  
الدكتور زكي مبارك  
المفتش بوزارة المعارف

« قدّم هذا الكتاب إلى الجامعة المصرية في سنة ١٩٣٧  
ونال به المؤلف إجازة الدكتوراه في الفلسفة بمرتبة الشرف »

## الجزء الثاني

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة  
(١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م)

الهيئة العامة  
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة  
أ.د. محمد صابر عرب

مبارك، زكى، ١٨٩٣ - ١٩٥٣

التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق/ بقلم زكى  
مبارك. - القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية، 2009.

مج 2 ، 24 سم.

تدمك 2 - 0612 - 18 - 977

١ - التصوف الإسلامى.

أ - العنوان

٢٦٠

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى  
طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى  
من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

[www.darelkotob.gov.eg](http://www.darelkotob.gov.eg)

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٣٢٤ / ٢٠٠٩

I. S. B. N. 977 - 18 - 0612 - 2

النَّصِيحَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ  
فِي الْأَدَبِ وَالْأَخْلَاقِ





## كَيْفَ نَشَأَ النَّصُوفُ فِي الْإِسْلَامِ

قدم التصوف — الروحانية والضعف — الضعفاء هم الذين اعتدوا إلى الإيمان وعرفوا قيمة النفس الإنسانية — التصوف في سفر أيوب وفي القرآن — تصوف الرسول — حذيفة بن اليمان — الحسن البصري — أبو حمزة الصوفي — الزهد والتصوف — أهل الظاهر وأهل الباطن — أصل الخلاف — أعداء الصوفية — الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء — فضل الفقه وفضل التصوف — أثر المسيحية في التصوف — معاورة بين صوفي وراهب — طبقات أهل الغيب — الصلة بين التشيع والتصوف — قيمة التصوف في الحياة الخلقية — نظام البحث .

١ — التصوف لون من الذوق عرفه العرب قبل الإسلام بأجيال طوال . ومن خطأ الرأي أن يقال إنه كان معدوماً تفلحته النزعات الإسلامية . وإليك البيان .

العرب أمة عريقة في الدين ، والدين في ذاته تصوف ، لأنه نوع من الضعف ، والضعف باب إلى التصوف : فإن الإنسان في الأصل حيوان شرسٌ يقاتل ويفالب ، ثم تأتي لحظات يصصره فيها الضعف فيقف ويتأمل : من أين أتى ؟ وإلى أين يصير ؟ وينتهي به الفكر إلى الاقتناع بأنه مخلوق ضعيف ، وعندئذ يكون التدين . والمتدينون فريقان : فريق لا يزال يحسّ القوة والماقية فيجالد في ميادين الحياة ، وفريق ينتهي به الضعف إلى التسليم المطلق فيرضى بالدون من العيش ويتوجه إلى التفكير في ملكوت السماء .

وعند التأمل نرى الروحانيات لا تكثر إلا في الأمم الضعيفة ، أما الأمم القوية فتوغل في الماديات ، وتحرص على امتلاك ما فوق الأرض من أصول المنافع ، ومثل الأمم في ذلك ممثل الأفراد ، فالرجل في دور العافية والشباب

تكون أطعمه في الأغلب مادية ، فيبنى النازل ، وينظم المزارع والتاجر والمصانع ، وفي دور الضعف والشيخوخة يقف موقف التأمل فيما كان وما سيكون . ويتحول إلى قوة روحية يستر بها الضعف الذي رَمَتْه به أحداث الزمان .

والتصوف يتصنّع في البداية ، ثم يصير صوفياً بالطبع ، حين تغلب عليه قوة الفكر والإشراق .

ولنواجه هذه المسألة بمزجة وصراحة فنقول إن هناك شخصيتين : الشخصية الحيوانية والشخصية الإنسانية ، أما الشخصية الحيوانية فهي الأصل ، والفضائل فيها تقوم على أساس الغلبة والعنف ، وهي شخصية لا تزال محفوظة الملامح في كتب الأساطير ، والناس يحنون إليها حينئذ شديداً ، حتى نراهم في الكتب الروائية يتمتعون أن لا ينهزم القوي وإن بنى وخان . وبفضل القوة وَجِدَ في القوانين الدولية ما يسمى حق الفتح ، وهو رجمة إلى القانون الخُلُقِي في عالم الشخصية الحيوانية .

أما الشخصية الإنسانية ، فهي شخصية مهذبة . والتهذيب هنا يراد به معناه اللغوي الأول ، أى أن هذه الشخصية قَلَمَتْ أظافرها ، وقَطَعَتْ أشواكها ، وصُنِعَ بها ما يُصنَع بالحيوان المفترس ، أو الشجرة الشائكة ، فأصبحت مصقولة الجوانب لا يُخَشَى منها بطش ولا عدوان ما دامت محكومة بصوارم القوانين .

وهذه الشخصية الإنسانية لم تَخْلَقْ إلا بحكم الضعف ، وقد استطاع جان جاك رُوشُو أن يتصور دقائق اللحظات التي خُلِقَتْ فيها هذه الشخصية ، وفي زعمه أن

الناس تجمعوا وتماقدوا ، واصطلحوا على أن يترك كل فرد منهم جزءاً من حريته ليتكون من مجموع ما يتنازل عنه الناس من حرياتهم قوة تنهض بها حكومة تحمى الضعفاء ، وتكف عدوان الأقوياء .

ثم عادت الشخصية الإنسانية فاقسمت إلى شخصيتين : شخصية مادية وشخصية روحية . فالأولى هي الشخصية التي لا تتأدب إلا بفضل القانون . أى بفضل السيف والسوط ، وهي شخصية سليمة إن نظرنا إليها من الوجهة الحيوانية ، والثانية هي الشخصية التي تتأدب بفضل الروح ، وهي شخصية سليمة إذا نظرنا إليها من الوجهة الإنسانية .

وبهذا نرى أن العافية الخلقية ليست إلا مسألة اعتبارية ، فالعنف فضيلة عند قوم ورذيلة عند آخرين ، هو فضيلة عند من يعيشون على المبادئ الحيوانية ، وهو رذيلة عند من يعيشون على المبادئ الإنسانية ، وكذلك يقال في اللين ، فهو ضعف في عالم الأقوياء ، وهو حلم في دنيا الضعفاء .

ولنسجل هنا أن الضعف نفسه صار سلاحاً قوياً بفضل المهارة الإنسانية فالإنسان حين ضعف اعتمد على فكره ولسانه في تقبيح الرذائل الحيوانية ، وما زال يبدى ويميد حتى أشاع في المالمين أن الظلم ملمونٌ في الأرض ملمونٌ في السماء .

وشواهد الحياة تؤيد رأى الضعفاء من الناس ، فهؤلاء الضعفاء هم الذين قالوا بوجود قوة قاهرة مُسَيِّطِرة هي قوة الله ، وهم الذين بسطوا ألسنتهم في الدنيا فرموها بالنذر وحكموا عليها بالفناء .

شواهد الحياة تؤدي رأى هؤلاء الضعفاء : لأن الدنيا حقاً فانية ، ولأن الإنسان حقاً ضعيف ، ولا يمتري في هذه الحقائق أحد ، فالرجل الهائل الذي يأمر وينهى ويستطيع ينقلب في لحظة واحدة إلى مخلوق ذليل حين يدهمه المرض ، أو تلمسه حشرة حقيرة ، أو يهجم عليه كلب مسموم ، أو يتردى في جب عميق .

وهو أذل وأحقر حين يصرعه الموت ، وما ظنكم بمخلوق تفارقه الروح فتعلموه صفرة بشعة ، وتهب منه ريح يمجز عن ملاقاتها أشجع الناس ؟ وما هي مصائر اللذات في الدنيا ؟ أليس كل نعيم إلى زوال ، أين ذهب ملك الطاقة والمستبدين لعهد الفرس والعرب والرومان ؟ وأين ما بقي من الممتع الحسية التي رآها قصر فرساي ، وهو اليوم بلا فراش ولا أثاث ؟ أين لا أين ! إن كان في العالم قصيدة إنسانية خالدة فهي التصوف ، هو وحده الأنشودة الباقية يوم تبيد الأناسيد ، ولو فنيت الدنيا دفعة واحدة وبقي إنسان واحد يفتش عما حق فيها من الكلمات ، لما وجد أصدق من كلمة الصوفية .

٢ — نشأ التصوف إذن في ظلال الضعف ، أي نشأ في ظلال الحق ، يوم عرف الإنسان قيمة نفسه واطمأن إلى أنه مخلوق ضعيف إن تخلت عنه رعاية الله لحظة واحدة هلك وباد .

نشأ التصوف حين شك الإنسان في قيمة الحقائق الإنسانية ، يوم رأى كل قوة إلى ضعف ، وكل وفاء إلى غدر ، وكل حياة إلى موت . وكل شروق إلى غروب .

لا تسألوا متى اهتدى الإنسان إلى قيمته الذاتية ، ويكفي أن تتذكروا

أن البيئات العربية عرفت كثيراً من الأنبياء الذين آثروا الزهد والفِرار من اللذات ، وعرفت أن أطيب الناس ذِكْرًا في العالم القديم هو إبراهيم الخليل الذي حطّم الأصنام وأخلد إلى التوحيد .

ويمكن الحكم بأن أقدم الآثار الصوفية هو « سِفْرُ أَيُّوب » الذي شرح البلايا الإنسانية وصوّر حيرة المرء بين السعادة والشقاء ، والهدى والضلال .

وأقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس هو القرآن ، ذلك الكتاب الذي أطال القول في وصف الدنيا وذمها وثلبها وتحقيرها ، وقضى بأنها لهوٌ ولعبٌ ، وأنها في نضارتها ليست إلا مَتَاعُ الغرور ، القرآن هو أقرب الآثار الصوفية إلى أذهان الناس وإن جهلوا ذلك ، هم يمدّونه كتاب تشريع وزاهٍ كتاب تصوّف . إن التشريع في القرآن ليس إلا تنظيمًا للعلاقات الدنيوية ، والعلاقات الدنيوية في نظر القرآن هي تمهيد للصلات الروحية : صلات الناس بالله الكبير المتعال ، وكل مغنم لا يقرب المرء من ربه هو في نظر القرآن ذُخْرٌ باطلٌ سَخيفٌ .

والإنسان في نظر القرآن هو مخلوق مغرور تطفئه النعمة وتذله البأساء .

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا ، إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الوج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يفتنون في الأرض بغير الحق ، يأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع

الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون . إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون <sup>(١)</sup> .

والقرآن يذكر الناس بأن الأمر كله لله : فهو الذى يحيى وهو الذى يميت « نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرايتم ما تمنون ، أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبذل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون . ولقد علمت النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرايتم ما تحرثون ، أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناهم حطاماً فظلمت تفكهمون ، إنا لمفرمون ، بل نحن محرومون ، أفرايتم الماء الذى تشربون ، أنتم أنزلتموه من الزن أم نحن النازلون ؟ لو نشاء لجعلناه جافاً فلولا تشكرون . أفرايتم النار التى توردون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين ، فستبج باسم ربك العظيم <sup>(٢)</sup> . »

وسياق القول فى القرآن كله يتجه وجهة روحية ، ويذكر المرء بربه ، ويخوفه من بطشه ، ويطمعه فيما أعد للصالحين من جزيل الثواب .

٣ - وكان الرسول يتكشف تقشفا صوفيا ، وقد دخل عليه عمر بن الخطاب فوجده على حصير قد أثر فى جنبه فكلمه فى ذلك فقال : مهلا يا عمر ، أنظنها كسروية <sup>(٣)</sup> .

(٢) سورة الواقعة ٥٧ - ٧٤ .

(١) سورة يونس ٢١ - ٢٤ .

(٣) الشكوكول ص ٢٩٣ .

وَأَنَّهُ رَجُلٌ بَهْدِيَّةٌ فَذَهَبَ يَلْتَمِسُ وَعَاءً يَفْرَغُهَا فِيهِ فَلَمْ يَجِدْ ، فَقَالَ لَهُ :  
فَرَّغْهَا فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا وَقَالَ : أَكَلَ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَشْرَبَ كَمَا  
يَشْرَبُ الْعَبْدُ ، لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَرَى عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى مِنْهَا كَافِرًا  
شُرْبَةَ مَاءٍ <sup>(١)</sup> .

وَفِي كُتُبِ الشَّامِلِ أَخْبَارٌ كَثِيرَةٌ عَنْ تَقَشُّفِ الرَّسُولِ ، وَهُوَ نَفْسُهُ قَدْ  
عَاشَ فِي بَيْتَةٍ صُوفِيَّةٍ ، يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ نَهْيُهُ عَنِ الرِّهَابِيَّةِ وَعَنِ مُوَاسَلَةِ الصُّومِ ،  
وَهُوَ لَمْ يَرْغَبْ فِي الزَّوْجِ إِلَّا لِأَنَّهُ رَأَى نَاسًا يَتَّبِعُونَ ، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ  
وَسْلِ الصِّيَامِ إِلَّا لِأَنَّهُ رَأَى نَاسًا يَصِلُونَ الصِّيَامَ ، وَهَذَا وَذَاكَ مِنْ  
سِمَاتِ التَّصَوُّفِ .

وَالْفَرْقُ بَيْنَ تَصَوُّفِ الرَّسُولِ وَتَصَوُّفِ مَنْ عَاصَرُوهُ أَنَّهُ كَانَ يَتَعَدَّلُ  
وَكَانُوا هُمْ يَسْرِفُونَ .

وَالْقُرْآنُ يَوْصِي الرَّسُولَ بِأَنْ يَصْبِرَ نَفْسَهُ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ  
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَهَذَا تَأْدِيبٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَفِيهِ اعْتِرَافٌ بِشَخْصِيَّةِ  
مَنْ يَنْصَرِفُ عَنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَنْقَطِعُ لَدَى اللَّهِ . وَقَدْ وَرَدَ اسْمُ الْمُؤْمِنِينَ  
فِي الْقُرْآنِ فِي سِيَاقٍ يَبَيِّنُ نَسَبَتَهُمْ إِلَى الرُّوحَانِيَّةِ إِذْ قَالَ « إِنْ اللَّهُ اشْتَرَى مِنَ  
الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ » وَلَا يُسَامَحُ فِي مَهْجَتِهِ إِلَّا أَجُودُ النَّاسِ ،  
وَكَانَ فِي شَمَائِلِ الصَّحَابَةِ مُصَدِّقٌ لِهَذِهِ الرُّوحَانِيَّةِ ، فَقَدْ جَادَ أَبُو بَكْرٍ بِجَمِيعِ  
مَالِهِ ، وَجَادَ عُمَرُ بِشَطْرٍ مَالِهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ :  
مِثْلَهُ . وَقَالَ لَأَبِي بَكْرٍ : مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ ؟ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ . فَقَالَ النَّبِيُّ  
بَيْنَكُمَا مَا بَيْنَ كَلِمَتَيْكُمَا . فَالْصَّدِيقُ وَفَى بِتَمَامِ الصَّدَقِ فَلَمْ يَمْسِكْ سِوَى الْمَحْبُوبِ

عنده وهو الله ورسوله<sup>(١)</sup> وذلك بالتأكيد تصوف وروحانية .

٤ — التصوف قديم عرفه العرب قبل الإسلام وتخلقوا به لعهد الرسول ، ولكن يظهر أنه لم يكن ملحوظا في كلام الناس ، ولم يختصوه بدرس ولا بيان ، وكانت الأعمال الروحية تندرج في الأعمال الدينية . وأول من تلفت الناس إلى كلامه في المعاني الوجدانية وأسرار القلوب هو حذيفة بن اليمان الصحابي الجليل ، وقد قيل له : نراك تتكلم في هذا العلم بكلام لانسمعه من أحد من أصحاب رسول الله فمن أين أخذه ؟ فقال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس يسألونه عن الخير ، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، وعلمت أن الخير لا يسبقني . وقال مرة : فعلت أن من لا يعرف الشر لا يعرف الخير ، وفي لفظ آخر : كان الناس يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا وكذا ، يسألونه عن فضائل الأعمال ، وكنت أقول : يا رسول الله ، ما يفسد كذا وكذا . فلما رآني أسأل عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم<sup>(٢)</sup> .

قال السكي : وكان حذيفة قد خُصَّ بعلم المنافقين وأُفردَ بمعرفة علم النفاق وبسرائر العلم ودقائق الفهم وخفايا اليقين من بين الصحابة ، فكان عمر وعثمان وأكابر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن الفتن العامة والفتن الخاصة ويرجعون إليه في العلم الذي خُصَّ به . وكان عمر يستكشفه عن نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق فبرأه منه ، ثم يسأله عن علامات النفاق وآية المنافق فيخبر من ذلك بما يصلح مما أُذِنَ له فيه ،

(٢) الفتوح ج ٢ ص ٢٣ .

(١) الإحياء ج ١ ص ٢٢٥ .



ويستعفى مما لا يجوز له أن يخبر به فيُعذّر في ذلك<sup>(١)</sup>.

ومعنى هذا أن الرسول كان يكتُم أسرار التصوف ، ولا يمنحها غير الخواص ،  
ومعناه أيضاً أن التصوف هو البصر بأسرار القلوب ، وما يَمْرِض لها من دقائق  
الرياء والتفاق .

وعن حذيفة بن اليمان تعلم الحسن البصرى ، وهو إمام الصوفية ، أثره  
يقفون ، وسبيلَه يتبعون ، ومن مشكاته يستضيئون<sup>(٢)</sup> وقد كان الحسن  
البصرى أحد المذكّرين ، وكانت مجالسه مجالس الذكر يخلو فيها مع إخوانه  
وأتباعه من النساك والعباد مثل مالك بن دينار وثابت البناني وأيوب السختياني  
ومحمد بن واسع وفرقد السنجي وعبد الواحد بن زيد ، وكان يحدث أصحابه  
في خواطر القلوب ، وفساد الأعمال ، ووسواس النفوس ، وربما قنّع بعض  
أصحاب الحديث رأسه فاخترق من ورائهم لسمع ذلك . وكان من خيار  
التابعين بإحسان . وقد لقي سبعين بدرياً ورأى ثلثمائة صحابي<sup>(٣)</sup> ، وكانت  
أمه مولاة لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ويقال إنها ألقمته ثديها  
تعلله حين بكى فدرّ ثديها عليه<sup>(٤)</sup> وكان كلامه يشبه بكلام رسول الله صلى  
الله عليه وسلم<sup>(٥)</sup> وكان أبو قتادة العدوي يقول : عليكم بهذا الشيخ ، فوالله  
مارأيتنا أحداً لم يصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه بأصحاب رسول  
الله صلى الله عليه وسلم منه<sup>(٦)</sup> وكانوا يقولون : كنا نشبه بهدى إبراهيم  
الخليل صلى الله عليه وسلم في حلمه وخشوعه ووقاره وسكينته ، فكان على  
شماله<sup>(٧)</sup> ونذرت امرأة بالبصرة نذرا إن فعل الله تعالى ذلك بها أن تنسج من

(١) القوت ج ٢ ص ٢٢

(٢) ص ٢٣

غزلها ثوباً ، وصفته ، وتسكوه خير أهل البصرة ، فزات تمام نذرهما فوفت بما نذرت ثم سألت : مَنْ خير أهل البصرة ؟ فقالوا : الحسن (١) .

قال المكي : وكان الحسن رضى الله عنه أول من أنهج سبيل هذا العلم وفق الألسنة به ، ونطق بعمانيه ، وأظهر أنواره ، وكشف قناعه ، وكان يتكلم فيه بكلام لم يسموه من أحد من إخوانه ، فقليل له : يا أبا سعيد ، إنك تتكلم في هذا العلم بكلام لم نسمه من أحد غيرك ، فمن أخذت هذا ؟ فقال : من حذيفة بن اليمان (٢)

والحسن البصرى شخصية جذابة ، ويقال إنه الشاب الذى أثنى عليه على ابن أبى طالب ، فقد دخل جامع البصرة وجعل يُخرج القصاص ويقول : القصص بيده ، فاتته إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمع إليه فأعجبه كلامه فقال : يا فتى ، أسألك عن شيئين فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك . فقال : سل يا أمير المؤمنين ، فقال : أخبرني ما صلاح الدين وما فساد ؟ فقال صلاحه الورع وفساده الطمع . قال : صدقت ، تكلم ، فثلك يصلح أن يتكلم على الناس (٣)

وكان شديد الخوف من الله ، ويقال إنه ماضحك أربعين سنة ، وكان في حزنه كأنه أسيرٌ قدّم ليضرب عنقه ، وإذا تكلم حسبته بعبارة الآخرة فيخبر عن مشاهدة ، وإذا سكنت ظننت النار تسمرُ بين عينيه . وعوتب في شدة حزنه فقال : ما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع على في بعض ما بكره ففقتني فقال : اذهب فلا عفرت لك (٤) .

(٢) القوت ج ٢ ص ٨٨

(١) القوت ج ٢ ص ٢٣

(٣) ج ١ ص ١٨٣

ومن كلامه وقد رأى هيئات الناس في أحد أيام رمضان : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان مضماراً خلقه ، يستبقون فيه بطاعته إلى مرضاته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف آخرون فخابوا ، فالمعجب من الضاحك اللاعب في اليوم الذي يفوز فيه المحسنون ، ويخسر فيه المبطون ، أما والله لو كشف الغطاء لشغل محسن بإحسانه ، ومسيئ بإساءته<sup>(١)</sup>.

ونظر إلى قوم منصرفين من صلاة الفطر يتدافعون ويتضاحكون فقال : الله المستعان ، إن كان هؤلاء قد تقرر عندهم أن صومهم قد تقبل فما هذا محل الشاكرين ، وإن علموا أنه لم يقبل فما هذا محل الخائبين<sup>(٢)</sup>.

قال المصري : ويقال إنه لم يكن تابعي أفضل منه ، هذا قول أهل العراق جميعاً ، وأهل الحجاز يقدمون سميد بن المسيب عليه . وكان سميد أحسن من الحسن ورعاً ، وأشد الناس جزعاً ، وأقلهم كلاماً . وكان الحسن لا يدع أن يتكلم بما هجس في نفسه ، وجاش في صدره<sup>(٣)</sup>.

ونحن نعرف لم كان الحسن كثير الكلام ، فقد كان معلماً ، والمعلمون أكثر الناس كلاماً . ولا سيما إذا كانوا أصحاب مذاهب . وكان الحسن يعلم الناس أسرار القلوب . وكان يعرف أنه صاحب مذهب وأن عليه أن يشرح مافيه من دقائق وأسرار . وكذلك نجد اسمه في جميع مؤلفات الصوفية ، لأنه المعلم ، ولأن كلماته الماثورة تكاد تجل عن الإحصاء .

• — والفهم من أحوال البصري أنه اهتم بشرح التصوف وتكلم عن آفات النفوس ، وقدمات سنة عشر ومائة ، وهو بذلك أقدم الأشياخ عند الصوفية .

ويليه في المنزلة أبو حمزة الصوفي ، وهو أستاذ البغداديين ، وأول من تكلم ببغداد في مذاهب التصوف : من صفاء الذكر ، وجمع الهمة ، والمحبة ، والشوق ، والقرب ، والأنس ، لم يسبقه إلى الكلام بهذا على رهوس الناس ببغداد أحد<sup>(١)</sup> .

وكان أبو حمزة من كبار القوم ، وهو الذي يقول :  
نهاني حياتي منك أن أكشف الهوى  
وأغنيتهني بالقرب منك عن الكشف  
ترأيت لي بالنيب حتى كأنما  
تبشرني بالنيب أنك بالكف  
أراك وبى من هيتي لك وحشة  
فتؤنسني بالمعطف منك وباللطف  
وتُخني محبسا أنت في الحب حثفه  
وذا عجب كون الحياة مع الحنف<sup>(٢)</sup>

وخرج جماعة من الصوفية يستقبلونه من مكة فإذا به قد شحب لونه فقال  
الجريري : ياسيدي ، هل تتغير الأسرار إذا تغيرت الصفات ؟ قال معاذ الله  
لو تغيرت الأسرار لتغير الصفات لهلك العالم ، ولكنه ساكن الأسرار فخاها  
وأعرض عن الصفات فلاشاها .

ثم ولي وهو يقول :

كما ترى صيرني قطع قفار الدمن

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٤ .

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٩٣ .

شردني عن وطني كأنني لم أكن  
إذا تغيبت بدا وإن بدا غيبي  
يقول لا تشهد ما يشهد أو تشهدني<sup>(١)</sup>

٦ - تلك صورة تقريبية لنشأة التصوف في الأخلاق . ولنتذكر أن مؤرخي هذا الملم مجمعون على أن لفظ التصوف لم يُعرف مصحوباً بالرسوم إلا في القرن الثاني ، وإن كان منهم من أشار إلى أن اللفظ كان معروفاً في القرن الأول<sup>(٢)</sup> وكانت صحبة رسول الله أشرف الألقاب ، فاستغنوا بها عن الأتسام بالتصوف ، ثم قيل القراء والزهاد والنسك والمبَاد ، ثم قيل الصوفية<sup>(٣)</sup> .

والظاهر أن النسك كانوا فريقين : أحدهما يتعبد في صمت ، وثانيهما يتعبد ويتفلسف ، فالذين اكتفوا بحسن الخلق والزهد في الدنيا والتأدب بأدب الشرع لقبوا بالنسك والقراء والزهاد والمبَاد ، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتِها ، واهتموا بشرح ما يرد على القلب من الخواطر ، وحرصوا على أن تكون لهم صيغة مذهبية ، لقبوا بالصوفية .

وهؤلاء وأولئك كان لهم وجود محسوس ، وعُرفت لهم مقامات في وعظ الخلفاء والوزراء ، وكانت مذاهبهم بسيطة أول الأمر ، ثم تعقدت

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٩٤ .

(٢) انظر اللع ص ٢٢ .

(٣) انظر اللع ص ٢٢ ومقدمة ابن خلدون ص ٤١١ . والياضي يرى أن أهل الصفة هم الصبر الأول من الصوفية ، ويقول نقلاً عن شهاب الدين السهروردي : وقيل كان منهم طائفة بخراسان يأوون إلى الكهوف والغارات ولا يسكنون القرى والمدن فسموهم في خراسان شكتنية ، لأن شكتف اسم القارة عندهم ، وأهل الشام يسمونهم جوعية ( انظر ص ٣٤٤ و ٣٤٥ ج ٢ من كتاب نهر المحاسن القالية ) .

وَتَشَعَّبَتْ بِمَدَّ أَنْ كَثُرَ اتِّصَالُهُمُ بِالنَّاسِ . وَطَالَتْ مَجَادِلَتُهُمْ لِأَهْلِ الْفَقْهِ وَالتَّوْحِيدِ .

٧ - ويمكن الحكم بأن أول مشكلة عقلية عَرَضَتْ لِأُولَئِكَ الْقَوْمِ هِيَ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ، أَوِ الشَّرْعُ وَالْحَقِيقَةُ ، وَسَاعَدَ عَلَى وَجُودِ هَذِهِ الْمَشْكَالَةِ وَرُودِ آيَاتِ فِي الْقُرْآنِ تَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ ، مِنْ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » فَالْبَلِيدُ يَفْتَقِرُ فِي فَهْمِهِ إِلَى أَنْ يَقْدَرَ لَهَا حَيَاةٌ يَخْلُقُهَا اللَّهُ لِلْسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَعَقْلًا وَفَهْمًا لِلخُطَابِ ، وَخُطَابًا هُوَ صَوْتُ وَحَرْفُ تَسْمَعُهُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ فَتَجِييان بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ وَتَقُولَانِ : أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، وَالْبَصِيرُ يَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ لِسَانَ الْحَالِ وَأَنَّهُ إِنْبَاءٌ عَنْ كَوْنِهِمَا مُسَخَّرَتَيْنِ بِالضَّرُورَةِ وَمُضْطَرَتَيْنِ إِلَى التَّسْخِيرِ . . . . . وَمِنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِغْ بِحَمْدِهِ » فَالْبَلِيدُ<sup>(١)</sup> يَفْتَقِرُ فِيهِ إِلَى أَنْ يَقْدَرَ لِلْجَهَادَاتِ حَيَاةً وَعَقْلًا وَنَظْمًا بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ حَتَّى يَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ لِيَتَحَقَّنَ تَسْبِيحَهُ ، وَالْبَصِيرُ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أُرِيدَ بِهِ نَظْمُ اللِّسَانِ ، بَلْ كَوْنُهُ مُسَبِّحًا بِوُجُودِهِ وَمُقَدَّسًا بِذَاتِهِ ، وَشَاهِدًا بِوَحْدَانِيَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، كَمَا يَقُولُ :

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

وَكَمَا يَقَالُ هَذِهِ الصَّنَمَةُ الْمُحْكَمَةُ تَشْهَدُ لَصَانِمَا بِحَسَنِ التَّدْيِيرِ وَكَمَالِ الْعِلْمِ لَا بِمَعْنَى أَنَّهَا تَقُولُ أَشْهَدُ بِالْقَوْلِ ، وَلَكِنْ بِالذَّاتِ وَالْحَالِ . . . . . فَهِيَ تَشْهَدُ لِنَاظِقِهَا

(١) كَلِمَةُ « الْبَلِيدِ » هِيَ تَعْبِيرُ الْفَرَايِ وَهِيَ تَبَيَّنَ كَيْفَ يَحْضُرُ أَهْلُ الظُّلُومِ . وَقَدْ اتَّفَقَ لِبَعْضِ الصُّوفِيَّةِ أَنَّ يَسْتَبْدِ الْمَهْدَايَةَ عَلَى الْفَقْهَاءِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي جَامِعِ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ ج ٢ ص ٣١٥ مَا نَصَهُ « وَمِنْ كَرَامَاتِ الرُّسُلِ الَّتِي أَهْرَدَ بِهَا مِنْ غَالِبِ الْأَوْلِيَاءِ تَسْلِيْكُهُ لِنَحْوِ ثَلَاثِينَ نَاضِيًا . وَكَانَ يَقُولُ لِلْعُرْسِيِّ : لَيْسَ الشَّأْنُ أَنَّ تَسْلُكَ كُلِّ يَوْمٍ الْفَاغَمِ الْعَوَامِ . بَلْ أَنَّ تَسْلُكَ فِيهَا وَاحِدًا فِي مِائَةِ نَامٍ » .

بالتقديس ، يدرك شهادتها ذوو البصائر دون الجاحدين ، ولذلك قال تعالى  
« ولكن لا تفقهون تسبيحهم »<sup>(١)</sup> .

قال . الغزالي : وهذا الفن مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر  
في علمه ، وتظهر به مفارقة الباطن للظاهر ، وفي هذا المقام لأرباب المقامات  
أسرار<sup>(٢)</sup> .

وكذلك يقال في قوله تعالى « وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » وقوله :  
« وقالوا لجلودهم لم تشهدتم علينا ، قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء »  
وكذلك المحاطبات التي تجري من منكر ونكير ، وفي الميزان والصراف  
والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم « أفيضوا علينا من الماء  
أو مما رزقكم الله »<sup>(٣)</sup> .

فهذه وأمثالها مما اختلف فيه العلماء والصوفية ، ففريق يقول إن ذلك كله  
بلسان الحال ، وفريق يَحْسِم الباب ويمنع التأويل وقد غلا في ذلك أحمد  
ابن حنبل حتى منع تأويل قوله « كن فيكون » وزعم هو وأصحابه أن ذلك  
خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل  
مكون<sup>(٤)</sup> وبلغ به الأمر أن منع تأويل قول الرسول « الحجر الأسود يمين  
الله في أرضه » وقوله « قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » وقوله  
« إني لأجد نفَسَ الرحمن من جانب اليمين » وعند الغزالي أن ابن حنبل لم يمنع  
التأويل إلا رعاية لصالح الخلق ، فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن  
الضبط وجاوز حدَّ الاقتصاد ، إذ حدُّ الاقتصاد لا ينضبط<sup>(٥)</sup> .

(١) انظر الإحياء ج ١ ص ١١١ .

٨ — وما زال الفقهاء يعيشون في طريق والصوفية في طريق حتى بعدت بينهم شقة الخلاف ، واتفق أن كان المزبن عبد السلام يظن على ابن عربي ويقول : هو زنديق ، فقال له بمض أصحابه : أريد أن تربى القطب ، فأشار إلى ابن عربي . فقال له : فأنت تظن فيه ؟ فأجاب : أصون ظاهر الشرع<sup>(١)</sup> ومعنى هذا أن ظاهر الشرع لا يعترف للصوفية بوجود صحيح . وقال بمض الصوفية لأحد الريدين : إن كنت تريد الجنة فسر إلى ابن مدين ، وإن كنت تريد رب الجنة فاهل إلى<sup>(٢)</sup> .

فالجنة طريقها الشرع ، أما السبيل إلى الله فهو التصوف .

وكان ابن الكاتب إذا ذكر الروزباري يقول : سيدنا أبو على فقيل له في ذلك فقال : لأنه ذهب من علم الشريعة إلى علم الحقيقة . ونحن رجعنا من علم الحقيقة إلى علم الشريعة<sup>(٣)</sup> .

فالعلم الذي يسود صاحبه هو التصوف ، أما الفقه فحصول المامة من الناس .

وقيل لبعض الصوفية : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على الموام بحكم الشرع نفمسة دراهم . وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع<sup>(٤)</sup> .

وكانوا يقولون : أهل العلم على ضريين ، عالم عامة ، وعالم خاصة ، فأما عالم العامة فهو الفتى في الحلال والحرام ، وهؤلاء أصحاب الأساطين<sup>(٥)</sup> ، وأما عالم الخاصة فهو العالم بعلم التوحيد والمعرفة وهؤلاء أهل الزوايا وهم المنفردون<sup>(٦)</sup> .

(١) فتح الطيب ج ١ ص ٥٨١ .

(٢) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣١ .

(٣) جمع اسطوانة وهي عمود المسجد .

(٤) النفع ج ١ ص ٥٨٣ .

(٥) الإحياء ج ١ ص ٢٢٥ .

(٦) القوت ج ٢ ص ١١ .



ورفض المحاسبي أن يأخذ شيئا من ميراث أبيه ، وكان ورث منه سبعين ألف درهم ، وكان أبوه يقول بالقَدَر فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئا . وقال : صحت الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا يتوارث أهل ملتين شيئا<sup>(١)</sup> .

والشاهد في هذا الخبر أن الصوفية كانوا يرون أنفسهم ملة ، ويرون مخالفتهم في رأى ملة أخرى .

وكان ابن العفیف يقول : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلّموا لهم حالم<sup>(٢)</sup> .

والخمسة الذين ذكرهم ابن العفیف جمعوا بين العلم والحقائق ، فهم أهل للاقتداء ، أما الباقون فوقفوا عند الحقائق فينبغي أن يسلم لهم حالم ، لأن لهم بدّوات لا تعرفها الشريعة .

٩ — وما زال الخلاف بين الفرقتين يقوى ويشدد حتى رأينا من يقول : من لم يَزِنْ أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يهتم خواطره فلا تعدّه في ديوان الرجال<sup>(٣)</sup> .

ولو مضينا نستقصي ما كُتِبَ طمنا في الصوفية لاطال بنا القول ، ويكفى أن يعرف القارئ سر الخلاف ، فأهل الظاهر يرون الشريعة قوانين محدودة منظمة يسهل الرجوع إليها في الفصل بين الناس ، ولا كذلك التصوف فإن أهله يعتمدون على الخواطر ويستفتون القلوب ، وليس في ذلك شيء مضبوط ، وما يدركه هذا قد يجهله ذاك . ولو أضيفت سلطة الحكومة

(٢) القشيرية ص ١٧ .

(١) القشيرية ص ١٢ .

إلى الصوفية لسادت الظنون ، وأصبح أمر الناس إلى فساد واشتبهت مسالك اليقين .

وقد وضع ابن الجوزي كتاباً نفيساً سماه « تلبس إبليس » عرض فيه لأحوال الصوفية بالذم والتقريع ، وهو كتاب يقوم على أساس الشرع والعقل ، وقد عاب عليهم أن يظنوا أن المراد من رياضة النفوس هو قمع ما في البواطن من الصفات البشرية ، مثل قمع الشهوة والغضب وغير ذلك ، وليس هذا مراد الشرع ، ولا يتصور إزالة ما في الطبع بالرياضة ، وإنما خلقت الشهوات لفائدة ، فلولا شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولولا شهوة التكاح لانقطع النسل ، وكذلك حب المال مركز في الطباع لأنه يوصل إلى الشهوات وإنما المراد كف النفس عما يؤدي من جميع ذلك وردها إلى الاعتدال فيه<sup>(١)</sup>

وبفضل اعتماد الصوفية على الخواطر وإهمال الشرع شاعت القالة بأنهم مجانين ، وروى عن الشافعي أنه قال : لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحرق<sup>(٢)</sup> ، وأنه قال : ما لزم أحد الصوفية أربعين يوماً فماد عقله إليه أبداً<sup>(٣)</sup> ، وكان يونس بن عبد الأعلى يقول : صحبت الصوفية ثلاثين سنة ما رأيت فيهم عاقلاً إلا مسلماً الخواص<sup>(٤)</sup> .

وعاب ابن الجوزي عليهم أن يقولوا ( شريعة وحقيقة ) وقال في تفنيد ذلك :

« هذا قبيح ، لأن الشريعة ما وضعه الحق لمصالح الخلق ، فما الحقيقة بعدها سوى ما وقع في النفوس من إلقاء الشياطين ، وكل من رام الحقيقة

(٢) التلبس من ٣٧٠ .

(١) تلبس إبليس من ٣٦٦ .

في غير الشريعة فغرور مخدوع ، وإن سمعوا أحداً يروى حديثاً قالوا :  
مساكين ، أخذوا عليهم ميتاً عن ميت ، وأخذنا عدلنا عن الحى الذى لا يموت  
فمن قال حدثنى أبى عن جدى قلت : حدثنى قلبى عن ربى ، فهلكوا وأهلكوا  
بهذه الخرافات قلوب الأغمار ، وأنفقت عليهم لأجلها الأموال ، لأن الفقهاء  
كالأطباء والنفقة فى ثمن الدواء صعبة ، والنفقة على هؤلاء كالنفقة على  
المننيات ، وبئضهم الفقهاء أكبر الزندقة ، لأن الفقهاء يحظرونهم بفتاويهم عن  
ضلالهم وفسقهم والحق يثقل كما تثقل الزكاة <sup>(١)</sup> ، إلى آخر ما وعت جمعة  
ابن الجوزى من التبال .

١٠ — وابن الجوزى لم يفتّر شيئاً على الصوفية حين اتهمهم بازدراء أهل الفقه  
والحديث فهم بالفعل يرون أنفسهم ورثة الأنبياء ، ويسمهم إخوان الصفا « أولياء  
الله وعباده الصالحين » ويدكرون من صفاتهم أنهم لا يذكرون فى مجالسهم وخلواتهم  
أحدًا إلا الله ، ولا يتفكرون إلا فى مصنوعاته ، ولا ينظرون إلا إلى فنون إحسانه  
وعظيم إنعامه وجميل آلائه ، ولا يسمون إلا الله ، ولا يخدمون إلا إياه ، ولا يرغبون  
إلا إليه ، ولا يرجعون إلا منه . . وذلك أنهم يرونه رؤية الحق فى جميع متصرفاتهم  
ويشاهدونه فى كل حالاتهم ، لا يسمعون إلا منه ، ولا ينظرون إلا إليه ، ولا يرون  
غيره على الحقيقة . فمن أجل ذلك انقطعوا إليه عن الخلق ، واشتغلوا بالخالق عن  
المخلوق وبالرب عن الربوب <sup>(٢)</sup> .

ويذكر إخوان الصفا أن نعت هؤلاء القوم ورد فى آيات كثيرة من  
القرآن ، وأن النبى أثنى عليهم فقال : « لا يزال فى هذه الأمة أربعون رجلاً

من الصالحين على ملة إبراهيم الخليل<sup>(١)</sup> وأن هؤلاء الصالحين هم الذين سماهم الله في كتابه : « أولى الأبواب » و « أولى النهى » و « أولى الأبصار » فهم أولياء الله وأحباؤه ، وإليهم أشار بقوله لإبليس « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » وإليهم أشار الرسول في وصيته لأبى هريرة بقوله : « عليك يا أبا هريرة بطريق أقوام إذا فزع الناس لم يفزعوا ، وإذا طلب الناس الأمان من النار لم يخافوا » قال : من هم يا رسول الله صفهم لى حتى أعرفهم قال : قوم من أمتى فى آخر الزمان يحشرون يوم القيامة محشر الأنبياء ، إذا نظر إليهم الخلائق ظنوم أنبياء حتى أعرفهم أنا بسياهم فأقول : أمتى أمتى ، ليعرف الخلائق أنهم ليسوا بأنبياء ، ويمرون مثل البرق والريح ، ينشى أبصار الجميع نورهم . قال أبو هريرة : قلت يا رسول الله مرنى بمثل عملهم لعل ألحق بهم . فقال الرسول : يا أبا هريرة ، إن القوم ارتكبوا طريقاً صعباً لحقوا بدرجة الأنبياء ، آثروا الجوع بعد ما أشبعهم الله ، والعمرى بعد ما كساهم الله تركوا ذلك رجاء ما عند الله ، تركوا الحلال مخافة حسابه ، صحبوا الدنيا بأبدانهم من غير أن تعلق بشيء منها قلوبهم ، تمجَّب الأنبياء والملائكة من طاعتهم لربهم ، فطوبى لهم ، وددت أن الله جمع بينى وبينهم . . . ثم بكى رسول الله شوقاً إلى رؤيتهم<sup>(٢)</sup> .

١١ - وهذا الكلام صريح فى أن الصوفية يرون أنفسهم ورثة الأنبياء ، بل هو صريح فى أنهم نظائر الأنبياء ، وليس فى هذا غرابة ، فالصوفية من أوائل المتمردين على التقاليد الشرعية ، وهذا التمرد فيه ضعف وفيه قوة ،

هو ضعف من حيث إنه يفتح باب الفوضى في عالم الأخلاق ، ويمكن من لا يعرف من الخوض في الشئون الماشية والوجدانية بأحكام ما أنزل الله بها من سلطان ، وهو قوة من حيث يدعو إلى قوة الشخصية والاحتكام إلى الوجدان .

والصوفية يذكرون أن النبي قال « استفت قلبك ، وإن أفتاك المفتون<sup>(١)</sup> » وأنه قال « استفت قلبك ، وإن أفتوك وأفتوك<sup>(١)</sup> » كأنهم يحتاجون إلى سند من كلام الرسول !

وعند التأمل نرى الوقوف عند ظاهر الشريعة لا يليق إلا بالعوام من الناس ، أما الخواص فلمهم مجالات يدركها المارفون ، وما كان يمكن أن يستوى الذين يملكون والذين لا يملكون في فهم دقائق الأشياء ، ففي العالم أسرار يطلع على بعضها الخواص ، والشرع نفسه فيه دقائق كثيرة لا يفهما العوام من الفقهاء . . . على أن رجال الظاهر أسرفوا في التزمّت وبلغ بهم الحق أن أقفلوا باب الاجتهاد ، كأن الدنيا انتهت إلى ما انتهى إليه أئمتهم ، وكأن العالم ظهرت بواطنه وخوافيه فلم يبق فيه من المستورات ما يحتاج إلى شرح أو تأويل .

ولكن هل يكفي هذا ليصبح الأمر كله إلى الصوفية ، ويصح للغزالي أن

يحكم بأن الاشتغال بعلم الظاهر بطلالة ؟

إن ضيق الذهن لحق بالفريقين فلم يتيسر لها اتفاق ، ولو تأمل أهل الظاهر لعرفوا أن النفس الإنسانية أعمق من أن تُسَبَّر أغوارها في جيل

أوجيلين ، وأن وساوس الصوفية ليست إلا شواهد لعلم النفس ، وأن الإنسان لا يهذى ولا يسخف إلا وفقاً لقوانين مستورة يوجب العقل أن نبحت عما لها من عناصر وأصول ، وما قد يبدو سخفاً وهدياناً له أحياناً وجوه من الحق يعلمها الراسخون في علم النفس وعلم منافع الأعضاء .

فن الفضول أن يتحكم الفقهاء في مصائر النفس الإنسانية ، وأن يقضوا بأن كل خروج على آفاقهم زيغٌ وضلال ، وأن نصوص القرآن والحديث لا يجوز أن توجه إلى غير ما يقتضيه ظاهر الحروف .

ولو عقل الصوفية لعرفوا أن من الخرق أن تكون آراؤهم دستوراً يجب احترامه في جميع البيئات ، وكيف يُفرض على الناس جميعاً أن يقضوا أعمارهم في التفكير والتدبر ؟ إن الفكر شيء جميل ولكن فرضه على جميع الناس سخف لا يعدله سخف ، وكيف غاب عنهم أن الففوات العقلية التي يتمتع بها الجماهير هي أساس النظام في هذا الوجود ؟ وكيف كانت تصبح الدنيا لو أن الموم تفلسفوا ، وادعوا الاتصال بالله ، كلما عرض لهم خاطر جديد ؟

١٣ - خلاصة القول أن المداوة بين أهل الظاهر وأهل الباطن لا تقوم على أساس صحيح ، فأهل الظاهر وجودهم ضرورى لأنهم يحمون الناس من الاستسلام إلى الأوهام والأضاليل ، وأهل الباطن وجودهم ضرورى لأنهم يعطرون الشريعة بعبير الروح ويسكبون عليها أنداء الخيال .

وأهل الظاهر هم الذين حفظوا الموم الشرعية ، وصيروا الإسلام من الشرائع المؤسسة على قواعد من الثقافة الفقهية .

وأهل الباطن هم الذين خلقوا العصبية الدينية ، وصوروا الرسول وأصحابه

بصور روحية رائعة هي التي حفظت القوة المعنوية للدين الحنيف .

ولا يمكن إغفال ما أفاد الإسلام من الثقافة الصوفية ، فالتصوف هو

الذي ملأ الجوانب الخالية من قلوب المسلمين ، وهو الذي أنساهم الخشونة

المادية التي أذاعتها الثقافة الفقهية ، وقد نشرت جريدة السياسة في ٣ يونية

سنة ١٩٣٢ نبذة من كتاب فلسفة الدين الذي ألفه بالإنجليزية المستر ادوار روس

( ص ١٢٤ ) جاء فيها قوله :

« إن كلمة الإسلام معناها الإذعان لإرادة الله ، وأُخْلِقَ بذلك أن

يفضى إلى اعتبار الله قضاء متحكماً غير مفهوم ، من العبث التمرد عليه ، وليس

من صفاته لا القداسة ولا الحب ، ومع ذلك فقد ظهر مسلمون لا يرتاحون

إلى هذا الدين الجاف ، وإن في ظهور الفرق الصوفية التي انتشرت

في الإسلام لشهادة بوجود الشوق إلى اتصال يكون أوثق بإلهه حتى يفيض

بالحب » .

وهذه الكلمة صحيحة ، لولا ما فيها من وصف الإسلام بالجفاف ، وليس

من الضروري أن تتصور الله رفيقاً عطوفاً في جميع الأحيان ، فمن الجهل

أن ننسى غضب الله على الأشقياء والظالمين ، ولكن من الجهل أيضاً أن

لا تتمثل الله إلا وفي يده سوطٌ ، فالله لطيف جداً ، وهو بالموثمين

رءوف رحيم .

والفقهاء سدّوا منافذ الرفق حين صوروا الله بالقسوة والعنف . والصوفية

سدّوا منافذ الحزم حين وصفوا الله بالرفق المطلق . وحب الله لا يتوقف

على ما ينتظرون من الرفق ، فقد نحب الله ونحن نخافه أشد الخوف ، ومن لا يعرف  
الرهبة فليس بحب ولا محبوب .

١٤ — وهنا تعرض مسألة جوهرية في نظام الأخلاق هي الفرق بين  
الزهد والتصوف ، فالزهد : هو ترك الدنيا خوفاً من الحساب ، والتصوف :  
هو الإقبال على صفاء النفس لتتصل بالله ، فغاية الزاهدين هي السلامة ، وغاية  
الصوفية هي الوصول ، فالزاهد يخاف الدنيا لأنها قد تبعده من الجنة ، والصوفي  
يخاف الدنيا لأنها قد تشغله عن الله ، وهذا الفرق فرضٌ صِرْف ، فليست  
هناك حدود واضحة تفصل الزهد عن التصوف ، وإنما أخذنا هذا الفرض  
من التاريخ فالعباد كانوا يسمون زهاداً ونسألكم في المهد الأول قبل أن يوجد  
التمق في دراسة الأسرار النفسية ، ثم سموا صوفية في المهد الذي كثر فيه الاهتمام  
بدرس أسرار القلوب .

١٥ — إلى هنا عرفنا صوراً من تطور التصوف . أفيستطيع القارى أن يتصور  
أن الصلة لا تزال وثيقة بين ما ابتدأ به التصوف وما انتهى إليه ؟

لقد قلنا إن التصوف قديم في البيئات العربية ، واتخذنا من القرآن شواهد  
للتصوف ، أفيمكن الحكم بأن الصوفية وقفوا عند روحانية القرآن ؟

إنه لا مفر من الاعتراف بأن شخصية المسيح كانت لها أثر في تكوين  
الزعات الصوفية ، فما تكاد كتب التصوف تخلو من الاستشهاد بكلام المسيح .  
وقد رأينا فيما سلف أن شخصية الراهب كانت محترمة ، وأن الصوفية كانوا  
ينقلون كلام الرهبان . وكان الناسك من المسلمين يذكر النصارى بالمسيح<sup>(١)</sup>



فلنصف إلى ما سلف أن الصوفية كان يسرهم أن يسجلوا أنهم أعرف  
بربهم من الرهبان ، وأن التصوف الحق يرجع إلى الحب المطلق الذى لا ينتظر  
الجزاء ، ولا يخاف العقاب ، أو الثقة المطلقة التى لا يعرفها شك ولا يساورها  
ارتياب .

وقد حدثوا أن أحد العارفين اجتاز يوماً فى بعض سياحته براهب فى صومعة  
على رأس تل فوق يازائه فناداه فأخرج الراهب رأسه من صومعته وجرت بينهما  
المحاورة الآتية :

- الراهب : من هذا ؟
- الصوفى : رجل من أبناء جنسك الآدميين .
- الراهب : وما الذى تريد ؟
- الصوفى : كيف الطريق إلى الله ؟
- الراهب : فى خلاف الهوى .
- الصوفى : فما خير الزاد ؟
- الراهب : خير الزاد التقوى .
- الصوفى : لم تباعدت عن الناس وتحصنت فى هذه الصومعة ؟
- الراهب : مخافة على قلبى من فتنهم ، وحذراً على عقلى من الخيرة من  
سوء عشرتهم ، فطلبت راحة نفسى من مقاساة مداراتهم ، وقبيع أفعالهم ،  
وجملت معاملتى مع ربى فاسترحت منهم .
- الصوفى : أخبرنى كيف وجدتهم ؟
- الراهب : أسوأ قوم وشر أصحاب ففارقتهم .

— الصوفي : كيف وجدتم يا أتباع المسيح معاملتكم مع ربكم ؟

— الراهب : — بعد تردد — أسوأ معاملة .

— الصوفي : وكيف ذلك ؟

— الراهب : لأنه أمرنا بكّد الأبدان ، وجهّد النفوس ، وصيام النهار

وقيام الليل ، وترك الشهوات المركوزة في الجبلة ، ومخالفة الهوى الغالب ،

ومجاهدة المدو المتسلط ، والرضا بخشونة العيش ، والصبر على الشدائد والبلوى

ومع هذه كلها جعل الأجر نسيئة في الآخرة بعد الموت مع بعد الطريق والحيرة

فهذه حالتنا في معاملتنا مع ربنا . نخبرني عنكم ، يا معشر أتباع أحمد ،

كيف وجدتم معاملتكم مع ربكم ؟

— الصوفي : خير معاملة .

— الراهب : صفها لي .

— الصوفي : إنه أعطانا سلفاً كثيرة قبل العمل ومواهب جزيلة لا تحصى

فنون أنواعها من النعم والإحسان والإفضال قبل المعاملة : فتحن ليلنا ونهارنا

نتقلب في أنواع من نعمه ، وفنون من آلائه ، ما بين سالف معتاد ، وآنف

مستفاد ، وخالف منقاد .

— الراهب : كيف خصصتم بهذه المعاملة دون غيركم والربّ واحد ؟

— الصوفي : أما النعمة والإحسان والإفضال فعموم للجميع ، قد

عمت<sup>(١)</sup> كلنا ، ولكن نحن خصصنا بحسن الاعتقاد وصحة الرأي والإقرار

بالحق والإيمان والتسليم ، فوقّقنا لمعرفة الحقائق لما أعطينا بالانقياد والإيمان

---

(١) في الفتوحات السكية « غمرتنا » .

والتسليم وصدق المعاملة من محاسبة النفس وملازمة الطريق ، وتفقد تصاريف الأحوال الطارئة من الغيب ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي والإلهام ساعة بساعة .

— الراهب : زدنى في البيان .

— الصوفى : نعم ، اسمع ما أقوله وافهمه واعقل ما تفهم ، إن الله جل ثناؤه خلق الإنسان خلقاً سوياً ، بنيةً صحيحةً تامةً وقامةً منتصبةً وحواساً سالمة . ثم رباه وأنشأه وأنماه بفنون من لطفه وغرائب من حكمته إلى أن بلغ أشده واستوى ، ثم آتاه حُكماً وعلماً ، وقلباً ذكياً ، وسمماً دقيقاً ، وبصراً حاداً ، ولساناً ناطقاً ، وعقلاً صحيحاً ، وفهماً جيداً ، ومشية واختياراً ، وجوارح طائفة ، ثم علمه الفصاحة والبيان ، والصناعة والزراعة والتجارة ، والتصرف في الماش وطلب العز والسلطان والأمر والرياسة والتدبير والسياسة وسخر له مافي الأرض جميعاً من الحيوان والنبات والمعادن ففدا متحكما عليها تحكم الأرباب ، ثم أراد الله أن يزيد من إحسانه وفضله وجوده وإنعامه شيئاً آخر أجل وأشرف ، وهو ما أكرم به الله ملائكته وخالص عباده وأهل جنته من النعيم الذى لا يشوبه نقص ولا تنقيص ، وهو نعيم الفردوس ، فبعث بلطفه أنبياءه ورسله يرغبونهم فى الجنة ويدلونهم على طريقها كيما يطلبوها ويكونوا لها مستعدين قبل الورود إليها ، ولكي يسهل عليهم مفارقة ما ألفوا فى الدنيا من شهواتها ولذاتها ، وتخف عليهم شدائد الدنيا ومصائبها ، ويحذرونهم أيضاً التواني فى طلب الجنة كيلا يفوتهم ما وعدوا به ، فإنه من فاتته فقد خسر الدنيا والآخرة وضل ضلالاً بعيداً . . . فهذا رأينا واعتقادنا ياراهب فى معاملتنا

مع ربنا ، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في الدنيا ، وسهل علينا كدُ العبادة فلا نحس بها ، بل نرى أن ذلك نعمة وكرامة وعز وشرف ، إذ جعلنا أهلاً أن نذكره ، وإذ هدى قلوبنا ، وشرح صدورنا ونور أبصارنا ، لما عرفنا من كثرة إنعامه ، وفنون ألطافه وإحسانه .

— الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، وطبيب رفيق ما أحذقه ، وأخ ناصح ما أشفقه<sup>(١)</sup> .

ومن الواضح أن هذه محاوره خيالية ، وليس من الضروري أن يرتاب الراهب في مصيره كل هذا الارتياب ، ولكن الشاهد يظهر بهذه المقارنة . فؤلف هذه المحاوره يعتمد أن المسيحية تصوّرُها شخصية الراهب ، وأن الإسلام الحق تصوّره شخصية المتصوف .

١٦ — ولم يكن المسيح بالصورة الوحيدة التي فتفت الصوفية ، فهناك عبّاد بنى إسرائيل وأولئك العبّاد لهم كلمات وأحوال حفظها الصوفية . وكذلك يمكن الحكم بأن المتصوف هو مجموعة من الأفكار الإسلامية والنصرانية واليهودية ، أو هو الخلاصة الروحية من تلك الديانات الثلاث . وأغلب الظن أن الصوفية لم ينطبقوا على تلك الآراء طائمين ، وإنما سرت إليهم فأثّرت فيهم على غير وعى ، فلما استفحل أمرهم أخذوا يجهرون بأنهم ورثة الأنبياء ، وهذا القول فيه رجعة إلى كلمة قديمة عُرِفَت عن بعض فلاسفة اليونان الذين قالوا بأنهم ورثة الآلهة . والأستاذ الدكتور منصور

---

(١) لحصنا هذه المحاوره من رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٦٤ — ٢٦٧ وقد وردت بصورة قريبة من هذه الصورة في الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٦٣

فهو يرجع انسياق ذلك الخيال اليونانى إلى الصوفية ، وهو ترجيح تؤيده  
المشابهة بين القولين واتفاقهما فى الدلول .

والجبلانى يسمى العارفين رجال الغيب ، وهم عنده ستة أقسام :  
« القسم الأول هم الصنف الأفضل ، والقوم الكامل ، هم أفراد الأولياء ،  
المقتفون آثار الأنبياء ، غابوا عن عالم الأكوان ، فى الغيب المسمى بمستوى  
الرحمن ، فلا يُعرَفون ولا يوصَفون ، وهم آدميون . القسم الثانى هم أهل  
المعانى ، وأرواح الأوتان ، يتصور الولي بصورهم ، فيكمل الناس فى الباطن  
والظاهر بخيرهم ، فهم أرواح ، وكأنهم أشباح ، سافروا من عالم الشهود ،  
فوصلوا إلى فضاء غيب الوجود ، فصار غيبهم شهادة ، وأنفاسهم عبادة ،  
وهؤلاء أوتاد الأرض ، القائمون لله بالسنة والقرض . القسم الثالث : ملائكة  
الإلهام والبواعث . يطرقون الأولياء ويكلمون الأصفياء ، لا يبرزون إلى  
عالم الإحساس ، ولا يتعرفون لعوام الناس . القسم الرابع رجال المناجاة . . .  
يتصورون للناس ، فى عالم الإحساس ، وقد يدخل أهل الصفاء ، إلى  
ذلك اللواء ، فيخبرونهم بالنيبات ، وينبئونهم بالمكتمات . القسم الخامس :  
رجال البسابس ، هم أهل الخطوة فى العالم ، وهم من أجناس بنى آدم ، يظهرون  
للناس ثم يغيبون ، ويكلمونهم فيجيبون ، أكثر سكتى هؤلاء فى الجبال  
والقفار ، والأودية وأطراف الأنهار<sup>(١)</sup> . . . القسم السادس : يشبهون الخواطر  
لا الوسوس . هم المولدون من أبى الفكر وأم التصور ، لا يؤبه إلى أقوالهم ،  
ولا يُنشوق إلى أمثالهم ، فهم بين الخطأ والصواب ، وهم أهل الكشف  
والحجاب<sup>(٢)</sup> » .

(١) فى الأصل ( النهار ) وهو تحريف

(٢) الإنسان الكامل ص ٣٧ ج ٢

وهذا الكلام يدل على أن من الصوفية من نسي التعاليم الدينية وتسامى إلى الاتصال بعالم الأرواح ، وهم لا يذكرون الأنبياء إلا انقاء لشر الناس ولو أعطيت لهم الحرية لصرحوا بأن ليس بينهم وبين الله وسيط . والإسلام لا يوجب وساطة بين العبد والرب ، ولكنه يحتم أن نعرف الله ونعبده في حدود ما أوصى به الأنبياء . على أن من الصوفية من فضل الولاية على النبوة وكانت حجته أن الأنبياء يوحى إليهم بواسطة ، وأن الأولياء يتلقون من الله بلا واسطة ، وهو كلام رفضه الأكثرون .

١٧ - وقد توغل الصوفية في الفروض فزعموا أن الرسول قال : لا يزال في هذه الأمة أربعون رجلاً من الصالحين على ملة إبراهيم الخليل<sup>(١)</sup> وزعموا أن من بين هؤلاء الأربعين أربعة هم الأبدال ، وإنما سُموا الأبدال لأنهم بدّلوا خلقاً بعد خلق وصُفوا تصفية بمعد تصفية ، وذلك أن هؤلاء الأربعين منتقون - في زعمهم - من جملة أربعمئة من الزاهدين العارفين المحققين ؛ وهؤلاء الأربعمئة منتقون من أربعة آلاف من المؤمنين التائبين الخالصين ، وكلما مضى شخص من الأربعة قام في رتبته شخص من الأربعين وإذا مضى شخص من الأربعين قام في رتبته شخص من الأربعمئة ، وإذا مضى شخص من الأربعمئة ارتقى إلى منزله شخص من الأربعة آلاف فبلغ مرتبته وقام مقامه ، وكلما مضى شخص من الأربعة آلاف ارتقى مكانه بدلاً منه واحد من المؤمنين التائبين الخالصين فبلغ درجته وقام مقامه<sup>(١)</sup>

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٧ .

ومعنى هذا أن الجمعية الصوفية تؤلف وحدة قومية ، هي الصوفية المختارة من المؤمنين . والتأريُّ يذكر أننا أشرنا في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب إلى طائفة من اصطلاحات الصوفية جاء فيها أن القطب وهو الفوت عبارة عن الواحد الذى هو موضع نظر الله من العالم فى كل زمان ، وأن الأوتاد عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة من أركان العالم ، وأن البدلاء هم سبعة ، ومن سافر من القوم عن موضعه ترك جسداً على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقيد ، وأن النقباء هم الذين استخرجوا خبايا النفوس وهم ثلثائة ، وأن التجباء أربعون ، وهم المشغولون بحمل أفعال الخلق ، وأن الإمامين شيخان أحدهما عن يمين الفوت ونظيره فى الملكوت والآخر عن يساره ونظيره فى الملك ، وهو أعلا من صاحبه وهو الذى يخلف الفوت .

١٨ — فن أين جاء الصوفية بهذا النظام الغريب ؟

يرى ابن خلدون أنهم نقلوه عن الشيعة « حتى أنهم لما أسندوا لباس خرقه التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقتهم ونحلّتهم رفقوه إلى علىّ رضى الله عنه <sup>(١)</sup> » .

والواقع أن الصلة وثيقة بين التشيع والتعوف ، فعلىّ هو معبود الشيعة وهو إمام الصوفية ، أليس هو الذى أشار إلى العارفين حين قال لكُمَيْل بن زياد : أولئك الأقلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح حقيقة اليقين <sup>(٢)</sup> أليس هو الذى أثنى على الحسن البصرى إمام الصوفية <sup>(٣)</sup> .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤١٣ .

(٢) رسائل لإخوان الصفا ج ١ ص ٢٩٨ .

(٣) قوت القلوب ج ٣ ص ٨٨ .

وقد حدثوا أن الجنيد أخذ الطريقة عن خاله سرى السقطي ، وكان أخذها عن معروف الكرخي ، وم معروف الكرخي أخذها عن علي بن موسى الرضا (١) :

ونحن نعرف من علي بن موسى الرضا ، فهو من أقطاب أهل البيت .  
والشيعة أنفسهم يعطفون على الصوفية أبلغ العطف ، وقد أثنى الشريف المرتضى في أماليه على الحسن البصري أطيب الثناء (٢)

والصوفية ينقلون فرحين ما روى عن علي أنه قال : علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين باباً من العلم لم يعلم ذلك أحداً غيري (٣) .

وقد أثنى عليّ على عمر بن الخطاب . ونقل الطوسي ذلك الثناء وقال : ولأهل الحقائق أسوة وتعلق بممرضى الله عنه ، ثم ذكر أنه اختار لبس الرقعة والخشونة وترك الشهوات واجتناب الشبهات وإظهار الكرامات وقلة المبالاة بمن لأمه من الخلق عند اقتصاب الحق (٤) .

الأترون كيف فسر الطوسي ثناء عليّ على عمر فألبس بن الخطاب شمائل صوفية ؟

« وقام رجل إلى عليّ بن أبي طالب فسأله عن الإيمان فقال : الإيمان على أربع دعائم ، على الصبر واليقين والعدل والجهد ، ثم وصف الصبر على عشر مقامات ، وكذلك اليقين والعدل والجهد ، فوصف كل واحد منها على عشر مقامات (٥) » .

(١) النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٦٩

(٢) أمالي المرتضى ج ١ ص ١٠٦ .

(٣) اللع ص ٤٩ .

(٤) اللع ص ١٣٠

(٥) اللع ص ١٢٦ .



قال الطوسي : فإن صح ذلك عنه فهو أول من تكلم في الأحوال والمقامات .

١٨ — وطبيعة الأشياء توجب أن يقترب التشيع والتصوف ، فالشيعة انهزموا في ميدان السياسة ، والصوفية انهزموا في ميدان الحياة ، والاشتراك في المزعمة يقرب بين النفوس ، وقد مضت في هذا الكتاب فقرات كثيرة تبين أن المرء يتصوف حين يهزم ، لأنه حين يفقد سنده في عالم المادة يذهب فيلتمس النور في عالم الروح .

ومما يقرب بين المذهبين أن الشيعة والصوفية يؤمنون بالأسرار ، ويبحثون عن النجاة في العوالم الغيبية ، ولذلك تشابهت أوهامهم وظنونهم وأمانهم ، وتقاربت مذاهبهم المعاشية والاجتماعية ، وصرت ترى لديهم شوائب مشتركة في تناول الأشياء ، وفهم الحياة والناس ، حتى أدبهم يتشابه ، فتقع أمامك القطعة من الشعر فتنسبها إلى مَنْ شئت فتعزى طائفة إلى من تضيفها إليه من الشيعة أو الصوفية . . . وأصدق دليل على اقتراب المذهبين أن أهل فارس هم أكثر الناس تصوفا بين الأمم الإسلامية ، وإنما كانوا كذلك لأن التشيع ألقى روحه هناك .

ولو مضينا ندرس التصوف في مصر لرأينا عند الصوفية من المصريين ألفاظاً كثيرة كانت مما يستعمله الفاطميون . فليس من الغريب أن يحكم ابن خلدون بأن الصوفية نقلوا نظامهم عن التشيع .

١٩ — لم يبق بعد هذه التفاصيل إلا أن نقول إن الصوفية يمتازون من بين رجال الأخلاق بصفة أساسية هي التفلسف ، فأولئك قوم مسلمون يأبون

أن يقفوا عند حرفية النصوص فيمضون في الدرس والتأويل ، ثم يقبلون على النفس فيجملونها محور الأخلاق .

فالمسلم يعمل في حدود الأوامر الشرعية ، وينزجر في حدود الزواجر الشرعية أما الصوفي فيتسامى إلى إدراك المغييات ، ويحرص على فهم الدقائق الخفية في حركات الخواطر والقلوب .

وخلاصة القول أن الصوفي يحترم الشخصية كل الاحترام فيستفتى قلبه وإن أفتاه المفتون : وقد كان لذلك عيوب منها الإسراف في التصورات العقلية التي انتهت إلى القول بوحدة الوجود ، أو بالحلل ، أو بتفضيل الأولياء على الأنبياء ، وتلك عيوب في نظر من يقيسون الأخلاق بالمقاييس الشرعية ، أما الذين يقيسونها بالمقاييس الفلسفية فيرون عند الصوفية أصولاً من إجلال الفكر وإعزاز العقل وليس ذلك بالفضل القليل .

أقول هذا وأنا أعرف أن ليس لي من عمل في هذا الكتاب إلا تاريخ هذا المذهب الفلسفي ، فليس من همي أن أحارب التصوف أو أن أدافع عنه فلا يظنّ قوم أني آتحزب للتصوف ، وإن كان من حق أن أعطف عليه في حدود الاعتدال .

٢٠ - أما خطتنا في هذه الدراسات فهي عرض المسائل الأساسية التي تتكون بها الشخصية الخلقية ، ولن نهتم بالجزئيات ، لأن أمرها يطول ، ويمكن أن يعرف القارئ بهذه الدراسات خطر التصوف في الأخلاق .

ولنقيد هنا أننا وقفنا عند المآل ، فلم نهتم بالأشخاص ولا التاريخ ، وفي هذا التمهيد ما يكفي لبيان الأطوار التي مرت بها فكرة التصوف في المجهود الإسلامية .

ومن الواضح أن لنا الحق في اختيار المنهج الذي نرتضيه لنظام الكتاب ولا يطلب منا إلا مسaire ما ارتضيناه في أسلوب التأليف . وقد لا يكون هذا الأسلوب خير الأساليب ، ولكنه يصل بنا على خير وجه إلى تحقيق ما نريد .

هذا القسم خاص بالأخلاق . ولكن القارئ سيرانا نبتدئه بالكلام عن الأدعية والأوراد ، وفيها ملامح أدبية خليقة بأن تجعلها من القسم الأول ، ولكننا رأينا بعد التأمل أن فصل الأدعية تنلب عليه النزعة الخلقية ، لأن فيه حديثاً عن إعداد النفس للدعاء ، ولأن الأدعية في ذاتها من وسائل الاتصال بالله ، والاتصال بالله هو الغاية الخلقية عند أهل التصوف .

ومن المؤكد أن الأوراد تمثل النظام الخلق في حياة المريد ، فوضعها في قسم الأخلاق ليس من الفضول .

ونعترف ، مخلصين أن هذا البحث يحتاج إلى جهد أكبر مما نملك ، ولكن يميزنا أن القارئ سيدكر أن جهد المقل غير قليل .

---

# الأدعية والأدراك

الدعاء في القرآن - أدعية الأنبياء - طبيعة الإنسان - أدعية  
الرسول - اهتمام المسلمين بترجمة أدعية الأنبياء - أدعية المؤمن في  
مختلف الأحوال - أثر الأدعية في الأدب والأخلاق .

١ - الأدعية جمع دعاء ، وهو النداء ، ويرد أحياناً في القرآن بمعنى العبادة ،  
كقوله عز شأنه في سورة الأعراف « إن الذين تدعون من دون الله عباد  
أمثالكم ، فادعهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » وقوله في سورة الرعد  
« له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط  
كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو بباله ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال »  
وقوله في سورة الكهف « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي  
يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من  
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً » وقوله في سورة الحج  
« ويمبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين  
من نصير » وقوله في سورة فاطر « ذلکم الله ربکم له الملك ، والذين تدعون  
من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا  
ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير »  
وفي سورة الفرقان « والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس  
التي حرم الله إلا بالحق » .

وعند تأمل هذه الشواهد نجد الدعاء حين يرد بمعنى العبادة يتضمن أيضاً

معنى النداء .

٢ — والدعاء مما يوصى به الأدب في الشريعة الإسلامية ، وفي القرآن الكريم « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » وفي سورة البقرة : « وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان » .

٣ — والدعاء قديم جداً في التقاليد الدينية ، وقد قص علينا القرآن نماذج من أدعية الأنبياء ، منها ما ورد في سورة البقرة على لسان إبراهيم « رب اجعل هذا البلد آمناً وارزق أهله من الثمرات ... ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، ربنا وابث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وروى القرآن دعوات إبراهيم بصورة أخرى في سورة إبراهيم فقال : وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ، رب إنهم أضلن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ، ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربي لسميع الدعاء ، رب اجعلني مقيم الصلاة ومن

ذريتي ربنا وتقبل دعاء ، ربنا اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

ومن دعاء موسى ماورد فى سورة طه « رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى هرون أخى ، اشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى كى نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك كنت بنا بصيراً » وفى سورة القصص « رب إني ظلمت نفسى فاغفر لى » .

ومن دعاء أيوب ماورد فى سورة الأنبياء « إني مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين » .

ومن دعاء نوح ما ورد فى سورة القمر « إني مغلوب فانتصر » وما ورد فى سورة نوح « رب لا تنذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ إنك إن تدرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ، رب اغفر لى ولوالدى ولن دخل بيتى مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا ترد الظالمين إلا تباراً » .

ومن دعاء زكريا ما ورد فى سورة آل عمران « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » .

وفى سورة آل عمران جعل الله قول الصديقين هذا الدعاء : « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » .

٤ — والله يوصى أنبياءه بالدعاء ، من ذلك ما جاء فى سورة الإسراء وصية لنبىه محمد « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق

واجمل لى من لدنك سلطانا نصبراً» وما جاء فى سورة ( المؤمنون ) وصية  
لنبيه نوح « وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين » وفى سورة  
الكهف يوصى رسوله بتعليم أمتة أسلوب الدعاء « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن  
أيّاً ما تدعوه الأسماء الحسنى ، ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين  
ذلك سبيلاً »

وفى هذه الشواهد دلائل على أن الدعاء قديم جداً فى التقاليد الدينية . وأدعية  
الأنبياء ذكرت فى القرآن تذكيراً للمؤمنين بما فيها من معنى العبودية والإيمان  
بأن الأمر كله بيد الله ، وأن من التقى أن يدعو الإنسان ربه ، وأن يسأله  
النصر والغفران .

٥ - والقرآن يحدثنا بأن الإنسان قد لا يعرف ربه إلا عند البأساء ،  
ففى سورة الزمر « وإذا مس الإنسان ضر دعا ربه منياً إليه ، ثم إذا خوله  
نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أنداداً ليضل عن سبيله »  
وفى سورة السجدة « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه ، وإذا مسه  
الشر فذو دعاء عريض » .

٦ - وقد عنى الرسول عليه السلام بترغيب أمتة فى الدعاء . فقال :  
« ليس شيء أكرم على الله من الدعاء » وقال : « إن الدعاء ينفع مما نزل ومما  
لم ينزل ، فعليكم - عباد الله - بالدعاء » وقال : « إن الله عز وجل حي كريم  
يستحيى إذا بسط الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً ليس فيهما شيء » وقال :  
« دعوة فى السر تعدل سبعين دعوة فى العلانية » وقال : « إن لله عز وجل  
فى الليل والنهار عتقاء من النار ، ولكل مسلم ومسلمة فى كل يوم وليلة دعوة

مستجابة » وقال : إن الله تعالى يقول : من ذا الذي دعاني فلم أجبه ، وسألني فلم أعطه ، واستغفرني فلم أغفر له ، وأنا أرحم الراحمين » وقال : « إذا فتح الله على عبد باب الدعاء فليكثر فإن الله يستجيب له » وقال : « من لم يسأل الله يغضب عليه <sup>(١)</sup> » .

٧ - وقد رويت عن رسول الله أدعية كثيرة ، منها ما كان يقوله بعد ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح :

« اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي ، وتجمع بها شملی ، وتلم بها شمعی ، وتردّ بها ألفتی ، وتصلح بها دينی ، وتحفظ بها غائبی ، وترفع بها شاهدي ، وتركي بها عملي ، وتبيض بها وجهي ، وتلهمني بها رشدي ، وتمصني بها من كل سوء . اللهم أعطني إيماناً صادقاً ، و يقيناً ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة ، اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ، ومنازل الشهداء ، وعيش السعداء ، والنصر على الأعداء ، ومرافقة الأنبياء . اللهم إني أزل بك حاجتي ، وإن ضعف رأيي ، وقلت حيلتي ، وقصر عملي ، وافتقرت إلى رحمتك ، فأسألك يا قاضي الأمور ، يا شافي الصدور ، كما تجيرني بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير ، ومن دعوة الثبور ، ومن فتنة القبور . . . الخ <sup>(٢)</sup> » .

وفي بعض عبارات هذا الدعاء ضعف ، ولا سيما هذه العبارة « أسألك كما تجيرني بين البحور ، أن تجيرني من عذاب السعير » وقد يكون هذا الدعاء مما أضيف إلى كلام الرسول .

(١) راجع أسانيد هذه الأحاديث في الجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٨١ و ٢٨٢

(٢) الإحياء ج ١ ص ٣٢٢



وحدثنا الغزالي<sup>(١)</sup> عن دعاء قال إنه مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن السلف في يوم عرفة ، وهو دعاء قصير هذا نصه :  
« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ، اللهم اجعل في قلبي نوراً ، وفي بصري نوراً ، وفي سمعي نوراً ، وفي لساني نوراً . اللهم اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري » .

وروى أنه كان يقول في سجوده : « أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك<sup>(٢)</sup> » .

وفي البخاري أنه كان يدعو في الصلاة « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال ، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة المي<sup>(٣)</sup>ات »

وفي كتاب الدعوات من صحيح البخاري أن النبي قال : سيد الاستغفار أن تقول :

« اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت<sup>(٤)</sup> » .

ومن الاستعاذات المأثورة عن النبي عليه السلام :

(٢) الإحياء ج ١ ص ٣٠٥

(٤) البخاري ج ٤ ص ٦٧

(١) في الإحياء ج ١ ص ٢١٥

(٣) البخاري ج ١ ص ١٠٥

« اللهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أردّ إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، اللهم إني أعوذ بك من طمع يهدي إلى طبع ، ومن طمع في غير مطعم ، ومن طمع حيث لا مطعم . اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع ودعاء لا يُسمع ، ونفس لا تشبع ، وأعوذ بك من الجوع ، فإنه بئس الضجيع ، ومن الخيانة ، فإنها بئست البطانة ، ومن الكسل والبخل والجبن ومن الهرم ومن أن أردّ إلى أرذل العمر ، ومن فتنة الدجال وعذاب القبر وفتنة المحيا والمات<sup>(١)</sup> » .

والأدعية المأثورة عن رسول الله كثيرة جداً ، وهي تمثل رجاءه في الله واعتماده عليه ، وفناءه فيه .

٨ — ومن مظاهر اهتمام المسلمين بالدعاء أنهم نقلوا ما وصل إليهم من أدعية الأنبياء ، ومن غريب ذلك ما قالت عائشة<sup>(٢)</sup> « لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم — صلى الله عليه وسلم — طاف بالبيت سبعاً ، وهو يومئذ ليس بمبني فجلس على ربوة حمراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال :

« اللهم إنك تعلم سرى وعلايتي ، فأقبل معذرتي ؛ وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي ، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنوبي . اللهم إني أسألك إيماناً يابسر قلبي ، ويقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت عليّ والرضا بما قسمته لي يا ذا الجلال والإكرام » .

ومن الواضح أنه من المسير نقل مادعا به آدم ، ولكن المسلمين بفطرتهم

(٢) راجع الإحياء ج ١ ص ٣٢٥

(١) الإحياء ج ١ ص ٣٢٩

الصوفية اطمأنوا إلى أنه لا بد لآدم من دعاء ، وكذلك اطمأنوا إلى أن الله أوحى إليه « إني قد غفرت لك ، ولم يأتني أحد من ذريتك فيدعوني بمثل الذي دعوتني به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهمومه ونزعت الفقر من بين عينيه ، واتجرت له من وراء كل تاجر وجاءته الدنيا وهي راغمة وإن كان لا يريدتها » .

وإن صحت رواية هذا الكلام عن عائشة فهو دليل على أن العرب قبل الإسلام كانوا يحبون أن يكون ( البيت ) من مواضع الدعاء المقبول ، وأنه كان كذلك منذ آدم وقبل أن يبنى .

وحدثوا أيضاً أن إبراهيم كان يقول إذا أصبح :

« اللهم هذا خلقٌ جديدٌ فافتحه عليّ بطاعتك ، واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنةً تقبلها مني ، وزكها وضعفها لي ، وما عملت من سيئة فاغفرها لي ، إنك غفور رحيم ، ودود كريم » .

وناقل هذا الكلام وهو الغزالي<sup>(١)</sup> يذكر أن إبراهيم قال : « ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه » ومعنى ذلك أن « الأوراد » قديمة جداً في التقاليد الدينية .

وحدثوا أن داود كان إذا دعا في جوف الليل قال :

« اللهم ثامت الميون ، وغارت النجوم ، وأنت حيٌّ قيوم ، اغفر لي ذنبي العظيم ، إنك عظيم ، وإنما يفقر العظيم العظيم ، إليك رفعت رأسي ، عامر السماء ، نظر العبيد إلى أربابها ، اللهم تساقطت القرى ، وأنت دائب الدهر

---

(١) في الإحياء ج ١ ص ٣٢٤ .

معدّة كرسى القضاء» (١) .

وأن يوسف كان يدعو فيقول :

« يا عدّتى عند كربتى ، يا صاحبى فى وحدتى ، يا غيائى عند شدتى ،  
ومفرغى عند فاقتى ، ورجائى إذا انقطعت حيلتى ، يا إلهى وإله آبائى إبراهيم  
واسحق ويعقوب اجعل لى فرجاً ومخرجاً واقض حاجتى » (٢) .

وأن « بگاء بنى إسرائيل » كان يقول :

« اللهم لا تؤدبنى بمقوبتك ، ولا تمكر بى فى حيلتك ، ولا تؤاخذنى  
بتقصيرى عن رضاك ، عظيم خطيئتى فاغفر ويسر عملى فتقبل ، كما شئت  
تكون مشيئتك ، وإذا عزمت بعمى عزمك ، فلا الذى أحسن استغنى عنك  
وعن عونك ، ولا الذى أساء استبد بشىء يخرج به من قدرتك ، فكيف لى  
بالنجاة ولا توجد إلا من قبلك » .

وفى هذا الدعاء محاولة عقلية سنجد أمثالها فى « أحزاب » الصوفية .

ونقلوا أدعية كثيرة منسوبة إلى المسيح ، منها دعاؤه الذى كان يدعو  
به للمرضى والزمنى والمميان والمجانين (٣) ودعاؤه حين أخذه اليهود ليصلبوه (٤)  
وهذان الدعاءان يجريان مجرى التحميد .

ونقل الغزالي أنه كان يقول :

« اللهم إنى أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو  
وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتبها بعمل ، فلا فقير أقدم منى . اللهم

(١) عبون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٣ .

(٢) عبون الأخبار ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٣) تجده فى عبون الأخبار ج ٣ ص ٢٨١ .

لا تشمت بى عدوى ، ولا تسوء بى صديق ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ،  
ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط علىّ من لا يرحنى ، يا حىّ يا قيوم .

وأدعية عيسى وتحميداته كثيرة تزخر بها مؤلفات الصوفية .

وفى نقله المتقدمون من أدعية الأنبياء ما يؤيد ما يزيد إثباته ، وهو  
شفغ المسلمين بمأثور الدعوات ، ولا تنسى أن أدعية الأنبياء نقلت عن  
لغات غير عربية ، فوضعها ناقلوها فى أسلوب غنائى يتراوح بين السجع  
والازدواج .

٩ - وفى كتب الفقه والآداب الإسلامية أدعية مختلفة باختلاف  
ما يباشر المؤمن من الأعمال ، وللمسلم الصالح فرص لا تنقطع للدعاء ، فيقول  
حين يجلس الوضوء « أعوذ بك من همزات الشياطين ، وأعوذ بك رب أن  
يحضرون » .

ويقول عند غسل يديه « اللهم إنى أسألك اليمين والبركة ، وأعوذ بك من  
الشؤم والهلكة » .

ويقول فى الاستنشاق « اللهم أوجد فىّ رائحة الجنة ، وأنت راض عني » .

وعند الاستنثار « اللهم إنى أعوذ بك من روائح النار ، ومن سوء الدار » .

ويقول عند غسل كل عضو : « اللهم بيض وجهى بتورك يوم تبيض  
وجوه أوليائك ، ولا تسود وجهى بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك » .

ويقول عند غسل اليمين « اللهم أعطنى كتابى بيمينى ، وحاسبنى حساباً  
يسيراً » وعند غسل الشمال « اللهم إنى أعوذ بك أن تعطينى كتابى بشمالى أو من  
وراء ظهرى » .

وعند مسح الرأس « اللهم غشني برحمتك ، وأزل عليّ من بركاتك ، وأظلي تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » وعند مسح الأذنين « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم أسمعني منادى الجنة مع الأبرار » وعند مسح الرقبة « اللهم فك رقبتى من النار ، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » وعند غسل الرجل اليمنى « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار » وعند غسل الرجل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمي على الصراط يوم تزل أقدام المنافقين في النار » .

ويقول عند ختام الوضوء :

« أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، سبحانك اللهم وبحمدك ، لا إله إلا أنت ، علمت سوءاً وظلمت نفسي ، أستغفرك اللهم وأتوب إليك ، فاغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين ، واجعلني من عبادك الصالحين ، واجعلني عبداً سبوراً شكوراً ، واجعلني أذكرك ذكراً كثيراً ، وأسبحك بكرة وأصيلاً » .

وهناك أدعية تسبق الوضوء ، وأدعية تقال عند الأذان وفي أثناء الصلاة وبعد الصلاة ، وأدعية تقال قبل النوم وعند اليقظة وأدعية تقال في الصوم والقطر وعند مناسك الحج . وفي ذلك كله ما يفهم المسلم بنفحة روحانية هي من أهم آثار التصوف في الأخلاق .

وقد اهتم الغزالي بعرض طائفة من « الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث » فيقول المؤمن حين يخرج إلى السجدة « اللهم إني أسألك بحق

السائلين عليك ، وبحق ممشاي هذا إليك ، فإنى لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سمعة ، خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تقذفنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » .

ويقول حين يخرج من المنزل لحاجة « باسم الله . رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يجهل على » .

ويقول إذا دخل السوق « اللهم إنى أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك من شرها وشر ما فيها ، اللهم إنى أعوذ بك أن أصيب فيها عيماً فاجرة ، أو صدفقة خاسرة » .

ويقول إن كان عليه دين « اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك ، وأغننى بفضلك عن سواك » .

ويقول عند لبس الثوب الجديد « اللهم كسوثنى هذا الثوب فلك الحمد ، أسألك من خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » .  
ويقول عند التطير « اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ، ولا يذهب بالسيئات إلا أنت ، لا حول وقوة إلا بالله » .

وعند رؤية الهلال « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان ، والبر والسلامة والإسلام ، والتوفيق لما تحب وترضى ، والحفظ عما تسخط » .

وعند هبوب الريح « اللهم إنى أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » .

ويقول حين تبلغه وفاة أحد الناس « اللهم اكتهب فى الحسين ، واجمل كتابه فى عليين ، واخلفه على عقبه فى الغابرين ، اللهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتننا بعده ، واغفر لنا وله » .

- ويقول عند التصديق « ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم » .
- وعند الخسارة « عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » .
- وعند ابتداء الأمور « ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً .
- رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري » .
- وعند النظر إلى السماء « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا عذاب النار ،
- تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقراً منيراً » .
- وعند رؤية الصواعق « اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ،
- وعافنا قبل ذلك » .
- وعند الطر « اللهم سقنا هتياً ، وصيياً نافعاً ، اللهم اجعله صيب رحمة ولا
- تجعله صيب عذاب » .
- وعند الغضب « اللهم اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من
- الشیطان الرجيم » .
- وعند النزو « اللهم أنت عضدي ونصيري وبك أقاتل » .
- وعند الهم « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك . ناصيتي بيدك ،
- ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به
- نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به
- في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور صدري ، وجلاء
- غمي ، وذهاب حزني وهي » .
- وعند النظر في المرأة « الحمد لله الذي سوى خلقي فمدله ، وكرم سورة وجهي
- وحسنها وجعلني من المسلمين » .



وعند اشتراء خادم أو غلام أو دابة « اللهم إني أسألك خيره وخير ما جُبل عليه ، وأعوذ بك من شره وشر ما جُبل عليه » .

وعند الهنئة بالزواج : « بارك الله فيك وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير » .

وعند قضاء الدين يقول للمقضى له « بارك الله لك في أهلك وفي مالك<sup>(١)</sup> » .

وقد عرض النويرى في نهاية الأرب لأمثال هذه الأدعية فأفاض فيها القول ، وردَّ أكثرها إلى رسول الله<sup>(٢)</sup> والهمم هو تذكري القارىء بأثرها في الأدب والأخلاق ، أما من جهة الأدب فحسبه أن يتذكر أن المؤمن الذى يحفظ ما أثر من الأدعية في مختلف الأحوال يظفر بثروة نفيسة من الألفاظ والتماير ، لها سلطان خفى أو ملحوظ على كلامه وتفكيره ، وذلك منم ليس بالقليل . وأما من جهة الأخلاق فهي رياضة على حسن الأدب مع الله وتمثل قدرته ورحمته في كل لحظة يهيم فيها المرء بمعمل حقير أو جليل . وشعور المؤمن بعمظمة ربه هو أساس الخوف من الصفات والكبائر ، والرغبة في التقرب إليه بصالح الأعمال . يضاف إلى ذلك أن هذه الأدعية تكرر وتعاد لأن أكثرها موصول بظروف تقع كل يوم ، وفي تكرارها ما يوجب طبعها في النفس ، وذلك ضمان لتأثيرها البالغ في الأدب والأخلاق .

(١) انظر الإحياء ج ١ ص ٣٣٠ - ٣٣٣

(٢) انظر الجزء الخامس ص ٣٠٢ - ٣٢٥

# أَبْجَدُ الدُّعَاءِ

فهم الصوفية لأحوال النفس - السجع في الدعاء - إعداد النفس الخلق  
الذفحات الإلهية

وقد اهتم الصوفية بشرح ما تجب ملاحظته عند الدعاء ، فوضعوا لذلك عشرة آداب ، وتلك الآداب العشرة تدل على فهمهم للأحوال النفسية ، وبصرهم بتهيئة القلوب للدعاء .

الأدب الأول - أن يترصد المؤمن لدعائه الأوقات الشريفة ، كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ، ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل .

ونحن لا نفهم قيمة هذا التخصيص ، ولا بد من الاعتراف بأنه من التقاليد الموسمية ، ولكن هذا لا يمنع من الموافقة على ما فيه من الفائدة من حيث توجيه النفس والقلب إلى أوقات يحترمها المسلمون لاتصالها بأكبر مواسم العبادات .

الثاني - أن يفتنم الأحوال الشريفة ، فيدعوا عند زحف الصفوف في سبيل الله ، وعند زول النيث ، وعند إقامة الصلوات المكتوبة ، وعند الصوم ، وعند السجود .

وفي هذا رياضة على تمجيد بعض الأحوال ، وخاصة زحف الصفوف في القتال المشروع .

الثالث — أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بمحيشورى يياض إبطيه .  
وقيمة هذا من الوجهة النفسية ترجع إلى الاهتمام بالدعاء ، وقد تحدث عن هذا  
الأدب كثير من المؤلفين .

الرابع — خفض الصوت بين المخافة والجهل .  
وذلك ليطمئن الداعى إلى أن الله ليس بأصم ولا غائب ، كما قال الرسول  
حين رأى ناساً يرفعون أصواتهم بالدعاء .

الخامس — أن لا يتكلف السجع فى الدعاء .  
وهذا أدب جميل يراد به تربية النفس على إيثار الطبع وترك التكلف ،  
وقد روى أن النبي أنكر السجع فى الدعاء وقال : « إياكم والسجع فى الدعاء ،  
حسب أحدكم أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل  
وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » وصراً بمضى السلف بقاص  
يدعو بسجع فقال له « أعلى الله تبالغ » .

والمكروه هو تكلف السجع ، أما السجع المقبول فلا كراهة فيه ، فقد  
أثرت عن رسول الله أدعية مسجوعة ، كقوله : « أسألك الأمن يوم الوعيد ،  
والجنة يوم الخلود ، مع المقربين الشهود ، والركم السجود ، الموفين بالمهود ،  
إنك رحيم ودود ، وإنك تفعل ما تريد » .

وأثر عن الرسول أنه قال : « سيكون قوم من هذه الأمة يمتدون فى الدعاء  
والطهور » وفسر ابن الأثير الاعتداء فى الدعاء بالخروج عن الوضع الشرعى  
والسنة المأثورة ، وعرض له الفزالى فى موطنين باب الوضوء<sup>(١)</sup> وباب

الدعاء عند الكلام عن السجع ، فكأنه فسر الاعتداء بالسجع ، وكذلك فسر الآية « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » ولكن سياق الآية يبين أن المراد هو النهي عن رفع الصوت .

ونقل النويري أن ابن عباس قال : « إياك والسجع في الدعاء ، فإنني شهدت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يخلطون ذلك » (١) .

وفي منظومة الاستغفار للسيد البكري :

أستغفر الله من نظم القوافي ومن ثر وما قد جرى سجعاً على نسق (٢)  
وهو متأثر بما ورد من كراهة الشر والسجع .

ولكن ذلك كله لا ينقض ما ورد من السجع في القرآن والحديث ، فالكروه هو السجع المتكلف ، لا مطلق السجع . وقد فصلنا هذه القضية في الجزء الأول من كتاب ( النثر الفني ) .

السادس — التضرع والخشوع والرغبة والرهبة .

السابع — أن يوقن بالإجابة .

وهذا أدب يراد به صدق اليقين بفضل الله عز وجل .

الثامن — أن يلج في الدعاء ويكرره ولا يستبطنه . الإجابة .

التاسع — أن يفتتح الدعاء بذكر الله والصلاة على نبيه .

العاشر — التوبة ورد المظالم ، وهو خير آداب الدعاء .

ولمذه الآداب تفاصيل يجدها القارئ في الجزء الأول من الإحياء والجزء الخامس من نهاية الأرب ، وقد اهتم النزالي بالأدب الباطن وقال

---

(١) نهاية الأرب ج ٥ س ٢٨٥

(٢) س ٩١ من مجموع أوراد البكري .

« هو الأصل في الإجابة » ، وذكر أخباراً عن بني إسرائيل ، وكيف استسقى موسى عليه السلام فلم يسق الله قومه ، وأوحى إليه « إني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام » .

وجملة هذه الآداب تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس وكيف يمدونها لتلقى النفحات الإلهية ، وللقارئ أن يتصور حال النفس حين تُراض على هذه الآداب ، فوصل النفس بالله ، واستحضار فقرها إليه ، ورهبته منه ورغبتها فيه ، وانتظارها لفضله في ثقة ويقين ، كل أولئك من الموامل في صقل النفس ، وتطهير القلب ، وتربية الوجدان .

وانتظار الخير كله من الله وشهية النفس لذلك باب أصيل في بناء الملكات الأخلاقية ، ولا سيما إذا لاحظنا مخلصين أن الأمر كله بيد الله ، وأن البعد لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً .

فمن كان في ريب فليجرب الثقة بالله مرة واحدة ، وليدعه فإنه عز شأنه لا يردُّ الدعاء .

# دُعَاءُ الْإِسْتِسْقَاءِ

الاستسقاء عند بني إسرائيل — الاهتمام به في كتب الفقه الإسلامي —  
نماذج من أدعية الاستسقاء — فكاكة شعرية .

١ — دعاء الاستسقاء من التقاليد القديمة في الديانات السامية ، وكان معروفاً عند بني إسرائيل ، قال سميد بن جبير : قحط الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا ، فقال الملك لبني إسرائيل : يرسلن الله تعالى علينا السماء أو لنؤذيتة ، قيل له : وكيف تقدر أن تؤذيه ، وهو في السماء فقال : أقتل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له <sup>(١)</sup> .

وقال سفيان الثوري : بلغني أن بني إسرائيل قحطوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل ، وأكلوا الأطفال ، وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ليكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تمحن ركبكم ، وتبلغ أيديكم عنان السماء ، وتكمل السننكم عن الدعاء ، فإنني لا أجيب لكم داعياً ، ولا أرحم لكم باكياً ، حتى تردوا المظالم إلى أهلها . ففعلوا فطروا من يومهم <sup>(١)</sup> .

وقال مالك بن دينار : أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة

وترفعون إلى أكتفاً قد سفكتكم بها الدماء ، وملأتم بطونكم من الحرام ، الآن قد اشتد غضبي عليكم ولن تزدادوا مني إلا بُعْداً<sup>(١)</sup> .

وهذه الشواهد تدل على أنه كان مفهوماً عند بنى إسرائيل أن الدعاء إنما يقبل من التائبين .

٢ --- وقد اهتمت كتب الفقه الإسلامى بصلاة الاستسقاء ، وبينت أنها تكون « إذا غارت الأنهار . وانقطعت الأمطار ، أو انهارت قناة » وأنه يستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام ، وما أطاقوا من الصدقة ، والخروج من المظالم ، والتوبة من الماصى ، وفى اليوم الرابع يخرج بهم وبالعجائز والصبيان متنظفين فى ثياب بذلة واستكانة متواضعين . وقيل يستحب إخراج الدواب لمشاركتهم فى الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم «لولا صبيان رضع ، ومشايخ رُكع ، وبهائم رُتّع ، لصُبَّ عليكم العذاب صبّاً» فإذا اجتمعوا فى المصلّى الواسع من الصحراء نودى : الصلاة جامعة فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد بغير تكبير ، ثم يخطب خطبتين ، وبينهما جلسة خفيفة ، ويكون الاستغفار معظم الخطبتين . ويقول فى الدعاء :

« اللهم إنك أمرتنا بدعائك ، ووعدتنا بإجابتك ، فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا ، اللهم قامن علينا بمغفرة ما قارفنا ، وإجابتك فى سقيانا وسعة أرزاقنا<sup>(٢)</sup> » .

٣ --- وصلاة الاستسقاء من أهم مظاهر التصوف ، فإن المرء لا يقوم بها إلا وقد آمن إيماناً صادقاً برحمة الله وفضله ، وكيف يطمع المرء فى أن تتغير

(١) الإحياء ج ١ ص ٣١٧ . (٢) الإحياء ج ١ ص ٣١٢ .

القوانين الطبيعية فتطر السماء لدعائه إلا إن وثق بأن الأمر كله لله ، وأنه يحجب

السماء حين يشاء ، ويرسلها حين يشاء ؟

وانظر هذا الخبر وتأمل ما فيه من صدق اليقين :

قال عطاء السلى : مُنِعْنَا النِّيثَ نَخْرَجْنَا نَسْتَسْقِي فَإِذَا نَحْنُ بِسَمْعِدُونَ  
الْمَجْنُونِ فِي الْقَابِرِ ، فنظر إلَيَّ فقال ، يا عطاء ! أهذا يوم النشور ، أو بمث  
ما في القبور ؟ فقلت : لا ، ولكننا مُنِعْنَا النِّيثَ ، نَخْرَجْنَا نَسْتَسْقِي . فقال :  
يا عطاء ! بقلوب أرضية ؟ أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية .  
فقال : هيهات ! يا عطاء ، قل للمتبرجين لا تتبرجوا ، فإن الناقد بصير ثم رمق  
السماء بطرفه وقال : إلهي وسيدى ومولاي ! لا تهلك بلادك ، بذنوب عبادك .  
ولكن بالكون من أسمائك ، وما وارت الحجب من آلائك ، إلا ما سقيتنا  
ماء غَدَقًا فُرَاتًا تحيي به العباد ، وتروى به البلاد ، يا من هو على كل شيء قدير !  
قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بمطر كأفواء  
القرب ، فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والمابدون إذ لمولاهم أجاجوا البطونا

أسهروا الأعين المليحة حباً فانقضى ليلهم وهم ساهرونا

شغلتهم عبادة الله حتى قيل في الناس إن فيهم جنونا<sup>(١)</sup>

وفي عبارة « بقلوب أرضية ، أم بقلوب سماوية » ما يشعر بأدق المعاني

الروحية ، ولهذا أثر بالغ في تربية الأخلاق ، إذ يروض المرء على الإيمان بأن الخير

لا يصيب إلا المخلصين من الأتقياء .



٤ - لم يقتصر المسلمون على دعاء واحد في الاستسقاء ، كما اقتصروا على دعاء واحد في التشهد مثلاً ، وإنما انطلقت قرايمهم فافتتروا فيه افتتاراً عظيماً . فكان الاستسقاء من أسباب الثروة الأدبية في الدعاء ، وكان يتفق أن تختلف الأدعية على لسان الرجل الواحد حين يتكرر الاستسقاء . كما وقع لعلی بن أبی طالب ، فقد خطب مرة فقال :

« اللهم قد انصاحت جبالنا<sup>(١)</sup> ، واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتحيرت في مرابضها ، وعجت عجيج الثكالى على أولادها ، وملت التردد في مراتعها ، والحنين إلى مواردها ، اللهم فارحم أنين الآنة ، وحنين الحانة ، اللهم فارحم حيرتها في مذاهبها ، وأنينها في موالجهما . اللهم خرجنا إليك حين اعتسكرت علينا حدابير<sup>(٢)</sup> السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكنت الرجاء للبتئس والبلاغ للمتمس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع النعام ، وهلك السوام ، أن لا تؤاخذنا بأعمالنا ، ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب التبعي<sup>(٣)</sup> ، والربيع المغدق ، والنبات الموق ، سحاً وإبلاً نحني به ما قدمات ، وترد به ما قد فات . اللهم سقيا منك محمية مروية ، تامة عامة طيبة مباركة ، زاكياً نبتها ، ثامراً فرعها ، ناضراً ورقها ، تنمش بها الضعيف من عبادك ، وتحني بها الميت من بلادك . اللهم منك تعشب بها نجادنا وتجري بها وهادنا ، وتخصب بها جنابنا ، وتبقل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشيننا ، وتندى بها أقاصينا ، وتستعين بها ضواحيننا ، من بركاتك الواسعة

(١) انصاحت : جفت ويشت من الجذب .

(٢) الحدابير جم حدابر وحدير وهي السنة المجدبة .

(٣) التبعي : الذي انشق من ثقل الماء .

وعطايك الجزيلة ، على برئتكم الرملة ، ووحشك العملة ، وأنزل علينا سماء مخضلة<sup>(١)</sup> مدراراً هائلة يدافع الودق منها الودق ،<sup>(٢)</sup> ويحفر القطر منها القطر غير خلب يرقها<sup>(٣)</sup> ، ولا جهام عارضها<sup>(٤)</sup> ، ولا قزع ربابها<sup>(٥)</sup> ، ولا شقان ذهابها<sup>(٦)</sup> ، حتى ينصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المستنون<sup>(٧)</sup> ، فإنك تنزل النيث بمد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولي الحميد .

وخطب مرة أخرى فقال بعد التحميد :

« ألا وإن الأرض التي تحملكم ، والسماء التي تظلكم ، مطيبتان لربكم ، وما أصبحنا نجودان لكم ببركتها توجما لكم ، ولا زلفة إليكم ، ولا لغير رجوانه منكم ، ولكن أمرنا بمنافكم فأطاعتنا ، وأقيمتا على حدود مصالحكم فأقامتا . »

« إن الله يتلى عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات ، وحبس البركات وإغلاق خزائن الخيرات ، ليتوب تائب . ويقطع مقلع ، ويتذكر متذكر ، ويزدجر مزدجر ، وقد جعل الله الاستغفار سبيلاً للدور الرزق ، ورحمة الخلق ، فقال ( استغفروا ربكم إنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً ، ويمددكم بأموال وبنين ) فرحم الله امرأاً استقبل توبته ، واستقال خطيئته ، وبادر منيته . اللهم إنا خرجنا إليك من تحت الأستار والأكنان ، وبمد مجيب البهائم والولدان ، راغبين في رحمتك ، وراغبين فضل نعمتك ، وخائفين من

(١) مخضلة : مبللة .

(٢) الودق : المطر .

(٣) البرق الخلب : ما يطلع في المطر ولا مطر معه .

(٤) الجاهم : السحاب لا مطر فيه .

(٥) الرباب السحاب الأبيض ، والزعج الخفيف المخفوق .

(٦) الشقان الریح الباردة . والذهاب جمع فحبة وهي الأمطار اللينة .

(٧) المستنون الذين أصابهم القحط .

عذابك ونعمتك ، اللهم فاسقنا غيثك ولا تجعلنا من القانطين ، ولا تهلكنا بالسنين ، ولا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا ، يا أرحم الراحمين ، اللهم إنا خرجنا إليك ، نشكو إليك ، بما لا يخفى عليك ، حين أَلْجَأَتْنَا المضايق الوعرة ، وأَجَاءَتْنَا القاحط المجدبة ، وأَعْيَتْنَا المطالب المتعسرة ، وتلاصحت علينا الفتن المستعصبة ، اللهم إنا نسألك أن لا تردنا خائبين ، ولا تقلبنا واهجين ، ولا تخاطبنا بذنوبنا ، ولا تقابسنا بأعمالنا ، اللهم انشر علينا بركتك ، ورزقك ، ورحمتك ، واسقنا سقيا نافعة مبروية معشبة تنبت بها ما قد فات ، ونحیی بها ما قد مات ، نافعة الحیا ، كثيرة المحتنى ، تروى بها القيما ، وتسيل البطنان ، وتستورق الأشجار ، وترخص الأسعار ، إنك على ما نشاء قدير<sup>(١)</sup> .

وعند درس الخطبة الأولى نجد الخطيب ترفق في الدعاء حين اهتم بوصف حيرة الدواب في الرابض ، وملاها من التردد في المراتع ، والحنين إلى الموارد ، وعجيجها على أولادها التي أودى بها الظم القتال ، ونجده تلتف حين دعا الله أن لا يؤاخذهم بأعمالهم ، ولا يأخذهم بذنوبهم ، ثم نجده أغرق في وصف النيث الرجو ، والخصب المأمول ، وكذلك كان صدر الخطبة نفحة وجدانية يتمثل فيها الجزع والإنابة ، وكان شطرها الثانى باباً من الصنعة والافتنان في التخيل والتمثيل .

وصدر الخطبة الثانية توحيد صرف ، فالأرض والسماء من جنود الله ، تجودان حين يشاء ، وتمسكان حين يشاء . ثم يمضى الخطيب فيذكر أن نقص الثمرات ابتلاء من الله يصيب الناس حين تسوء أعمالهم ليتذكروا وينبؤوا ،

وأن كشف الشر موقوف على الاستغفار . وهو بذلك يوجه قلوب المستيقنين إلى التائب . ويختم خطبته بدعاء طويل ، وهو نموذج لرقعة التوسل والابتهاال .

والمائق تختلف في هاتين الخطبتين بعض الاختلاف ، وذلك يدل على أن الخطيب كان له في كل موقف شعور خاص ، وأساس البلاغة أن يعبر المرء عما يساور نفسه عند الخطاب . ولا يعتمد على ممانيه القديمة إلا المجدبون في عالم البيان .

• — وعند النظر فيما أنشأ أئمة المسلمين من أدعية الاستسقاء نجد الفن ظاهراً ظهوراً قوياً ، ولا كذلك المحفوظ من أدعية الرسول . فهي أدعية بسيطة قوامها الصدق ، والفن فيها قليل ، حدث الخطيب البغدادي بسنده قال : أنت النبي صلى الله عليه وسلم بواك فقال :

« اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً مرياً مريعاً ، عاجلاً غير آجل ، نافماً غير ضار<sup>(١)</sup> » .  
ومن الملح المتصلة بدعاء الاستسقاء قول أبي علي بن الحسن بن علي .

خرجنا لنستسقى يمين دعائه وقد كاد هذب الغيم أن يبلغ الأرض  
فلما ابتدا يدعو تمشعت السما فما تم إلا والنفام قد انفضا<sup>(٢)</sup>

---

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٣٦ .

(٢) ص ١١١ خاص الخاص .

## إِذْعِيْنُ زَيْنِ الْعَابِدِيْنِ

١ - زين العابدين هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب . وكانت ولادته يوم الجمعة في بعض شهور سنة ثمان وثلاثين ، وتوفي سنة أربع وتسعين وقيل اثنين وتسعين بالمدينة ودفن بالبقيع <sup>(١)</sup> .

وكان يقال لزَيْنِ العابدين ابن الخيرتين لقول الرسول : لله تعالى من عباده خيرتان ، تغيرته من العرب قريش ومن المعجم فارس <sup>(٢)</sup> .  
وذلك أن زين العابدين قرشيُّ الأب فارسيُّ الأم فأمه سلافة بنت يزدجرد آخر ملوك فارس <sup>(٣)</sup> .

وكان كثير البر بأمه حتى قيل له : إنك أبر الناس بأُمك ولسنا نراك تأكل معها في صحفة . فقال : أخاف أن تسبق يدي إلى ما تسبق إليه عينها فأكون قد عققتها <sup>(١)</sup> .

وكان كثير البر بالموزين ، البر الجليل الذي لا يطلع عليه الناس ، وقد أحصى بعد موته عدد من كان يقوتهم سرّاً فإذا هم نحو مائة بيت . قال محمد بن إسحاق : كان ناس من أهل المدينة يمشون لا يدرون من أين مما يشهم وما كلمهم ، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤنون به ليلاً إلى منازلهم <sup>(٢)</sup> .

(٢) س ٥٧٧ .

(١) وفيات الأعيان ج ١ س ٥٧٨ .

(٣) الأعلام للزركلي ج ٢ س ٦٦٥ .

وهذه شمائل لا تُستكثر على أهل البيت الذين بُعث جدم ليتم مكارم الأخلاق .

٢ - عاش زين العابدين في عصر كان يموج بالفتن والمكاره والختوف ، في العصر الذي كان يسمى فيه الأمويون لاستئصال شأفة أهل البيت ، ولذلك تفاصيل شرحناها في كتاب « الدأخ النبوية » وبيننا أثرها في نهضة الشمر السياسي لمهد بنى أمية . وقد بقيت تلك المكاره مرسومة في خيال زين العابدين حتى صح له أن يدعو على أهل الشام فيقول :

« اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عَشْوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحَكَمَ في عبادك غير المؤمنين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقض حكك ، وسمى في تلف عبادك المؤمنين ، فجعل فينا مغنا وأمانتنا ميراثاً ، واشترت الملامى والمغازف والكبارات بسهم الأرملة واليتيم والمسكين ، فرتع في مالك من لا يرعى لك حرمة ، وحكم في أبشار المسلمين أهلُ الذمة ، فلا ذائد يزودهم عن هلكة ، ولا راحم ينظر إليهم بمين الرحمة . . . اللهم وقد استحصد زرع الباطل وبلغ نُهيته واستحكم عموده . . . إلخ (١) » .

والمراد بأهل الشام هم الحاكمون من بنى أمية الذين استطرد في الدعاء عليهم فقال :

« اللهم ولا تدع للجور دعامة إلا قصمتها ، ولا جُبنة إلا هتكنتها ، ولا كلمة مجتمة إلا فرقتها ، ولا قائمة إلا خفضتها ، ولا راية إلا نكستها وحططتها ،

---

(١) الصحيفة السجادية الخامسة ص ٩١ .

ولا علواً إلا أسفلته ، ولا خضراء إلا أبدتها ، اللهم وكوّر شمسك ، وأطفيء نوره ، وأمّ بالحق رأسه<sup>(١)</sup> ، وقض جيوشه ، وأرعب قلوب أهله ، وأرنا أنصار الجور عباديد بعد الألفة<sup>(٢)</sup> ، وشئتى بعد اجتماع الكلمة ، ومقموى الرءوس بعد الظهور على الأمة<sup>(٣)</sup> . »

وقد أكثر من الدماء على من خاصموه وحاربوه فدعا على حرمة بن كاهلة وعبيد الله بن زياد وضمرة بن مبيد وعبد الملك بن مروان .

ومراجعة تلك الأدعية تصوّر بعض جوانب المجتمع في ذلك الحين .

٣ — وكان له دعاء خاص بساعته ، وبيان ذلك أن في السالفين من افترض أن النهار قُسم إلى اثنتي عشرة ساعة لينسجم مع عدد الأئمة الإثني عشر ، وزين العابدين هو الرابع بين أولئك الأئمة فساعته من النهار هي الرابعة ، وهي من ارتفاع النهار إلى وقت الزوال<sup>(٤)</sup> .

٤ — وأهم ما ينبئ النص عليه في هذا القام هو الأدعية الإنجيلية ، أو الناجاة الإنجيلية ، وهي أكبر مناجاة ظهرت من فيض الله على لسان زين العابدين<sup>(٥)</sup> .

وسميت هذه الناجاة بالإنجيلية لأن فقراتها تشبه أكثر فقرات الإنجيل النازل على عيسى عليه السلام لا الإنجيل المتداول بين النصارى الآن<sup>(٥)</sup> .

وهذا بيت التصيد ، فقد أشرنا مرات كثيرة إلى أن الصوفية كانوا يرون المسيح قدوة في الشؤون الروحية .

(٢) عباديد : متفرقون

(١) أم الرأس سجه .

(٣) الصحيفة السجادية الخامسة ص ٩٢ و ٩٣ . (٤) انظر ص ١٤٦ و ١٤٩

(٥) انظر ص ١٦٦ .

والواقع أن المسلمين عرفوا الإنجيل منذ زمن بعيد ، وقد ترجموه ترجمة  
فصيحة جداً ، ومن تلك الترجمة الفصيحة شواهد كثيرة في كتب الأدب  
والتصوف كاللغزى نراه في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة ، وكتاب  
الإحياء للغزالي .

والتشابه كبير جداً بين مذاهب النصارى ومذاهب الصوفية في التعمد ،  
فالنصراني المتبتل يدخل الكنيسة وفي جيبه كتاب يشتمل على طوائف من  
الأدعية والصلوات ، والصوفي المخلص يدخل المسجد وفي يده كتاب يشتمل  
على طوائف من الاستغاثات والأحزاب والأوراد .

وكتاب الصحيفة السجادية يشبه من نواح كثيرة كتاب الاقتداء بالمسيح  
والفرق الوحيد بين الكتابين أن الدعاء في كتاب الاقتداء بالمسيح يوجه إلى عيسى  
والدعاء في الصحيفة السجادية يوجه إلى الله ، ويتم التشابه حين نعرف أن النصارى  
يرون عيسى صورة الله .

والصحائف السجادية عند الشيعة تقابل مجموع الأوراد عند أهل السنة  
والمخاطب واحد وهو الله واجب الوجود .

وقد اهتم النصارى بكتاب الاقتداء بالمسيح *Imitation de Jésus Christ*  
فنقلوه من اللاتينية إلى الفرنسية نحو أربعين مرة وكتبوه بالذهب في كثير  
من الأحيان .

وأدعية زين العابدين كانت مما اهتم به الشيعة اهتماماً شديداً ، فصححوا  
رواياتها وتقدهوها وكتبوها بالذهب في كثير من البلاد .



٥ — والناجاة الإنجيلية تفيض بالمانى الروحية ، ولننظر كيف يقول

زين المابدين :

« اللهم لك قلبى ولسانى ، وبك نجاتى وأمانى ، وأنت العالم بسرائرى وإعلانى  
فأمت قلبى عن البغضاء ، وأصمت لسانى عن الفحشاء ، وأخلص سريرتى وعلاييتى  
عن علائق الأهواء . واكفى بأمانك عواقب الضراء ، واجمل سرى مقوداً  
على مراقبتك ، وإعلانى موافقاً لطاعتك . وهب لى جسماً روحانياً وقلباً سماوياً ،  
وهمة متصلة بك ، وقيناً صادقاً فى حبك <sup>(١)</sup> » .

وكيف يقول :

« اللهم ارحم من اكتشفته سيئاته ، وأحاطت به خطيئاته ، وحفت به جنائياته .  
بمفوك ارحم من ليس له من عمله شافع ، ولا يمنه من عذابك مانع <sup>(٢)</sup> » .

٦ — ولزين المابدين أدعية تلين الجلاميد ، كأن يقول :

« سيدى ، حق لمن دعاك بالندم تذلل أن تجميه بالكرم تفضلاً .

سيدى ، أمن أهل الشقاء خلقتنى فأطيل بكأى ، أم من أهل السعادة خلقتنى  
فأبشر رجائى ؟ .

سيدى ، الضرب القاص خلقت أعضائى ، أم لشرب الحميم خلقت أيمانى ؟ .

سيدى ، لو أن عبداً استطاع الهرب من مولاه لكنت أول الهاربين منك ،  
لكنى أعلم أنى لأفوتك .

سيدى ، لو أن عذابى يزيد فى ملكك لسألتك الصبر عليه ، غير أنى أعلم أنه لا يزيد فى ملكك طاعة الطيعين ، ولا ينقص منه ممصية العاصين .  
سيدى ، ما أنا وما خطرى ؟ هب لي خطاياى بفضلك ، وجللى بسترى ، واعف عن توبيخى بكرم وجهك .

إلى وسيدى ، ارحمنى مطروحاً على الفراش تقلبني أبدى أحتى ، وارحمنى مطروحاً على القتل يغسلنى صالح جيرتى ، وارحمنى محولاً قد تناول الأقرباء أطراف جنازتى ، وارحم فى ذلك البيت المظلم وحشتى وغربتى ووحدتى ، فإلى العبد من يرجه إلا مولاه<sup>(١)</sup> .

٧ - وزين العابدين يجعل الأيام والشهور مواسم روحية ، فله أدعية لأيام الأسبوع ، ودعاء ليوم عرفة ودعاء لأول يوم رجب ، وأدعية لأيام رمضان .  
وأول شهور السنة الهجرية عنده هو شهر رمضان<sup>(٢)</sup> .  
ولا تخلو أدعيته على كثرتها من فصاحة التعبير وقوة الروح .

٨ - والصوفية يمتدحون أن زين العابدين كان من أهل الأسرار ، ويروون أنه قال :

يأرب جوهر علم لو أبوح به      قبل لى أنت ممن يسد الوئنا  
ولاستحل رجال مسلمون دى      يرون أقبح ما يأتونه حسنا  
إنى لأكتم من علمى جواهره      كى لا يرى الحق ذو جهل فيفتننا<sup>(٣)</sup>  
ومعنى ذلك أنه كان يفرق بين ما يلقى على العوام وما يلقى على الخواص .

(٢) انظر ص ٣٧٨ .

(١) ص ٣٧٤ و ٣٧٥ .  
(٣) شرح ابن عجبية ص ١١٢ .

# ادْعِ الْتَوْحِيدَ

١ — لم يكن التوحيدى صوفياً بالمعنى المصطلح عايه عند أهل التصوف ،  
قد كان رجلاً مشغولاً بالأدب والنطق والتوحيد ، وكانت له فى حياته جولات  
جهائية لا تخلو من لؤم وأوطيش ، ولكنه حين انهزم فى حياته المعاشية بدأ يشمر  
بروح التصوف ، وأخذ يدعو بما دعا به بعض النساك :

اللهم سُنْ وجوهنا باليسار ، ولا تبذلها بالإقتار ، فنستزق أهل رزقك  
ونسأل شرَّ خلقك ، ونُبْتَلَى بِمحمد من أعطى ، وذمَّ من منع ، وأنت من دونهم  
ولى الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء <sup>(١)</sup> .

وتدلنا فقرات فيما وصل إلينا من مؤلفاته على أنه كان يعنى بتقييد ما يصل  
إليه من بليغ الدعاء ، كأن يحدثنا أنه سمع الخوارزمى أبا بكر محمد بن المباس  
الشاعر البليغ يقول « اللهم وفق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب  
الناس فقد فسدت ، ولا تمتنى حتى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما  
يات العلم <sup>(٢)</sup> » .

فهو يذكر الخوارزمى باسمه وكنيته ويصفه بالشاعر البليغ ، وفى هذه إشارة  
إلى عطفه عليه بسبب الروح الذى تنسمه فى هذا الدعاء .

وهو نفسه كان يعطف على التصوف ويراه علماً يدور بين إشارات

(١) معجم الأدباء ج ٥ ص ٤٠٤

(٢) الصداقة والصديق ص ٢

إلهية ، وأغراض علوية ، وأفعال دينية ، وأخلاق ملوكية ، ولم يعممه هذا المصنف من النص على أن الطريقة لحقها حيف لكثرة الدخلاء فيها كما لحق البلاغة لكثرة مدّعيتها ، وذلك في رأيه لانقراض الدنيا وقرب أشراف القيامة<sup>(١)</sup> .  
فهو يمجّد التصوف ولا يمتق إلا الأدعياء .

٢ - والرجع عندنا أن التوحيدى لم يكلف بصوغ الأدعية إلا في أخريات حياته حين « بلغت شمسه رأس الحائط »<sup>(٢)</sup> ولذلك رأيناه يفتتح رسالة الصداقة والصديق بهذا الدعاء :

« اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التى بها تصلح القلوب وتنقى الجيوب ، حتى نميش فى هذه الدار مصطلحين على الخير مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة آنفين من ملابسة ما يقدح فى ذات البين ، مزودين للمعاقبة التى لا بد من الشخصوس إليها ، ولا يحيد من الاطلاع عليها ، إنك تؤتى من نشاء ماتشاء . »

وقد يقال إن أكثر المؤلفين يبتدئون مؤلفاتهم بالدعاء . ونجيب بأن هنا نفحة صوفية لآئجد مثلها فيما دعا به الجاحظ فى فاتحة « البيان والتبيين » .

٣ - على أن الجاحظ دعا مرة أو مرات ، أما التوحيدى فقد آئخذ الدعاء فناً من فنون البيان ، ولننظر هذا الدعاء :

« اللهم إنى أبرأ من الثقة إلابك ، ومن الأمل إلابيك ، ومن التسليم

(١) من رسالة ثمرات العلوم الملحقة بالصداقة والصديق ص ١٩٦ .

(٢) عبارة التوحيدى فى ختام رسالة الصداقة والصديق .

إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب  
إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا في طاعتك ، ومن الصبر  
إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي ، والشكر على  
نعمك شعارى ودأرى ، والنظر إلى ملكوتك ، دأبى ودينى ، والالتقياد لك  
شأنى وشغلى ، والخوف منك أسمى وإيمانى ، واللياذ بذكرك بهجتى وسرورى .  
اللهم تتابع برك واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق  
وعدك ، وبر قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك . ولم تبق حاجة إلا وقد  
قضيتها أو تكفلت بقضاها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك أهل ذلك  
والقادر عليه .

والقارىءُ مرجوٌّ أن ينظر براعة هذا الكاتب فى تلوين الفواصل مع  
حروف الخفض فى صدر هذا الدعاء ، وما اتسق له بعد ذلك من المقابلة  
والازدواج .

٤ — وهذا لون ثالث من الدعاء :

« اللهم إني أسألك خفايا لطفك ، وفواتح توفيقك ومألوف برك ،  
وعوائد إحسانك ، وجاه المجتبيين من ملائكتك ، ومنزلة الصطفين من رسلك  
ومكاثرة الأولياء من خلقك ؟ وعاقبة المتقين من عبادك ، وأسألك القناعة  
برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع فى شبهاتك ،  
والقيام بحجتك ، والاعتبار بما أبديت ، والتسليم لما أخفيت ، والإقبال على  
ما أمرت ، والوقوف عما زجرت ، حتى أنخذ الحق حجة عندما خفّ وثقل ،  
والصدق سنة فيما عسر وسهل ، وحتى أرى أن شعار الزهد أعز شعار ، ومنظر

الباطل أشوه منظر ، فأبتختر في ملكوتك فضفاض الرداء بالدعاء إليك ، وأبلغ  
الغاية القصوى بين خلقك بالثناء عليك .

وفي هذا الدعاء فنون من البديع لا تحصى على القارى ، وموضوعه يخالف  
موضوع الدعاء السالف .

• — وهذا لون رابع :

« اللهم إليك أرفع عُجْرِي وَبُجْرِي<sup>(١)</sup> وبك أستمين في عسرى ويسرى  
وإليك أدعو رغباً ورهباً ، فإنك العالم بتسويل النفس ، وفتنة الشيطان ،  
وزينة الهوى وصرف الدهر وتلون الصديق ، وبائقة الثقة وقنوط القلب ،  
وضعف المنة ، وسوء الجزع ، فقى اللهم ذلك كله واجمع من أمرى شمله  
وانظم من شأنى شتيته ، واحرسنى عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر  
وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من الحسرة ، وعند الراحة من  
الفُسولة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند المنازلة من الطفيان ، وعند البحث  
من الاعتراض عليك ، وعند التسليم من التهمة لك ، وأسألك أن تجعل  
صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارى خدام طاعتك ،  
فإنه لا عزَّ إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمن إلا فى الخوف  
منك ، ولا قرار إلا فى القلق نحوك ، ولا روح إلا فى الكرب لوجهك ، ولا ثقة  
إلا فى تهمة خلقك ، ولا راحة إلا فى الرضا بقسمك ، ولا عيش إلا فى جوار  
المقرين عندك . »

وهذا الدعاء على جانب عظيم من الأهمية ، وفى صدره بعض الضعف

---

(١) كناية عن الأحوال الثقالة .

ولكن الشطر الأخير غاية في القوة ، وهو يمثل كثيراً من المآني النفسية كالبطر  
عند الغنى ، والضجر عند الفقر ، والفلة عند الكفاية ، والفسولة عند الراحة ،  
والطغيان عند المنازلة ، والاعتراض عند البحث .

ولا مفر من الثناء على هذه الفقرة إذ يخاطب الكاتب ربه فيقول :  
« إنه لا عز إلا في الدل لك ، ولا غنى إلا في الفقر إليك ، ولا أمن إلا في  
الخوف منك ، ولا قرار إلا في القلق نحوك ، ولا روح إلا في الكرب لوجهك ،  
ولا ثقة إلا في تهمة خلقك » .

والكلمة الأخيرة من وثبات الخيال .

٦ - وهذا لون خامس :

« اللهم يرهانك الصادع ، وينور وجهك الساطع ، صلّ على محمد نبيك  
نبي الرحمة ، وقائد الأمة ، وإمام الأئمة ، واحرس على إيمانك بك بالتسليم لك  
وخفف عني مثونة المبر على امتحانك ، وواصل لي أسباب الزيد عند  
الشكر على نعمتك ، واجعل بقية عمري في غنى عن خلقك ، ورضاً بالقدم  
من رزقك . اللهم إنك إن آخذتنا بذنوبنا خسف الأرض بنا ، وإن جازيتنا  
على ظلمنا قطعت دوابنا ، فإنك قلت ( فقُطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد  
لله رب العالمين ) اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغلّ صدورنا ، وفتنة  
أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، ورفث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا  
وغش لجائنا ، وقبح دعوانا ، وتنن أشرارنا ، وخبت أختيارنا ، وتلرزق  
ظاهرنا ، وتمزق باطننا . اللهم فارحنا . وارأف بنا ، واعطف علينا ، وأحسن  
إلينا ، وتجاوز عنا ، واقبل اليسور منا . فإننا أهل عقوبة وأنت أهل مغفرة ،

وأنت بما وصفت به نفسك أحق منا بما وصفتنا به أنفسنا ، فإن في ذلك ما اقترن  
بكرمك ، وأدى إلى عفوك .. الخ .

وهذا الدعاء طويل يجد القارئ بقيته في شرح ابن أبي الحديد<sup>(١)</sup> وهو  
يذكر بما سيوضع من الأحزاب ، ففيه حديث عن قسوة القلوب ، وغل  
الصدر ، وفتنة النفوس ، وطموح الأبصار ، ورفث الألسنة ، وسخف  
الأحلام ، وسوء الأعمال ، وذلك يدل على بصر التوحيدى بمصف الفتن  
في عالم الأخلاق .

ومن دقيق ما فيه الإشارة إلى قبح الدعوى ، وغش اللجاج ، والنص  
على فتن الأشرار وخبت الأخيار ، فهو يرى أن في الأخيار خبثاً ، وذلك من  
جانبه إسراف في اتهام الطبيعة الإنسانية ، إلا إن قدرنا أنه يشير إلى أن الأخيار  
لاغنى لهم عن التحرز والخوف من سوء الخواتم .

٧ - هذا وللتوحيدى أدعية كثيرة فيها أدب وعقل وذكاء . ولا موجب  
لمرض ما وصلنا إليه من أدعيته في هذا الفصل فلنكتف بهذه الفقرات :  
« اللهم احجز بيننا وبين كل مادلٍ على غيرك ببيانك ، ودعا إلى سواك  
ببرهانك » .

« اللهم قيض لنا فرجاً من عندك ، وأنبغ لنا مخلصاً إليك ، فإننا قد تعبنا  
بخلقك وعجزنا عن تقويمهم لك ، ونحن إلى مقاربتهم في مخالفتك أقرب منا  
إلى منابذتهم في موافقتك » .

« اللهم إليك المفر من دار منهومها لايشبع ، وحائماً لاينقع ، وطالبها

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٨٩



لا يربح ، وواجدها لا يفتن . اللهم كما ابتليت بحكمتك الخفية التي أشكلت على العقول وحارت معها البصائر فعاف برحمتك اللطيفة التي تطاولت إليها الأعناق وتشوفت نحوها السرائر . »

« اللهم إنا قربنا منك فلا تَبِيناً عنك ، وظهرنا لك فلا تُبْطِئاً دونك ، ووجدناك بما ألقيت إلينا من غيب ملكوتك ، وعزفنا عن كل مالوانا عن بابك ، ووثقنا بكل ما وعدتنا في كتابك<sup>(١)</sup> . »

٨ — وقد أهدى إلينا الأستاذ سليم قيعين نسخة مخطوطة من رسالة للتوحيدي اسمها « الإشارات الإلهية » فنظرنا في الفاتحة فإذا فيها دعاء يشير الدمع ويتفجر عند قراءته الحنان ، فان كان القارىء في حاجة إلى بيضة على صحة ما نقول فليقرأ هذا الدعاء :

« اللهم إنا نسألك ما نسأل لاعن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا ممك ، وسوالف إحساننا قبلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً في رحمتك الواسعة ، نعم ، وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمارنا قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، نسألك أن لاترد علينا هذه الثقة بك فتشمت بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك . »

٩ — وقد رأينا في هذه المخطوطة إشارة تسمو بالتوحيدي إلى درجة التصوف ولنتأمل كيف يقول :

حرامٌ على قلب استنار بنور الله أن يفكر في غير عظمة الله .  
حرامٌ على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله .

---

(١) تجد أصول هذه الفقرات في شرح ابن أبي الحديد ج ٣ ص ٨٩ — ٨١٠ .

حرامٌ على نفس ظهرت من أدناس الدنيا بطاعة الله أن تدنس بشيء من مخالفة الله .

حرامٌ على عين نظرت إلى مملكة الله أن تمحق إلى غير الله .

حرام على كبد ابتلت بالثقة بالله أن تلهثن إلى غير الله .

حرام على من لم ير الخير إلا من الله أن يجد طمعاً في غير الله .

حرام على من شرف بخدمة الله أن يتضع بخدمة غير الله .

حرام على من ألف فناء الله أن يرجع إلى غير الله .

حرام على من تآذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله .

حرام على من رتع في نعمة الله أن يعبد غير الله .

حرام على من سكن حرَم الله أن يتعرض لحرَم الله .

حرام على من دعا إلى الله أن يحب غير الله .

حرام على عبد الله أن يتخذ مولى سوى الله .

حرام على من أنس بالله أن يأنس بغير الله .

حرام على من عرف قدرة الله أن يتعرض لسخط الله .

وهذه قطعة طريفة تفيض بقوة الروح .

١٠ — والشاهد من كل ما سلف أن التوحيدى يرى الدماء من الفنون

الأدبية فهو يكتب الأدعية كتابة الأديب الفنان ، ويقصد إلى جعلها من التماذج الباهرة في عالم البيان .

فمن أين جاءت هذه النزعة ؟ أترون هذا الفن من مبتكراته ؟ هيئات !

لقد كان الرجل يزاحم ناساً ملأت أذعيتهم آفاق الأندية الأدبية ،

وهؤلاء الناس هم الزهاد والنساک والصوفية ، وكان لنصائحهم ووصاياهم وأدعيتهم مكان مرموق في عالم الآداب .

إن الفن الأدبي لا يزدهر إلا حين يجد نفساً تصبو إليه وتتشبه به ، وكان التوحيدى سبق بأجيال عرفت فضل البلاغة في كلام النساک ، وكان الجاحظ قدوة التوحيدى ، والجاحظ كان يحرص على تعطير كتبه برواية أقوال النساک والزهاد فليس غريباً أن يعمد التوحيدى إلى ذلك الفن من البلاغة الدينية فيحتذيه احتذاء يدل على ذكاء القلب ، وصفاء النفس ، وحياة الوجدان .

١١ — فإن سأل القارىء : وأين مظاهر هذا الفن في العصر الحديث ؟ فإننا نجيب بأنه انقرض ولم تبق إلا روايته وإنشاده في مجالس الصوفية وربما رأينا من أهل التصوف في مصر من ينظم الأدعية ولكنهم يتكلفون متابعة القدماء . والصفاء في خواطرهم قليل . وأين الطرف المكحول من الطرف الكحيل ! أما الخيامُ فإنها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نساءها

---

## الاستِغْنَاءَاتُ وَالْأَحْزَابُ

استغناء السهيل — الفرق بين الأحزاب والأوراد — تحليل حزب البر  
لشافل — في الأحزاب إشارات لا يفهمها غير كبار الحكماء .

١ — رأينا نماذج من الأدعية والأوراد ، وعرفنا أن لذلك صلة وثيقة  
بالحياة الخلقية ، ورأى القارى كيف آثرنا الإيجاز على الإطناب ، لأن  
الإشارة تكفى في هذا الباب ، ولأن الإطناب نفسه لا يطفى الشوق إلى  
المزيد فليرجع القارى إلى كتب التصوف ، ففيها أوراد تجلّ عن الإحصاء ،  
وحسبه أن يعرف أن لتلك الأوراد ملامح أدبية وخلقية : فهى باب من  
الأدب لأن مؤلفيها كانوا يتحرون دقة الأسلوب وروعة الخيال ، وهى من  
صميم الأخلاق لأنها رياضة على التقرب إلى الله ، والانقطاع إليه ، والفناء  
فيما يريد .

ولنأخذ الآن في الحديث عن الاستغناءات والأحزاب ، ولنوجز أيضاً لأنه  
يتمتعر توفية هذا النوع ما يستحق من الدرس في فصل من كتاب .

٢ — ولنتقف في الاستغناءات عند منظومة السهيلي التوفى سنة ٥٨١ وكان  
يحدث أصحابه بأنه ما سأل الله بها إلا أعطاه .

يَا مَنْ بَرَى مَا فِي الضَمِيرِ وَيَسْمَعُ أَتَى الْمَدْدُ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ  
يَا مَنْ يُرْجَى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا يَا مَنْ إِلَيْهِ الشُّكَى وَالْمَفْرَعُ  
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ أَمِنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ

مالى سوى فقرى إليك وسيلةً وبالافتقار إليك فقرى أدفع  
مالى سوى فزعى لبابك حيلةً فلئن رددت فأى باب أقرع  
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع  
حاشا لجودك أن يقنط عاصياً الفضل أجزل والمواهب أوسع<sup>(١)</sup>  
ولا تزال هذه الاستغاثات مما يتوصل به الصوفية وقد أثبتتها مؤلفو مجموع

الأوراد وأضافوا إليها هذا البيت فى الصلاة على الرسول :

ثم الصلاة على النبي وآله خير الأنام ومن به يتشفع  
واهتم بتخميسها ثلاثة من أهل الفضل وتحميسهم محفوظة بدار  
الكتب المصرية .

٣ - أما الأحزاب فكثيرة جداً ، والفرق بين الورد والحزب أن الورد  
يُقرأ فى أوقات منظمة فيقال أوراد النهار وأوراد الليل ، أما الحزب فليس  
لقراءته وقت مخصوص ، وسنكتفى فى هذا الفصل بالكلام عن حزب البر  
لأنى الحسن الشاذلى . وهو فى رأينا أفضل الأحزاب من حيث اللفظ والمعنى ،  
فهو فى لفظه تحفة فنية قليلة النظائر ، وهو فى معناه قوة روحية وعقلية  
نادرة المثال .

والشاذلى يبدأ حزب البر بالاستعاذة والبسملة وآيات من القرآن كأكثر  
من أنشأوا الأحزاب ثم يأخذ فى مخاطبة الله فيقول .

« اللهم إنك تعلم أنى بالجهالة معروف ، وأنت بالعلم موصوف ، وقد سمعت  
كل شئ من جهالتى بملك ، فسع ذلك برحمتك كما وسعته بملك » .

(١) النظر نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٨ .

والمعنى في هذه الفقرة في غاية من القوة ، فلي تأمله القارى . ثم يقول :

« اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فهنيئاً لمن عرفك فرضى بقضائك ، والويل لمن لا يعرفك ، بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدايتك ولم يرض بأحكامك » .

وهو في هذه الفقرة يدعو إلى التفويض والامتنال . ثم يقول :

« اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا . وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا ، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك وكل وجد يحجب عنك فنسألك عوضه فقدأً تصحبه أنوار محبتك » .

وهو في هذه الفقرة يصرح بأن لا عز إلا بالله ، ولا غنى إلا بالله ، ويرجو الحرمان من كل عز يمنع دون الله ، وكل غنى يحجب عن الله ، ثم يقول :

« اللهم إنا قد هجرتنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم فكيف لا نمجز عن ذلك من حيث لا نعلم بما لا نعلم » .

وهذه الفقرة من خير ما أتتجت القرائح ، ولا يفنى ما فيها من قوة المعنى وطرافة الخيال .

والمؤلف يقول بمجز النفوس عن دفع الضر الذي تعرفه بما تعرف من وسائل الوقاية والمقاومة فكيف لا نمجز عن دفع ما لا تعرف بما لا تعرف . وهو بهذا يؤمن بالخلافة النبوية ويسأل الله السلامة من الظاهرات والمستورات ، ثم يقول :

« وقد أمرتنا ونهيتنا ، والمدح والذم ألزمتنا ، فأخو الصلاح من أصلحته وأخو الفساد من أضلته ، والسميد حقاً من أغنيته عن السؤال منك ، والشق حقاً من حرمة مع كثرة السؤال لك ، فأغتنا بفضلك عن سؤالنا منك ، ولا تحرمنا من رحمتك مع كثرة سؤالنا لك ، إنك على كل شيء قدير » .

ودقة المعنى في هذه الفقرة لا تحتاج إلى بيان . ثم يقول :

« يا شديد البطش يا جبار يا قهار يا حكيم نعوذ بك من شر ما خلقت ونعوذ بك من ظلمة ما أبدعت ، ونعوذ بك من كيد النفوس فيما قدّرت وأردت ، ونعوذ بك من شر الحساد على ما أنعمت ، ونسألك عزّ الدنيا والآخرة كما سألكه نبيك سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، عزّ الدنيا بالإيمان والمعرفة ، وعزّ الآخرة باللقاء والشهادة ، إنك سميع قريب مجيب » .

والمؤلف يكشف في هذه الفقرة عن معان نفسية تمثل الخوف من مكنونات الوجود والفرع من شر الناس ، ويفصح عن أمله في عز الدنيا والآخرة ، فعز الدنيا هو المعرفة والإيمان ، وعزّ الآخرة هو المشاهدة واللقاء . أما المال هنا والنعيم هناك فليس له حساب ، والمؤمن المتصوف لا يفكر في النعيم المحسوس ، وإنما يوجّه رغبته إلى النعيم المقبول .

ثم يقول :

« يا سميع يا قريب يا مجيب يا ودود . حُلْ بيننا وبين فتنة الدنيا والنساء والنفلة والشهوة وظلم العباد وسوء الخلق ، واغفر لنا ذنوبنا ، واقض عنا تبعاتنا ، واكشف عنا سوء ، ونجنا من الغم واجعل لنا منه مخرجاً ، إنك على كل شيء قدير » .

والمؤلف يصوّر في هذه الفقرة ما يخشاه من الفتن والمكاره الدنيوية .

ومن جيد التصوير لضعف النفس قوله :

« وزحزحنا في الدنيا عن نار الشهوة ، وأدخلنا بفضلك في ميادين الرحمة  
واكسنا من لدنك جلايب المعصية ، واجعل لنا ظهيراً من عقولنا ، وهُمَيْمناً  
من أرواحنا ، ومسخرّاً من أنفسنا ، كي نسبحك كثيراً ، ونذكرك كثيراً ، إنك  
كنت بنا بصيراً » .

والهم في هذه الفقرة هو الرجال في أن يجعل الله لنا ظهيراً من المقول ،  
وهُمَيْمناً من الأرواح ، ومسخرّاً من النفوس :  
ثم يقول :

« واذا ذكرنا إذا غفلنا عنك بأحسن ما تذكرنا به إذا ذكرناك ، وارحمنا  
إذا عصيناك بأنتم ما ترحمنا به إذا أظعنناك . واغفر لنا ذنوبنا ما تقدم منها  
وما تأخر ، والطف بنا لطفاً يحجبنا عن غيرك ولا يحجبنا عنك ، إنك بكل  
شيء عليم » .

وصدر هذه الفقرة في غاية من الحسن عند من يتأملون .

ولننظر قوله في الخوف من النفس ومن خطرات المعصية :

( اللهم إنا نسألك التوبة ودوامها ، ونعوذ بك من المعصية وأسبابها .  
وذكرنا بالخوف منك قبل هجوم خطراتها ، واحملنا على النجاة منها ومن التفكير  
في طرائقها ، وامح من قلوبنا حلاوة ما اجتنبناه منها ، واستبدلها بالكراهة  
لها والطعم لما هو بضدها ، وأفض علينا من بحر كرمك وعفوك حتى نخرج من  
الدنيا على السلامة من وبالها ) .



والمؤلف في هذه الفقرة يصور ما تعرض له النفس من الشوق إلى ما اجتنبت من اللذات : فقد تلتفت النفس إلى لذاتها الماضية فيفسد عليها روح المتأنيب ، وهو يرجو أن يذكره الله بالخوف منه قبل هجوم الخطرات ، خطرات المعاصي والذنوب .

ثم يقول :

« واجمل سيئاتنا سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتنا حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب فيك ، وقد أبهت علينا الأمر لنرجو ونخاف : فأمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا ، وأعطنا سؤالنا ، فقد أعطيتنا الإيمان من قبل أن نسألك . »

ولو مضينا لرأينا الشاذل يدعو الله أن يهبه حقيقة الإيمان حتى لا يخاف غيره ، ولا يرجو غيره ، ولا يحب غيره ، ولا يبغض شيئاً سواه ، ورأيناه يقول :

« فهأنذا عبدك إن تمذبنى بجميع ما علمت من عذابك فأنا به حقيق » .  
فيترف بأنه لا ينال الرحمة إلا بفضل من الله ، ثم يوفق كل التوفيق إذ يقول :

« فليس كرمك مخصوصاً بمن أطاعك وأقبل عليك بل هو مبذول بالسبق لمن شئت من خلقك وإن عصاك وأعرض عنك . وليس من الكرم أن لا تحسن إلا لمن أحسن إليك وأنت المفضل التني ، بل الكرم أن تحسن إلى من أساء إليك وأنت الرحيم العلي ، كيف وقد أمرتنا أن نحسن إلى من أساء إلينا ، فأنت أولى بذلك منا » .

تلك إشارات إلى ما في حزب البر من الآيات فليرجع إليه القارىء إن شاء .  
وليرجع إلى أمثاله من مختلف الأحزاب ففيها خلق وفيها بيان . ومن موجبات  
الأسف أن لا يقرأ هذه الأحزاب غير الموام ، مع أن فيها من دقائق الإشارات  
ما لا يفهمه غير كبار الحكماء .

---

## الْوَصَايَا وَالنِّصَاحُ

في الوصايا ملامح من الأدب وأصول من الأخلاق — قدم هذا الفن في اللغة العربية — خصائص النصيح عند الصوفية — نماذج من وصايا الفساك — حرص الناس على وصايا الصوفية — الروح النال على هذه الوصايا هو الدعوة إلى تطهير القلب ، والتنغير من الدنيا الفانية ، والتشويق إلى دار البقاء .

١ — هذا الفن مزاج من الأدب والأخلاق : هو أدب لأن الناصحين كانوا يحرصون في الأغلب على جمال الصورة ، فيسجمون ويأوجون ، كقول علقمة بن ليبيد :

( يا بني ، إذا نرغتك إلى محبة الرجال حاجة فاصحب من إذا صحبتك زانك ، وإن خدمته صانك ، وإن أصابتك خصاصة مانك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن صلت شدّ صولك ، وإن مددت يدك بفضل مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن سألتك أعطاك ، وإن سكت عنه ابتداك ، وإن نزلت بك إحدى الملمات آساك<sup>(١)</sup> ) .

وهو أخلاق لأن الناصحين كانوا يفكرون أولاً وقبل كل شيء في المعاني الخلقية ، وكانت النصائح لا تصدر إلا عن أناس عرفوا بالحكمة وأصالة الرأي ، وكانت لا توجه إلّا إلى ناس يراد توجيههم إلى صالح الأعمال ، ومن أجل ذلك أضفنا هذا الفصل إلى قسم الأخلاق .

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٤

٢ - والوصايا من أقدم الفنون التي عرفتها البيئات العربية ، والقرآن  
يحدثنا أن لقمان قال لابنه وهو يعظه :

« يا بني ، لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم .. يا بني ، أقم الصلاة ،  
وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر ، واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم  
الأمور . ولا تصمّر خدّك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحا ، إن الله  
لا يحب كل غتال نفور . واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك ، إن أنكر  
الأسوات لصوت الحمير <sup>(١)</sup> » .

وهي كذلك من أقدم الفنون التي عرفتها البيئات الفارسية ، ومن أشهر  
ما أثر عن الفرس في هذا الباب كتاب أردشير بن بابك إلى بنيه والملوك من  
بعده ، وهو كتاب طويل يقتبس منه هذه الفقرات :

« رشاد الوالي خير للرعية من خصب الزمان . الملك والدين توأمان  
لاقوام لأحدهما إلّا بصاحبه . . . واعلموا أنه ليس ينبغي للملك أن يعرف  
للعباد ولا النساء بأن يكونوا أولى بالدين منه . . . واعلموا أنكم ستبلون على  
الملك بالأزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخذان والأنصار والأعوان  
والتقربين والندماء والضحكين ، وكل هؤلاء . إلا قليلا أن يأخذ لنفسه أحب  
إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنما عمله سوق ليومه وذخيرة لغده . فنصيحته  
للملوك فضل نصيحته لنفسه ، وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه ، وغاية الفساد  
عنده فسادها ، يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ...  
واعلموا أن لكل ملك بطانة ، ولكل رجل من بطانته بطانة ، ثم إن لكل امرئ

من بطانة البطانة بطانة ، حتى يجتمع من ذلك أهل المملكة فإذا أقام الملك بطانته على حال الصواب فيهم أقام كل امرئ بطانته على مثل ذلك حتى يجتمع على الصلاح عامة الرعية<sup>(١)</sup> .

وقد ازدهر هذا الفن في اللغة العربية ، ودخل في أكثر أبواب الحياة ، فهناك وصايا الخلفاء والملوك وهي التي تسمى « المهود » ولكل طائفة وصايا ، ومن أشهر الوصايا الأدبية وصية عبد الحميد بن يحيى التي وجهها إلى الكتاب ، وهناك وصايا الآباء للأبناء وقد كتبت عنها ثلاث مقالات نشرتها في البلاغ ، ثم تبينت أنها تحتاج إلى درس أطول مما اشتملت عليه تلك المقالات الثلاث ... وقد انتقل هذا الفن إلى الفكاكة ، فرأينا نماذج كثيرة من وصايا الطفيليين إلى أبنائهم ، وكل أولئك يبين كيف صار هذا الفن مما يتبارى فيه الكتاب والشعراء .

٣ — وقد تعمنا في البحث عن الفروق الجوهرية التي يتميز بها هذا الفن في كلام الصوفية ، ثم رأينا أن الفروق على كثرتها ترجع إلى باب واحد ، فالوصايا في الأغلب تدور حول الشئون الماعشية ، وتطوف بالأصول من كرائم الخلال ، كقول الأوس بن حارثة :

« يا مالك ، المنية ولا الدنية ، والمتاب قبل العقاب ، والتجلد لا التبلد ، واعلم أن القبر خير من الفقر ، ومن كرم الكريم الدفاع عن الحرم ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة ، والدهر يومان : يوم لك ويوم عليك ،

---

(١) كتاب أردشير خلیق بأن یقرأ سله ، فلیرجع إلیه الفارسی فی شرح ابن أبی الحدید

فإذا كان لك فلا تبطر ، وإذا كان عليك فاصبر<sup>(١)</sup> .

ولكنها عند الصوفية تنصب على أمور ذوقية وروحية ، كأن يحدث من يقول :

« أقبلنا قافلين من بلاد الروم نريد البصرة حتى إذا كنا بين الرصافة وحصن سمنا صائحا يصيح من بين تلك الرمال — سمته الآذان ولم تره العيون — يقول : يا مستور يا محفوظ ، اعقل في ستر من أنت ؟ فإن كنت لا تعقل من أنت في ستره فاتق الدنيا فإنها حي الله ، فإن كنت لا تعقل كيف تنقيها فصبرها شوكا ثم انظر أين تضع قدميك منها<sup>(٢)</sup> » .  
وكان يقول بعض الزهاد :

« لا تفترن بطول السلامة مع تضييع الشكر ، ولا تملنَّ نعمة الله في معصيته ، فإن أقل ما يجب لمهديها ألا تجعلها ذريعة إلى مخالفته ، واستدع شارد النعم بالتوبة ، واستدم الراهن منها بكرم الجوار ، واستفتح باب المزيد بحسن التوكل<sup>(٣)</sup> » .  
وكان يقول غيلان :

« إن التراجع في المواعظ يوشك أن يُذهب يومها ويأتي يوم الصاخة ، كل الخلق يومئذ مصيخ يستمع ما يقال له ويُقضى عليه ، وخشمت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا ، فاصمت اليوم عما يصمتك يومئذ ، وتعلم ذلك حتى تعلمه ، وابتنه حتى تجده ، وبادر قبل أن تفجأك دعوة الموت ، فإنها

(١) الأمل ج ١ ص ١٠٢ .

(٢) ميون الأخبار ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٣) ميون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٤ .

عذيفة إلا بمن رحم الله ، فيحجمك في دار تسمع فيها الأصوات بالحسرة والويل والثبور ، ثم لا يقولون ولا يستمعون ، إني رأيت قلوب العباد في الدنيا تحشع لأيسر من هذا وتقسو عند هذا ، فانظر إلى نفسك أعبد الله أنت أم عدوه ، فيارب متعبد لله بلسانه ، معاد له بفعله ، ذلول في الانسياق إلى عذاب السمير في أمنية أضفك أحلام يمبرها بالأمانى والظنون ، فأعرف نفسك ، وسل عنها الكتاب المنير ، سؤال من يحب أن يعلم ، وعلم من يحب أن يعمل . . . ولا تكن كملء زمن المهرج إن وُعطوا أنفوا ، وإن وُعطوا عنفوا<sup>(١)</sup> .

فا الذي زاه في أمثال هذه النصائح ؟ إنها نفثات موجهة إلى غاية واحدة هي إصلاح القلوب ، والوسيلة هي التذكير بمحقارة الدنيا والترغيب في الأعمال الصالحات ، فالزاهد حين ينصح لا يفكر في المماش على نحو ما يفكر الممنون بالشئون الدنيوية ، وإنما يفكر في إعداد النفس ليوم الحساب .

٤ - وكان يتفق للصوفية أن يسلكوا في نصائحهم مسلك التعليل والتحليل ، كأكثر رجال الأخلاق ، فترى منهم من يعجب حين يرى طالب الدنيا أجدّ من طالب الآخرة ، وخائفها أتعب من خائف الآخرة ، وهو يعلم يقيناً أنه ربّ مطلوب في الدنيا قد صار حين نيل حتماً لطالبه ، وأنه رب مخوف فيها قد لحق كرهاً بالهارب منه فصار خطأه ، وأن المطلوب إليه من أهلها ضئيف عن نفسه ، محتاج إلى ربه ، مملوك عليه ماله ، مخزونة عنه

(١) هيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٥

قدرته ، ثم يقضى بأن جماع مايسعى له الطالب ويهرب منه الهارب أمران : أحدهما أجله والآخر رزقه ، ويمعجب حين يرى الناس يختلفون في أمر الآخرة ولا يختلفون في أمر الدنيا ، وكيف لا يكون خائف الآخرة لربه فكائف الدنيا لسلطانها ، فيصبر على تجشم الكروه وتجرع غصص الفيظ ، ويتحفظ من أن يضمر له على غش أو يهيم له بخلاف « فإن ابتلى بالسخط من سلطانه فكيف حزنه ووحشته ، وإن أنس منه رضاً عنه فكيف سروره واختياله ، وإن قارف ذنباً إليه فكيف تضمضه واستخذاؤه ، وإن نذبه لأمر فكيف خفته ونشاطه ، وإن نهأ عنه فكيف حذره واتماظه ، وهو يعلم أن خالقه وراقه يعلم سره وجهره ، ويراها في متقلبته ومشواه ، ويمائنه في فصائحه وعورته ، فلم يزعه عنها حياء منه ، ولا تقية له ، قد أمره فلم يأتع ، وزجره فلم يزدجر ، وحذره فلم يحذر ، ووعدته فلم يرغب ، وأعطاه فلم يشكر ، وستره فلم يزدد بالستر إلا تمرضاً للفضائح ، وكفاه فلم يقنع بالكفاية ، وضمن له في رزقه ما هو في طلبه مُشيع ، ويقظه من أجله لما هو عنه لاه ، وفرغته من العمل لما هو عنه بغيره مشغول<sup>(١)</sup> » .

ولنذكر أن هذا نوع من النصيح الملقوف ، وهو من المذاهب التعليمية ، فقد كتب رجل من العباد خطاباً إلى صديق له يستفتيه في تلك الدقائق التي لخصناها في هذه الفقرة فأجابه الصديق بخطاب مطول يبين فيه أن اليقين كالشجرة الثابتة في القلب أغصانها العمل ونعمتها الثواب ، ثم قال :

« وأما قولك : كيف لم يكن خائف الآخرة لربه فكائف الدنيا لسلطانها ،

---

(١) انظر ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ج ٢ عبون الأخبار .



فإن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان ضعيفاً وجعله عجولاً ، فهو لضعفه موكل بخوف الأقرب فالأقرب مما يكره ، وهو بمجلته موكل بحب الأعجل فالأعجل مما يشتهي ، وزاده حرصاً على التخلص من المكروه ، وطلباً للحبيب ، حاجته إلى الاستمتاع بمتاع الدنيا الذي لولا ما طبع عليه القلب من حبه ، وسهل على المخلوقين من طلبه ، لما انتفع بالدنيا منتفع ولا عاش فيها عائش<sup>(١)</sup> .

والخطاب والجواب يرجعان إلى أصل واحد هو تمليل مايلب على النفس الإنسانية من الضعف .

هـ - وأقدم النصائح الصوفية في الإسلام نصائح على بن أبي طالب ، وهي كثيرة جداً ، نكتفي منها بقوله :

( إن الدنيا قد ارتحلت مدبرة ، وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا . ألا إن الزاهدين في الدنيا اتخذوا الأرض بساطاً والتراب فراشاً والماء طيباً ، ألا من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن الحرمان ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات<sup>(٢)</sup> ) .

وللقارىء أن يرجع إلى الجزء الأول من نهج البلاغة فينظر في الصفحات ٢٦٦ و ٢٧٧ و ٢٨٧ و ٣٩٢ و ٤٣٣ فإن فيها صوراً مختلفة من وصايا ابن أبي طالب ، وهي في الأغلب ترمي إلى تطهير النفس ، وإصلاح القلب والتنفير من الدنيا الفانية ، والتشويق إلى دار البقاء .

(٢) م ٣٥٣ .

(١) عيون الأخبار ج ٢ م ٣٤٩ .

٦ - وأثرت عن الصوفية أجوبة تعليمية في مسائل كثيرة ، فقد قيل للحسن البصرى : قد أكثر الناس تعلم الآداب ، فما أنفعها عاجلاً وأوصلها آجلاً ؟ فقال : التفقه في الدين فإنه يصرف إليك قلوب المتعلمين ، والزهد في الدنيا فإنه يقربك من رب العالمين ، والعرفه بما لله عليك يحويها كمال الإيمان<sup>(١)</sup> .

وسئل ابن سيرين : أى الآداب أقرب إلى الله تعالى وأزلف للعبد عنده ؟ فقال : معرفة بربوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء ، والصبر على الضراء<sup>(٢)</sup> .

وكتب يوسف بن الحسين إلى بعض الحكماء :

( أشكو ركونى إلى هذه الدنيا وما أجد فى طبعى من الأخلاق التى لست أرضاها من نفسى لنفسى ) .  
فكتب إليه :

( بسم الله الرحمن الرحيم . وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت ، وغاطبك - أكرمك الله - شريكك فى شكواك ، ونظيرك فى بلواك . إن رأيت أن تديم الدعاء وقرع الباب فإنه من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل ، وإن تهيباً لك ما تريد من الصفاء والطهارة فدع ما أنت فيه من البلاء من اقتراف مساوئ لا تجدى عليك منفعة فى دينك ولا دنياك ، وتحب قرب من لا تأمن على نفسك فى مواصلة النقلة والبطالة ، واستمن على ذلك كله بالقناعة والتجزئ ، وسله أن يمن عليك بقوة طهرى لا عملى ، والسلام<sup>(٣)</sup> ) .

---

(١) اللع م ٢٤٢ .

(٢) م ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

وكتب بعض إخوان سرى السقطى إليه .

( يا أخى ، أوصيك بتقوى الله الذى يسعد بطاعته من أطاعه ، وينتقم بمعصيته ممن عصاه ، فلا تدعونك طاعته إلى الأمن من عذابه ، ولا تدعونك بمعصيته إلى الاياس من رحمته ، جملنا الله وإياكم حذرين من غير قنوط ، وله راجين من غير اغترار ، والسلام <sup>(١)</sup> ) .

٧ — وقد نظرت فرأيت للصوفية رسائل كثيرة تجرى مجرى النصيح ، وتعين مقاصد في الحياة ، وتبين إلى أى حد كانوا يهتمون بالأخلاق ، ولنبت هنا رسالة الجنيد إلى أبى بكر الكسانى ، ففيها كثير من الإشارات التى توضح كيف كانوا يتواصون بالأدب والرفق .

( أخى ، أين محلك عند تعطيل المشار ، وأين دارك وقد خربت الديار ، وأين منزلك والمنازل قاع صفصف قفار ، وأين مكانك والأماكن عواف دوارس الآثار ، وماذا خبرك عند ذهاب جوامع الأخبار ، وفيه نظرك عند اصطدام محاضر النظار ، وفيه فكرك وليس بحين نظر ولا افتكار ، وكيف هدوءك على ممر الليل والنهار ، وكيف حذرك عند وقوع فواجع الأقدار ، وكيف صبرك ولا سبيل إلى عزاء ولا اصطبار ، فأبك الآن إن وجدت سبيلا إلى البكاء ، بكاء الوالمة الحزينة الموجهة الثكلى بفقد أعزة الآلاف ، وفناء أجلة الأخلاف ، وإبادة ماضى من الاكتناف ، وذهاب مشايخ الاعتطاف ، وورود بداية الاختطاف ، وروادف عواصف الارتجاف وتتابع قواصف الانتساف ، وبواهر قواهر الاعتكاف ، وثواقب ملامح

---

(١) الجمع ص ٢٣٨ .

الاعتراف ، فإلى أين موثلك ، وإلام يبلغ مصدرك ، والأحلام متمزقة .  
والقلوب متصدعة ، والمقول منخلمة ، والأنباء كلها مرتفعة ، وأنت في أوابد  
مندمسة ، ونجوم منطمسة ، وسبل ملتبسة ، وقد أضلك في اختلاف مناهجها  
ظلماءها ، وانطبقت عليك أرضها وسماؤها . ثم أفضى بك ذلك إلى لجة  
اللجج والبحر الزاخر الغامر المختلج ، الذى كل بحر دونه أو لجة ، فهو فيه  
كتفلة أو حجة ، فقد قذف بك في كثيف أمواجه ، وتلاطم عليك  
بعظيم هوله واربجابه ، فن مستنقذك من متلفات المهلاك ، أو غررك  
مما هنالك ؟ كتابى إليك ، أبا بكر ، وأنا أحد الله حمداً كثيراً ، وأسأله  
العفو والمافية فى الدنيا والآخرة ، وصل إلى منك كتب فهمت ما ذكرت  
فيها ولم يمتنى من إجابتك عليها ما وقع فى وهمك ، وشقّ على ما ذكرت  
من غمك ، وليس حالك عندى حال معتوب عليه ، بل حالك عندى حال  
معطوف عليه ، وبحسبك من بلائك ، أن أكون سبباً للزيادة فى البلاء  
عليك ، وإنى عليك لشفق ، وإنما منمنى من مكاتبتك أنى حذرت أن يخرج  
ما فى كتابى إليك إلى غيرك بغير علمك ، وذلك أنى كتبت منذ مدة  
كتاباً إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابى وأخذت نسخته ، واستمع  
بعض ما فيه على قوم فأتعبنى تخلصهم ، ولزمنى من ذلك مؤونة عليهم ،  
وبالخلق حاجة إلى الرفق ، وليس من الرفق بالخلق ملاقاتهم بما لا يعرفون ،  
ولا مخاطبتهم بما لا يفهمون ، وربما وقع ذلك من غير قصد إليه ،  
ولا تتمد له ، جعل الله عليك واقية وجنة ، وسلمنا وإياك ، فعليك  
رحمك الله — بضبط لسانك ومعرفة أهل زمانك ، ومخاطب الناس بما يعرفون  
ودعهم مما لا يعرفون ، قلّ من جهل شيئاً إلاّ عاداه ، وإنما الناس كالإبل

المائة ليس فيها راحلة ، وقد جعل الله تعالى العلماء والحكماء رحمة من رحمته وبسطها على عباده ، فاعمل على أن تكون رحمة على غيرك إن كان الله قد جعلك بلاء على نفسك ، واخرج إلى الخلق من حالك بأحوالهم ، وخطبهم من قلبك على حسب مواضعهم ، فذلك أبلغ لك ولهم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته<sup>(١)</sup> .

وإنما نقلنا هذا الخطاب على طوله لأنه وثيقة صوفية ، والجديد يتبدى خطابه بالتذكير والتخويف ، ويشير إلى ما ينتظر المتخلفين من الهول والفرع ثم يترقى فيذكر أنه لم ينقطع عن مكاتبة رفيقه إلا خوفاً من أن يقع كتابه في يد أناس لا يفقهون ما يقول ، ويحكي أنه كتب مرة إلى أقوام من أهل أصبهان ففتح كتابه وأخذت نسخته واستمعهم بعض ما فيه على قوم فأتبعه التخلص من ملاحظتهم بالقليل والقال ، وكثرة السؤال . وفي هذه النقطة يظهر شيء من أحوال الصوفية : فقد كانوا يتكاتبون بما يشقّ فهمه على عامة الناس .

ثم ينتقل الجنيد فينصح رفيقه بهذه الكلمات :

« فعليك — رحمك الله — بضبط لسانك ، ومعرفة أهل زمانك ، وخطاب الناس بما يعرفون ، ودعهم مما لا يعرفون ، فقلّ من جهل شيئاً إلا عاداه » .

ونشهد بأن هذه هي السياسة العليا ، وهي تصلح للصوفية وغير الصوفية ولكن الصوفية إليها أحوج ، لأنهم يعيشون في أودية من المعاني لا يفتن إليها إلا القليل .

وقد رأى الجنيد أن العلماء والحكماء رحمة من رحمة الله على عباده ، ثم توجه إلى رفيقه بهذا النصح الحصيف .

« فاعمل على أن تكون رحمة الله على غيرك ، إن كان الله قد جعلك بلاء على نفسك » .

وهو بذلك يوصيه أن يجمع بين حالين : حال الرفق مع الناس ، وحال العنف مع النفس .

٨ - ولنقيد أن الوصية كانت تطلب كثيراً جداً من الصوفية ، فقد كان الناس يرونها مظنة الخير والرشد ، وينتظرون منهم كل جميل . ومن أمثلة الشغف بنصائحهم ما وقع لبشر الحافى وقد ظفر برؤية على الجرجاني على عين ماء . قال بشر : فهرب منى وقال : بذنب منى رأيت اليوم إنساناً ! فمدوت خلفه وقلت : أوصنى ، فقال : عانق الفقر ، وعاشر الصبر ، وعاد الهوى ، وعاق الشبهوات<sup>(١)</sup> .

وقد عقد الطوسي في كتاب اللمع فصلاً لوصايا الصوفية ، وهو فصل جيد تكفيتمنا منه الإشارة إلى قول أبي سعيد الخراز لبعض أصحابه :

« احفظ وصيتي ، أيها المريد ، وارغب في ثواب الله تعالى ، وهو أن ترجع إلى نفسك الخبيثة فتذيبها بالطاعة وتميتها بالخالفة ، وتذيبها بالإياس فيما سوى الله ، وتقتلها بالحياء من الله عز وجل ، ويكون الله حسبك ، وتسارع إلى جميع الخيرات ، وتعمل في جميع المقامات وقلبك وجلّ أن لا يقبل منك<sup>(٢)</sup> » .

وقول ذي النون :

« يا أخى ، اعلم أنه لا شرف أعلا من الإسلام ، ولا كرم أعز من

(٢) اللمع ص ٢٦٤ .

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٢٩ .

التقى ، ولا عقل أحرز من الورع ، ولا شفيح أنجح من التوبة ، ولا لباس أجل من المافية ، ولا وقاية أمتع من السلامة ، ولا كنز أغنى من القنوع ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقوت ، ومن اقتصر على بُلغة الكفاف فقد انتظم الراحة ، والرغبة مفتاح التمسك ، ومعلية النصب ، والحرص داع إلى التهجم في الذنوب ، والشره جامع لمساوي السيوب ، ورُب طمع كاذب ، وأمل خائب ، ورجاء يؤدي إلى الحرمان ، وأرباح تؤول إلى الخسران<sup>(١)</sup> .

---

(١) اللع من ٢٦٥ .

## وَصَيَايَا ذِي النُّونِ الْمَصْرِيِّ

حياة ذي النون — شواهد من وصاياه

١ — من الصوفية من غلب عليه هذا الفن ، وهو إسداء الوصايا والنصائح ، من هؤلاء ذو النون المصري ، وهو رجل نشأ في أخميم ، وتوفي بالجيزة سنة ٢٤٦هـ<sup>(١)</sup> ، وكان ذو النون من أهل العلم ، ولكن غلب عليه التصوف فشاعت عنه أمور دعت الناس إلى اتهامه بالزندقة ، وسمى به قوم إلى التوكل فاستحضره من مصر إلى بغداد ، فسيق مقيداً مفلولاً ، وسافر معه جماعة من أهل مصر يشهدون عليه ، فلما دخل على التوكل وعظه فبكي وردّه مكرماً ، وعاد خصومه خاشعين .

قال إسحق بن إبراهيم السرخسي : سمعت ذا النون وفي يده القل وفي رجله القيد ، وهو يساق إلى المطبق والناس سيكون حوله وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ومن عطاياه ، وكل فماله عذب حسن طيب ، ثم أنشد :

لك من قلبي المكان المصون      كل لوم عليّ فيك يهون  
لك عزم بأن أكون قتيلاً      فيك والصبر عنك مالا يكون<sup>(٢)</sup>

وكان ذو النون يهيج السماع ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع

---

(١) كذلك ذكر ياقوت في معجم البلدان عند الكلام على أخميم ، ويذكر صاحب وفيات الأعيان أنهم اختلفوا في موته فقيل سنة خمس وأربعين وقيل سنة ست وأربعين وقيل سنة ثمان وأربعين ( ج ١ ص ١٨١ ) . (٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٧٩ .



إليه الصوفية ومهم قَوَال فابْتَدَأَ ينشد .

صغير هواك عذبي فكيف به إذا احتنكا  
وأنت جمعت من قلبي هوى قد كان مشتركا  
أما ترى مكتئب إذا ضحك الخلى بكى

فقام ذو النون وسقط على وجهه والدم يقطر منه<sup>(١)</sup> :

ومن كلامه: الصوفية هم قوم آثروا الله على كل شيء فأثروا على كل شيء  
والكلام عن ذى النون كثير جداً ، ويكفى أن نحيل القارئ على ترجمته  
في الجزء الثانى من كتاب ( جامع كرامات الأولياء ) للنبهانى فقد جمع أكثر  
أخباره وكراماته ، وهو شخصية جذابة تستحق الدرس ، ولكن منهج البحث  
لا يسمح بأكثر من هذه الفقرات .

٢ - ونصائح ذى النون كثيرة جداً ، وهى فى فنون مختلفة من الأخلاق  
ونحن ذاكرون طائفة قليلة تبين مذهبه فى القول ، وطريقته فى إصلاح  
القلوب .

#### الوصية الأولى :

« ليس بذى لب من كاس<sup>(٢)</sup> فى أمر دنياه ، وحق فى أمر آخرته ،  
ولا من سغه فى مواطن حلمه ، وتكبر فى مواطن تواضعه ، ولا من فقد  
منه الهوى فى مواضع طمعه ، ولا من غضب من حق إن قيل له ، ولا من  
زهد فيما يرغب العاقل فى مثله ، ولا من رغب فيما يزهد الأكياس فى مثله ،  
ولا من استقل الكثير من خالقه عز وجل ، واستكثر قليل الشكر من نفسه

---

(١) نشر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٢٠٥ . (٢) من السكاسة وهى العقل .

ولا من طلب الإنصاف من غيره لنفسه ولم ينصف من نفسه غيره ، ولا من نسي الله في مواطن طاعته ، وذكر الله في مواطن الحاجة إليه ، ولا من جمع العلم فحرف به ثم آثر عليه هواه عند متعلمه ، ولا من قلّ منه الحياء من الله على جميل ستره ، ولا من أعفل الشكر عن إظهار نعمته ، ولا من مجز عن مجاهدة عدوه لنجاته إذا صبر عدوه على مجاهدته ، ولا من جعل مروءته لباسه ، ولم يجعل أدبه وورعه وتقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته تظرفاً وتزييناً في مجلسه .

وهذه الوصية نقلها ابن عربي في الفتوحات<sup>(١)</sup> ويظهر أنه قالها في أحد المجالس ،  
بدليل قوله :

« ثم قال : أستغفر الله ، إن الكلام كثير ، وإن لم تقطعه لم ينقطع ، ثم قال وهو يقول : لا تخرجوا من ثلاثة : النظر في دينكم بإيمانكم ، والتزود لآخرتكم من دينكم ، والاستمانة بربكم فيما أمركم به ، ونهاكم عنه . »

#### الوصية الثانية :

« من نظر في عيوب الناس عى عن عيوب نفسه ، ومن اعتنى بالفردوس والنار شغل عن القيل والقال ، ومن هرب من الناس سلم من شرهم ، ومن شكر المزيّد زيد له<sup>(٢)</sup> . »

#### الوصية الثالثة :

واحتل رجل من إخوان ذى النون فكتب إليه أن يدهم له فكتب إليه ذو النون :

« سألتني أن أدعو الله لك أن يزيل عنك النعم ، واعلم يا أخى أن العلة مجازاة  
يأنس بها أهل الصفاء والهمم والضياء . . . ومن لم يعدّ البلاء نعمة فلايس من  
الحكماء ، ومن لم يأنس الشفيق على نفسه فقد أمن أهل التهم على أمره ، فليكن  
معك يا أخى حياء يمنحك عن الشكوى . والسلام<sup>(١)</sup> » .

ومن هذه الشواهد القليلة نعرف أنجاه ذى النون فى فهم الأخلاق .  
فهو رجل يرى الخير كل الخير فى الأنس بطاعة الله ، ويرى المنم الحق فى  
صفاء القلوب .

## الشجاعة الأدبية

حب الدنيا هو أصل الجبن - شجاعة بنان الحمال - أمراء  
ينصح سليمان بن عبد الملك - شعيب بن حرب والرشيد - الفضيل  
ابن عياض - العمري - ابن السكك - صالح بن عبد الجليل -  
عمرو بن عبيد - أحزاب المعارضين وسياستهم في اختراع النصارح -  
شجاعة الأوزاعي في مواقف تحمكت فيها الأحقاد اليمانية -  
خلاصة البحث .

١ - الشجاعة من أشرف مناقب الرجال ، وهي من أظهر شمائل الصوفية ،  
وإنما كان الصوفية من الشجعان لأنهم استهانوا بالدنيا ، وزهدوا في طيبات  
العيش . وحب الدنيا والعيش أصل الجبن والخضوع ، وما أحب رجل الدنيا  
إلا ذل ، ورأى السلامة في التلق والرياء .

وكيف لا يشجع من يتخلق بأدب أبي حازم إذ يقول : إنما بيني وبين الملوك  
يوم واحد ، أما أمس فلا يجحدون لذته ، وأنا وهم من غد على وجل ، وإنما هو  
اليوم ، فاعسى أن يكون اليوم ؟ (١) .

ولولا الشجاعة ما استطاع بنان الحمال أن يُقدم على ما فعل يوم قام إلى وزير  
خُمَارَوَيْه فأنزله عن دابته ، وكان نصرانياً ، وقال : لا تركب الخيل ويلزمك  
ما هو مأخوذ عليكم في ملتكم (٢) .

ولولا الاستهانة بالعواقب ما استطاع رجل أن يقول لسليمان بن عبد الملك :  
« سأطلق لساني بما خرسست عنه الألسن ، نأدبة لحق الله تعالى ، إنه قد

(٢) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٢٢١

(١) زهر الآداب ١ ص ١٥٢

اكتشفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا دنياك بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ولم يخافوا الله فيك ، فهم حرب للآخرة ، وسلم للدنيا ، فلا تأمنهم على ما تتمنك الله عليه ، فإنهم لم يألوا الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند الله غبناً من باع آخرته بدنيا غيره<sup>(١)</sup> .

٢ - وكان الصوفية يحسبون أنفسهم مسئولين عن تذكير الملوك ، يدل على ذلك قول شعيب بن حرب :

« بينا أنا في طريق مكة إذ رأيت هرون الرشيد فقلت لنفسي : قد وجب عليك الأمر والنهي ، فقلت لي : لا تفعل ، فإن هذا رجل جبار ، ومتى أمرته ضرب عفتك ، فقلت لنفسي : لا بد من ذلك ، فلما دنا مني صحت : يا هرون ! قد أتعبت الأمة . وأتعبت البهائم ! فقال : خذوه ! فأدخلت عليه وهو على كرسي ويده عمود يلعب به ، فقال : ممن الرجل ؟ قلت : من أفناء الناس ، فقال : ممن ؟ تكلمتك أمك ! قلت : من الأبناء ، قال : فما حملك على أن تدعوني باسمي ؟ قال شعيب : فورد على قلبي كلمة ما خطررت لي قط على بال فقلت له : أنا أدعو الله باسمه فأقول : يا الله ، يارحمي ، ولا أدعوك باسمك ؟ وما تنكر من دعائي باسمك ؟ وقد رأيت الله سمى في كتابه أحب الخلق إليه محمداً ، وكفى أبغض الخلق إليه أبا لهب فقال : تبّت يدا أبي لهب ! فقال هرون أخرجوه : فأخرجوني<sup>(٢)</sup> . »

(١) زهر الآداب ج ١ ص ٢٣٣

(٢) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٣٩

وشبيب هذا صادق فيما حدث به ، وهذا الصدق يرشدنا إلى ما كان يُعرف  
عن الصوفية أحياناً من الخدقة والتكلف ، وإلا فامعنى هذه التهمة الجوفاء :  
يا هرون ! قد أنتبت الأمة وأنتبت البهائم !

وقد اتفق أن خطب المنصور فحمد الله ومضى في كلامه ، فلما انتهى إلى  
( أشهد أن لا إله إلا الله ) وثب رجل من أقصى المسجد فقال : أذكر ك من  
تذكر ! فقال المنصور : سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به ، وأعوذ بالله أن أكون  
جباراً عصياً ، وأن تأخذنى العزة بالإثم ، لقد ضللتُ إذن وما أنا من المهتدين ،  
وأنت والله أيها القائل ما أردت بها الله ، ولكن حاولت أن يقال قام فقال  
فموجب فصبر ، وأهون بقائلها لو هممت ، فاهتبلها وبلك إذا عفوت . وإياكم  
ممشر الناس وأختها ، فإن الموعدة علينا زلت ، ومن عندنا انبتت ، فردوا  
الأمر إلى أهله يُصدروه كما أوردوه (١) .

وهذا الخبر يفهمنا أنه كانت وثبات للواعظين ، وأن الخلفاء كانوا  
يعرفون ذلك ، وأنه كان من لذات بعض الناس أن يقال : قام فقال  
فموجب فصبر .

والحق أنه يمسر الاطمئنان إلى صدق الشجاعة الأدبية في جميع الأحوال  
فهي في بعض الأحيان زهو وخيلاء ، والإثم فيها أكبر من النفع ، وهي كسائر  
الفضائل عرضة للرياء ، والرياء يحرق جلائل الأعمال .

٣ - ومن المؤكد أن الصوفية لم يكونوا جميعاً مرائين فلاكثرهم ،  
مقامات جمعت بين الشجاعة والصدق ، ومن شواهد ذلك ما صنع الفضيل

ابن عياض مع الرشيد ، فقد ذهب الرشيد لزيارته ليلاً مع الفضل بن الربيع فلما وصلا إلى بابه سمعاه يقرأ ( أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم . ساء ما يحكمون ) فقال الرشيد للفضل : إن انتقمنا بشيء فهذا . فتداه الفضل : أجب أمير المؤمنين . فقال وما يعمل عندي أمير المؤمنين ؟ قال الفضل فقلت : سبحان الله ! أما له عليك طاعة ؟ فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت . فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا ، فسبقت كف أمير المؤمنين قبلي إليه . فقال : يا لها من كف ما أليها إن نجت غداً من عذاب الله عز وجل ! فقلت في نفسي ليكلمنَّه الليلة بكلام من قلب نقي . فقال له : خذ فيما جئناك له رحمك الله ! فقال له : إن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ ، فعدّ الخلافة بلاءً ، وعددتها أنت وأصحابك نعمة . فقال له سالم بن عبد الله : إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن فطرك منها الموت . وقال له محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً ، وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ابناً ، فوقر أباك ، وأكرم أخاك ، وتمنحني على ولدك . وقال له رجاء بن حيوة : إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت وإني أقول لك يا هرون : إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام ، فهل ممك رحمك الله من يشير بمثل هذا ؟ فسكى هرون بكاءً شديداً حتى غشي عليه .

قال الفضل فقلت : ارفق بأمر المؤمنين ! فقال : تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا ؟ .

ثم أفاق . فقال له : زدني رحمك الله . فقال له : يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكاً إليه ، فكتب إليه : يا أخى أذكرك بسهر أهل النار فى النار ، مع خلود الأبد . وإياك أن يُنصَرَف بك من عند الله عز وجل فيكون آخر المهمل وانقطاع الرجاء . فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل .

قال : فسكى هرون بكاء شديداً ثم قال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن العباس عم المصطفى صلى الله عليه وسلم جاء إلى النبي فقال : يا رسول الله ، أمرني على إمارة ، فقال له : يا عم ، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل .

فسكى هرون بكاء شديداً ، وقال له : زدني رحمك الله ، فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذى يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة ، فإن استطعت أن تقى هذا الوجه فافعل ، وإياك أن تصبح أو تمسى وفى قلبك غش لأحد من رعيتك .

فسكى هرون وقال له : هل عليك دين ؟ فقال : نعم ، دين لربى لم يحاسبني عليه ، فالويل لى إن سألتى والويل لى إن ناقشنى ، والويل لى إن لم ألهم حجتي : قال الرشيد : إنما أعنى دين العباد . فقال الفضيل : إن ربى لم يأمرنى بهذا ، وقد قال عز وجل : إن الله هو الرزاق : فقال له الرشيد : هذه ألف



دينار خذها وأنفقها على عيالك ، وقمّ بها على عبادتك ، فقال : سبحان الله !  
أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا<sup>(١)</sup> ؟

ومن طريف المواقف ما حدّث به سعيد بن سليمان قال :

كنت بمكة وإلى جاني عبد الله بن عبد العزيز العمري وقد حج هرون الرشيد .  
قال له إنسان : يا أبا عبد الله ! هو ذا أمير المؤمنين يسمي ، وقد أُخْلِى له السعي ،  
قال العمري للرجل : لا جزاك الله عنى خيراً ، كلفتني أمراً كنت عنه غنيا . ثم قام  
فتبعه ، فأقبل هرون الرشيد من المروة يريد الصفا ، فصاح به : يا هرون ! فلما  
نظر إليه قال : لبيك يا عمري ! قال : أرق الصفا ، فلما رقاها قال : ارم بطرفك  
إلى البيت ، قال هرون : قد فعلت . قال : كم هم ؟ قال : ومن يحصيه ؟ قال فكم  
في الناس مثلهم ؟ قال : خلق لا يحصيه إلا الله ! قال : اعلم أيها الرجل أن كل  
واحد منهم يُسأل عن خاصة نفسه ، وأنت وحدك تُسأل عنهم كلهم ، فنظر  
كيف تكون ! — فبكى هرون — فقال العمري : وأخرى أقولها . قال : قل  
يا عم ! قال والله إن الرجل ليسرف في ماله فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن  
أسرف في مال المسلمين !

قال البغوي : فبلغني أن هرون الرشيد كان يقول : إني لأحب أن أحج كل  
سنة ما يعنني إلا رجل من ولد عمر يسمعي ما أكره<sup>(٢)</sup> .

---

(١) انظر الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٧٤ ولهذا الحديث بقية تصور العتاب بين الفضيل  
وبين زوجته ، فقد ساءها أن يرفض المال ، فقال لها : مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بغير  
ياكلون من كسبه فلما كبر نحره وأكلوا لحمه .  
وقد ورد هذا المقام في الكشكول ص ٢٣٥ بصورة تختلف عن هذه الصورة  
بعض الاختلاف .

(٢) الفتوحات المكية ج ٤ ص ٦٩٣ .

وقريب من هذا المقام في الخشونة والصدق ما كان بين أبي حازم وسليمان بن عبد الملك ، فقد حجَّ سليمان وبعث إلى أبي حازم حين قدم المدينة للزيارة ، فلما دخل قال : تكلم ، يا أبا حازم ، قال : فيم أنكلم ، يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : بسيرٌ ، إن فعلته ! قال : وما ذاك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حلها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما فلك ! قال : عظمى يا أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك ، بمنزل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم ، أشر على ، قال : إنما أنت سوق ، فما نفقَ عندك حمل إليك من خير أو شر ، فاختر أيهما شئت ! قال : ما لك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإتيانك ، يا أمير المؤمنين ، إن أدنيتني فمتنتي ، وإن أقصيتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي ما أخافك عليه ! قال : فارفع إلينا حاجتك . قال : قد رفعتها إلى من هو أقدر منك عليها ، فما أعطاني منها قبلت ، وما منعتني منها رضىت<sup>(١)</sup> .

وكان في الزهاد من يُغرب في الوعظ حتى يصل إلى الإسفاف في الصورة واللفظ ، فقد قال الرشيد لابن السماك : عظمى — وأنى بماء ليشره — فقال : يا أمير المؤمنين ! لو حبستُ عنك هذه الشرية ، أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك ؟ قال : نعم ! قال : فما خير في ملك لا يساوى شرية ولا بولة<sup>(١)</sup> .

(١) العقد الفريد ج ١ ص ٣٠٦ .

وهذه الفلطة أعقبت بكلمات أطيّب من السك ، فقد قال الرشيد : يا ابن الدماك ، ما أحسن ما بلفنى عنك ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لى عيوباً لو أطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لى فى قلب واحد مودة ، وإنى لخائف فى الكلام الفتنة ، وفى السر الفرة ، وإنى لخائف على نفسى من قلة خوفى عليها<sup>(١)</sup> .

٤ - والواقع أن مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك تدل على أمرين : الأول شجاعة أولئك الزهاد ، وقدرتهم على الجهر بكلمة الحق ، والثانى صلاحية بعض الخلفاء والملوك لاستماع نصيح الناصحين من أهل البر والتقوى ، وإقبالهم على من ينهام عن النكر ويأمرهم بالمعروف ، يدل على ذلك قول صالح بن عبد الجليل بين يدى المهدي :

« إنه لما سهل علينا ما توعدّ على غيرنا من الوصول إليك ، قنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإظهار ما فى أعناقنا من فريضة الأمر والنهى عند انقطاع عذر الكتاب ، ولا سيما حين اتسمت بعيسم التواضع ، ووعدت الله وحملته كتابه إثبات الحق على ما سواه ، فجمعنا وإياك مشهد من مشاهد التحصيل ليتم مؤدبنا على موعود الأداء ، وقابلنا على موعود القبول ، أو يزيدنا تحصيل الله إياها فى اختلاف السر والملاية ويحلبنا حليّة الكذابين ، فقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : من حجب الله عنه العلم عذبه على الجهل ، وأشد منه عذاباً من أقبل إليه العلم وأدير عنه . ومن أهدى الله إليه علماً فلم يعمل به فقد رغب عن هدية

الله وقصر بها ، فأقبل ما أهدى الله إليك من ألسنتنا قبول تحقيق وعمل لا قبول سمعة ورياء ، فإنه لا يعدمك منا إعلام لما تجهل ، أو مواظاة على ما تعلم ، أو تذكير من غفلة . . . أطلع الله على قلبك ما ينوره من إنبات الحق ومنايذة الأهواء<sup>(١)</sup> .

وكلام صالح هذا فيه تصريح بأن الزهاد كان يسهل عليهم ما يتوعد على غيرهم من الوصول إلى الخلفاء ، وفيه كذلك تصريح بأن من المواظ على ما كان يقبله الخلفاء قبول سمعة ورياء ، ومعنى هذا أن تقريب الزهاد كان من السياسة قبل أن يكون من الدين ، أو هو مزاج من السياسة والدين ، وهذا الملحظ قد يحط من شجاعة الزهاد وإخلاص الخلفاء ، ولكن لا ريب في أن هذه المظاهر فيها خير مدوس ، والزهاد لا يصلون إلى هذه المواطن إلا بعد أن يكونوا استطاعوا تثبيت سلطتهم الروحية ، والخلفاء لا يستقدمون الزهاد ليسمعوا مواظهم إلا وفي قلوبهم شيء من عناصر الرشد وأصول الاهتداء .

٥ - غير أن هذه الوصولية السياسية لم تطرد في جميع المقامات ، فقد كان المنصور يعرف عمرو بن عبيد قبل أن يتولى الخلافة ، وكان يعتقد أنه على جانب عظيم من الصدق والإخلاص ، فكان يستقدمه لينتفع برأيه ، وإن كان ذلك لا يمنع أنه كان يسراً بأن يقال : إنه انتفع بمواظ عمرو بن عبيد ، والضمائر لا يعرفها إلا علام الغيوب .

ولنسق حديث ابن عبيد مع المنصور ، فهو نموذج في الأدب وفي الأخلاق :

---

(١) انظر المقدم الفريد ج ١ ص ٣٠٤ وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٢٣ وقد مددنا الجمله  
لأخيرة بعض التعديل

حدّث إسحق بن الفضل الهاشمي قال : إني لملي باب النصور يوماً  
وإلى جنبي عمارة بن حمزة إذ طلع عمرو بن عبيد على حمار ، فنزل عن حماره  
ثم دفع البساط برجله وجلس دونه ، فالتفت إلى عمارة وقال : لا تزال  
بصرتكم ترمينا منها بأحق ! فافصل كلامه من فيه حتى خرج الربيع وهو  
يقول : أبو عثمان عمرو بن عبيد ، قال : فوالله ما دل على نفسه حتى أرشد إليه ،  
فأتكأه يده ثم قال له : أجب أمير المؤمنين ، جعلت فداك ! فر متكئاً  
عليه ، فالتفت إلى عمارة فقلت له : إن الرجل الذي استحمقته قد أدخل  
وتركنا ، فقال : كثيراً ما يكون ذلك ، فأطال اللبث ، ثم خرج الربيع وهو  
متوكئ عليه والربيع يقول : يا غلام ، حمار أبي عثمان ، فإبرح حتى أتى  
بالحمار ، فأفره على سرجه ، وضمّ إليه نشر ثوبه ، واستودعه الله . فأقبل عمارة  
على الربيع فقال : لقد فعلتم اليوم بهذا الرجل ما لو فعلتموه بوليّ عهدكم  
لقضيتم ذمامه ! قال : فما غاب عنك مما فعل به أكثر وأعجب ! قال عمارة :  
فإن اتسع لك الحديث فخذنا ، فقال الربيع : ما هو إلا أن سمع الخليفة  
بمكانه فما أهل حتى أمر بمجلس ففرش لبوداً ، ثم انتقل إليه والمهدى معه عليه  
سواده وسيفه ، ثم أذن له . فلما دخل عليه سلم بالخلافة فردّ عليه ، وما زال  
يدنيه حتى أنكأه نخذه وتحفى به ، ثم سأله عن نفسه وعن عياله يسميهم  
رجلاً رجلاً وامرأة امرأة ، ثم قال : يا أبا عثمان ، عظنا . فقال : أعوذ بالله  
السميع العليم من الشيطان الرجيم ( والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر ،  
والليل إذا يسر ) وصرفها إلى آخرها وقال : إن ربك يا أبا جعفر لبالمرصاد .  
قال : فبكى النصور بكاء شديداً كأنه لم يسمع تلك الآيات إلا تلك الساعة

ثم قال : زدنى . فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها ، واعلم أن هذا الأمر الذى صار إليك إنما كان فى يد من كان قبلك ثم أفضى إليك ، وكذلك يخرج منك إلى من هو بمدك ، وإنى أحذرك ليلة تمخض صبيحتها عن يوم القيامة . قال : فبكى أشد من بكائه الأول حتى رجف جنباه . وفى رواية أخرى أنه لما انتهى إلى آخر السورة قال : يا أمير المؤمنين ، إن ربك لبالمرصاد لمن عمل مثل عملهم أن ينزل به مثل ما نزل بهم ، فاتق الله فإن من وراء بابك نيراناً تأجج من الجور ، ما يعمل فيها بكتاب الله ، ولا بسنة رسوله ، فقال : يا أبا عثمان ، إنا لنكتب إليهم فى الطوامير نأمرهم بالعمل بالكتاب ، فإن لم يفعلوا فما عسى أن أصنع ؟ فقال له : مثل أذن الفأرة يجزيك من الطوامير ، الله ، أنكتب إليهم فى حاجة نفسك فينفذونها وتكتب إليهم فى حاجة الله فلا ينفذونها ، والله لو لم رضى من عمالك إلا رضا الله إذن اتقرب إليك من لانية له فيه .

وكان فى المجلس سليمان بن مجالد فقال : رفقاً بأمر المؤمنين فقد أتمبته منذ اليوم :

فقال له عمرو بن عبيد . بمثلك ضاع الأمر وانتشر ، لا أباك ، وماذا على أمير المؤمنين أن يبنى من خشية الله !

وفى رواية أخرى أن سليمان بن مجالد لما قال له ذلك رفع عمرو رأسه فقال له : من أنت ؟ فقال أبو جعفر : أولاً تعرفه ، يا أبا عثمان ؟ قال : لا ، ولا أبالى أن لا أعرفه ! فقال له : هذا أخوك سليمان بن مجالد . فقال : هذا أخو الشيطان ! ويلك ، يا ابن مجالد ، خزنت نصيحتك عن أمير المؤمنين ،

ثم أردت أن تحول بينه وبين من أراد نصيحته . يا أمير المؤمنين ، إن هؤلاء اتخذوك سداً لشهواتهم ، فأنت كالآخذ بالقرنين وغيرك يحلب ! فائق الله فإنك ميت وحدك ، ومحاسب وحدك ، ومبعوث وحدك ، ولن يغني عنك هؤلاء من ربك شيئاً .

فقال له المنصور : يا أبا عثمان ، أعنى بأصحابك أستغن بهم . فقال له : أظهر الحق بتمك أهله .

ثم قال المنصور : بلغنى أن محمد بن عبد الله بن الحسن كتب إليك كتاباً . فقال : قد جاءني كتاب يشبه أن يكون كتابه . قال : فهاذا أجبتك ؟ قال : أولست قد عرفت رأيي في السيف أيام كنت تختلف إلينا وأنى لا أراه ؟ قال : أجل . ولكن تحلف ليطمئن قلبي . قال : لنن كذبتك تقيّة لأحلفنّ لك تقيّة ! فقال المنصور : أنت الصادق البارّ ، وقد أمرت لك بمشرة آلاف درهم تستعين بها على زمانك . فقال : لا حاجة لي فيها ، فقال المنصور : والله لتأخذنها ، فقال عمرو : والله لا آخذنها ، فقال له المهدي : يحلف أمير المؤمنين وتحلف ؟ فأقبل عمرو على المنصور وقال : من هذا الفتى ؟ فقال : هذا ابني محمد ، وهو المهدي ولي المهد ، فقال : والله لقد سميتك اسماً ما يستحقه بعمل وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار . ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون أشغل ما تكون عنه .

ثم قال المنصور : يا أبا عثمان ، هل من حاجة ؟ قال : نعم ، يرفع هذا الطيلسان عني — وكان المنصور طرح عليه طيلساناً حين دخل عليه .

ثم قال له المنصور : لا تدع إتياننا ، يا أبا عثمان .

فقال : نعم ، لا يضمنى وإياك بلد إلا دخلت إليك ، ولا بدت لى حاجة  
إلا سألتك ، ولكن لا تعطنى حتى أسألك ، ولا تدعنى حتى آتيك !

فقال المنصور : إذن لا تأتينا أبداً !

ثم ودّع المنصور ونهض ، فلما ولّى أتبعه بصره وأنشأ يقول .

كلكم طالب صيد كلكم يمشى رُوَيْد

غير عمرو بن عبيد

ونحن مطمئنون إلى صدق ابن عُبَيْد في النصيح وصدق المنصور  
في الاستماع ، وللملوك لحظات ينسون فيها الوصولية السياسية وينصتون إلى صوت  
الوجدان (١) .

٦ - والظاهر أن المنصور كان من الشخصيات المعروفة بالتسامح ، فقد رأينا  
أنفاً كيف يقف رجل فيذكّر بالله وهو يخطب ، وقد ذكر ابن قتيبة أنه سمع وهو  
يطوف ليلاً قائلاً يقول :

« اللهم إني أشكو إليك ظهور البنى والفساد في الأرض وما يحول بين  
الحق وأهله من الطمع » .

فخرج المنصور فجلس ناحية من المسجد وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى  
الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة فقال له  
المنصور : ما الذى سمعتك تذكر من ظهور البنى والفساد في الأرض وما يحول  
بين الحق وأهله من الطمع ، فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى (٢)

(١) ورد حديث عمرو بن عبيد مع المنصور بصيغ مختلفة في زهر الآداب ج ١ ص ٩٤  
وعيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٧ وأمالى المرتضى ج ١ ص ١٢٠ - ٢٢٢ ووفيات الأعيان  
ج ٢ ص ١٠١ والعقد الفريد ج ١ ص ٣٠٧ (٢) أرمضه : أوجمه وآله



فقال الرجل : يا أمير المؤمنين ، إن أمتقني على نفسي أنبأك بالأمر من أسولها وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي ففيها لى شاغل ، فقال المنصور : أنت آمن قتل ، فقال : إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البنى والفساد لأنت ! .

فقال المنصور : ويحك ! وكيف يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى ؟ .

فقال الرجل : وهل دخل أحداً من الطمع ما دخلك ؟ إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجملت بينك وبينهم حجاباً من الحصن والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ، ثم سجت نفسك فيها عنهم ، وبشت عمالك فى جباية الأموال وجمعها وقويتهم بالرجال ، والسلاح والكراع ، وأمرت بأن لا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، نفر سميتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم ، ولا الملهوف ولا الجائع المارى ، ولا الضعيف الفقير ، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق ، فلما رآك هؤلاء نفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت أن لا يحجبوا عنك ، تجمي<sup>(١)</sup> الأموال وتجممها ولا تقسمها ، قالوا : هذا قد خان الله ، فما بالناس لا نخونه ، وقد سجن لنا نفسه ؟ فائتمروا بأن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شئ إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعظمهم

---

(١) جملة ( تجمي الأموال ) معمول ( رآك هؤلاء ) .

الناس وها بوم فكان أول من صانهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك . ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك ليقالوا به ظلم من دونهم فامتلاّت بلاد الله بالطمع بغير فساد ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل . فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، وإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطاقتك خبره سألوها صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن المتظلم منه له بهم حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم ، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ويشكو ويستفتي وهو يدفعه ويمتلئ عليه ، فإذا أُجهد وأُخرج وظهرت صرخ بين يديك فضرِب ضرباً مبرحاً ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر فلا تنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ! وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسممه ، فبكي يوماً بكاء شديداً ، فحمله جلساؤه على الصبر فقال : أما إنني لست أبكي للبليّة النازلة بي ، ولكنني أبكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا أسمع صوته ، ثم قال : أما إذ ذهب سمّي فإن بصرى لم يذهب ، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلّا متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر : هل يرى مظلوماً ؟ فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالشركين شح نفسه ، وأنت مؤمن بالله ثم من أهل بيت النبي ولا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ! فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك عبداً في الطفل يسقط من بطن أمه ، وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله يلطف بذلك

الطفل حتى تعظم رغبة الناس إليه . ولست بالذى تعطى ، بل الله يعطى من يشاء ما يشاء . وإن قلت إنما أجمعُ المال لتشديد السلطان فقد أراك الله عبراً في بني أمية : ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة ، وأعدّوا من الرجال والسلاح والكراع ، حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلت إنما أجمع المال لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تُدرَك إلا بخلاف ما أنت عليه . يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل ؟ قال المنصور : لا . قال : فكيف تصنع بالملك الذى خوّلك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن بالخلود في العذاب الأليم ، قد رأى ما قد عُقد عليه قلبك ، وعملته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت إليه رجلاك ، هل يغنى عنك ما شححت عليه من الدنيا إذا انتزعه من يدك ، ودعاك إلى الحساب ؟ فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون إليهم في دينهم ويرضون بهم ، فاجملهم بطاقتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك ، قال : قد بعثت إليهم فهربوا منى ، قال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ، ولكن افتح بابك ، وسهل حجابك ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ النية والصدقات مما حل وطاب ، واقسمه بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ويسعدوك على صلاح الأمة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه فصل وعاد إلى مجلسه وطلب الرجل فلم يوجد<sup>(١)</sup>

---

(١) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٣٣ - ٣٣٦ والمقد الفريد ج ١ ص ٣٦٥

٧ - ولكن أكان المنصور حقاً متسامحاً حتى يستمع مثل هذا الحساب ؟ أنا أستبعد أن يكون هذا الحديث صحيحاً ، وأرجح أنه وضع لغاية من غايات المعارضين ، ودليل هذا الترجيح أن القائل مجهول : فهو أحد الزهاد ، وأنه حُفِظ بلغة قوية لا يُعقل أن تُسمع فتُحفظ ، ولو كان حواراً طارئاً طُلِبَ صاحبه فلم يوجد لما أمكن أن تحفظ منه هذه الصورة القوية .

والمقول أن يكون هذا الحديث من وضع رجل نائر كان يكره بنى أمية وبنى العباس ، فإن التعمق في وصف حجاب المنصور وما كان يقع لعهده من إغفال المظالم ومن سيطرة الوزراء لا يتفق إلا لرجل نائر على تقاليد ذلك العهد . والثورة على الاستبداد بالملك وتصريف أمور الناس كانت كثيرة الوقوع في تلك الأيام ، وكانت التورية عن فساد النظام مما يطيب للكتاب والشعراء . وقد كثر القول بأن ابن المقفع لم يترجم كلية ودمنة إلا ليحارب به ما كان يراه من ظلم الخلفاء ، فليس من المستبعد أن توضع الأحاديث على ألسنة الزهاد ليكون في أذاعتها تنديد بالسياسة الظالمة التي يرتكبها خلفاء بنى العباس في بعض الأحيان .

ولتذكر أن شخصية « الوزير » ملحوظة في هذا الحديث ، والوزير كان في تلك المهود نموذجاً من نماذج الفطوسة والعنف والإجحاف ، وكان لا بد أن يحاربه الناس بسوء القالة إن عجزوا عن محاربته بالسلاح .

ومنتهى هذا الحديث جعل بطله من الزهاد ، وهذا يدلنا على أن الصوفية في تلك الأيام كانت لهم سلطة روحية وخلقية ، وكان من المعروف عنهم أن يجهروا بكلمة الحق ، وأن لا يبالوا غضب الخلفاء والوزراء ، فاختيار

بطل الحديث من الصوفية هو الشاهد على ما كان يعرف عنهم من الشجاعة الأدبية .

ولسنا نعرف بالضبط من أى حزب كان منشئ هذا الحديث ، والظاهر أنه كان يميل إلى الصوفية ، فقد قال له المنصور : كيف أحتال لنفسي ؟ فأجاب : إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ، فاجملهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك .

ولم يكتف بهذا في تمجيد أصحابه من أهل الزهد ، بل ادّعى أن المنصور قال : قد بعثت إليهم فهربوا مني ، وهو بذلك يجعلهم أصلح الناس لولاية الأمر وأخوفهم من الاتصال بأهل الدنيا وأقدرهم على احتقار المناصب البراقة : مناصب الوزراء .

وجملة القول أن هذا الحديث يشهد بأن أحزاب المعارضين كانت تتستر باسم الزهاد والصوفية ، ومعنى ذلك أن الزهاد والصوفية كانوا معروفين بالجرأة والشجاعة في الدفاع عن الحق ، وكان ما ينشر باسمهم خليفاً بأن يتلقاه كبار الناس بالقبول . وبعض ذلك كاف للاقتناع بأنهم كانوا قوة خلقية في ذلك الحين .

٨ - ويمائل هذا المقام مقام الأوزاعي بين يدي المنصور ، ذكره عبد الله بن المبارك عن رجل من أهل الشام قال : دخلت عليه فقال : ما الذي أبطأ بك عني ؟ قلت : يا أمير المؤمنين ، وما الذي تريد مني ؟ فقال : الاقتباس منك . قلت انظر ما تقول فإن مكحولاً حدثني عن عطية بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من بلغه عن الله نصيحة في دينه فهي رحمة

من الله سيقت إليه ، فإن قبلها من الله بشكر وإلا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد إثماً ويزداد الله عليه غضباً ، وإن بلغه شيء من الحق فرضى فله الرضا ، وإن سخط فله السخط ، ومن كرهه فقد كره الله ، لأن الله هو الحق المبين « فلا تجهلن . قال : وكيف أجهل ؟ قال : تسمع ولا تعمل بما تسمع !

قال الأوزاعي : فسلّ عليّ الربيع السيف وقال : تقول لأمر المؤمنين هذا ؟ فاتهره المنصور وقال : أمسك . ثم كله الأوزاعي وكان في كلامه أن قال : إنك قد أصبحت من هذه الخلافة بالذي أصبحت به ، والله سائلك عن صغيرها وكبيرها وفتيلها وقيرها ، ولقد حدثني عروة بن رويم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ما من راع بيت غاشا لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة » تحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظراً ، ولما استطاع من عوراتهم ساتراً ، وبالقسط فيما بينهم قائماً ، لا يتخوف محسنهم منه رهقاً ، ولا مسيئهم عدواناً ، فقد كانت بيد رسول الله جريدة يستاك بها ويردع عنه المناققين فأتاه جبريل فقال : « يا محمد ، ما هذا الجريدة بيدك ؟ اقدفها لا تملأ قلوبهم رعباً » فكيف من سفك دماءهم ، وشقق أبشارهم ، وأنهب أموالهم ! يأمر المؤمنين ! إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرايياً لم يتممه فهبط جبريل فقال : يا محمد ، إن الله لم ييمثك جباراً تكسر قرون أمتك . . . إن الدنيا تنقطع ويزول نعيمها ، ولو بقي الملك لمن قبلك لم يصل إليك يأمر المؤمنين ، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار علّق بين السماء والأرض لآذام ، فكيف من يتممه !

ولو أن ذنوباً<sup>(١)</sup> من صديد أهل النار صبّ على ماء لآجنه<sup>(٢)</sup> . فكيف بمن يتجرعه ، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب ، فكيف من سلك فيها وردّ فضلها على عاتقه !

واعلم أن السلطان أربعة : أمير يظلف نفسه وعماله ، فذلك له أجر المجاهد في سبيل الله ، وصلاته سبعون ألف صلاة ، ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله ، فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله وأمير يظلف نفسه<sup>(٣)</sup> ويرتع عماله ، فذلك الذي باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذلك شر الأكياس<sup>(٤)</sup> .

ولهذا الحديث بقية ، وما سلف منه يبين مسلك الأوزاعي في التصح ، وجراته في مصارحة الخلفاء . والشجاعة من أخص صفات الزاهدين والصالحين .

وللأوزاعي موقف مع عبد الله بن عليّ يمدّ من أخطر المواقف ، لأنه يمسّ الأحقاد السياسة ، واللياسة أحقاد سود تذهب بالحلم والعقل ، وكان ذلك الموقف بعد أن أجلى عبد الله بن أمية عن الشام وأزال الله دولتهم على يديه ، فقد طلب الأوزاعي ليسأله رأيه فيما صنع ببني أمية ، وكان ينتظر بالطبع أن يظفر منه بكلمات من الثناء بفعلها حدة من ينكرون عليه الإصراف في النهب والقتل ، ولكنه فوجيء بما لم يكن في الحسبان ، وأراه

---

(١) الذنوب ، بالفتح ، الدلو التي دون الملء . (٢) آجنه : غير طعمه ولونه .  
(٣) يظلف نفسه : يكتفها .  
(٤) عيون الأخبار ج ٣ ص ٣٣٩ .

الأوزاعي أن في الدنيا ناساً يجهرون بكلمة الحق في أخرج المواقف والمقامات .

قال الأوزاعي : فدخلت عليه وهو على سرير ، والمسودة عن يمينه وشماله معهم السيوف معلقة ، فسلمت عليه فلم يرد ، ونكت بتلك الخيزرانة التي بيده ثم قال : يا أوزاعي ، ما ترى فيما صنعنا من إزالة أيدى أولئك الظلة عن البلاد والعباد ، أجهاد هو ؟ قال : قلت : أيها الأمير ، سمعت يحيى بن سعيد الأنصاري يقول : سمعت عمر بن الخطاب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » قال : فنكت بالخيزرانة أشد ما كان يفكت ، وجعل من حوله يقبضون أيديهم على قبضات سيوفهم ، ثم قال : يا أوزاعي : ما تقول في دماء بنى أمية ؟ قلت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب والزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » قال : فنكت بها أشد من ذلك ، ثم قال : ما تقول في أموالهم ؟ قلت : إن كانت في أيديهم حراماً فهي حرام عليك أيضاً ، وإن كانت لهم حلالاً فلا تحمل لك إلا بطريق شرعى ، قال : فنكت أشد مما كان ينكت قبل ذلك ، ثم قال : ألا نوليكَ القضاء ؟ قلت : إن أسلافك لم يكونوا يشقون على في ذلك ، وإنى أحب أن تم ما ابتدأوني به من الإحسان ، فقال : كأنك تحب الانصراف ، قلت : إن ورأى حرماً وهم محتاجون إلى القيام عليهن وسترهن



وقلوبهن مشغولة بسببي ، قال : وانتظرت رأسي يسقط بين يدي ، فأمرني بالانصراف فلما خرجت إذا رسول من ورأى ، وإذا معه مائتا دينار فقال : يقول لك الأمير : استنفق بهذه ، قال : فتصدقت بها ، وإنما أخذتها خوفاً<sup>(١)</sup> .

٩ - وهذا المقام يدل على أمرين : الأول أن الأمراء والملوك كانوا منذ ذلك الزمان يشعرون بقوة أهل العلم والزهّد والصّلاح ، وكانوا يحبّون أن يستظهروا بهم ، وكانوا كذلك يعرفون عنهم اللّين في أغلب الأحيان ، ولولا ذلك لقلّب الرغبة في استدعاء مثل الأوزاعي في مثل ذلك الموقف .

والثاني أن الزهاد كانوا استطاعوا أن يخلقوا لهم عصية بحسب حسابها في الأزمات السياسية ، يؤيد هذا ما روى أن بعض الولاة هدد الأوزاعي مرة فقال له أصحابه : دعه فوالله لو أمر أهل الشام أن يقتلوك لقتلوك<sup>(٢)</sup> .

وطمعتُ الولاة والأمراء في لّين أهل التصوف لا ينقض ما عُرفوا به من الشجاعة الأدبية ، فنحن لا نقول بأن تلك الشجاعة كانت من نصيب كل من تصوف ، وإنما نجزم بأنها كانت من أخلاق كل من صدق في التصوف ، والعصية التي كانت تحميمهم لا يمكن أن تفض من شجاعتهم الأدبية ، لأنها في الأكثر عصية عزلاء ، ولأنها على كل حال من مغانم الأخلاقية ، لأنهم اكتسبوها بفضل الصّلاح والتقوى ، وهو مكسب تُبذل في سبيله أثمان غالية يعرفها من يمانون رياضة النفس على التّجمل بالآداب الدّينية .

(١) حسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص ٧٩ - ٨٢ .

(٢) حسن المساعي في مناقب الأوزاعي ص ٨٩ .

١٠ - وكان يتفق في أحيان كثيرة أن تقابل تلك الشجاعة باللفظ ، ومن طريف ذلك أن ابن هبيرة كتب إلى الحسن وابن سيرين والشمي فقدم بهم عليه ، فقال لهم : إن أمير المؤمنين يكتب إليّ في الأمر إن فعلته خفتُ على ديني ، وإن لم أفعله خفت على نفسي ، فقال له ابن سيرين والشمي قولاً رقيقاً فيه ، وقال له الحسن : يا ابن هبيرة ! إن الله يمنك من يزيد ، وإن يزيد لا يمنك من الله . يا ابن هبيرة ! خف الله في يزيد ، ولا تخف يزيد في الله ! يا ابن هبيرة ! إنه يوشك أن يبعث الله إليك ملكاً فينزلك عن سررك إلى سعة قصرك ، ثم يخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك إلا عملك . يا ابن هبيرة ، إنه لا طاعة للمخلوق في معصية الخالق<sup>(١)</sup> .

والطريف في هذا الموقف أن ابن هبيرة أمر للحسن بأربعة آلاف درهم وأمر لابن سيرين والشمي بألفين ، فقالا : رفقنا فرقق لنا !

١١ - وهناك مواقف لأبي حازم مع سليمان بن عبد الملك وابن السكّ مع الرشيد . والمقام يضيق عن الاستقصاء ، ولو مضينا نستقرئ أخبار الصوفية في مختلف العصور رأينا لهم كثيراً من أمثال هذه المواقف ، والناس في مصر وفي تركيا خاصة يذكرون حوادث جرت لأهل الورع والدين مع الولاة والسلطين ، ومناقب الصوفية تفيض بأمثال هذه الأخبار ، وأكثرها صدق ، والمحترع منها له دلالة خلقية ، فهو شاهد بأن الناس كانوا يشهدون للصوفية بالشهامة والجهر بكلمة الحق .

---

(١) ميوّن الأخبار ج ٣٢ ص ٣٤ .

وقد رأينا أن تلك المواقف عادت بفوائد كثيرة على الأدب والأخلاق فهي  
من حيث الصورة نماذج أدبية ، وهي من حيث المعنى لا تزال توحى بالحرص  
على التخلق بأخلاق الرجال<sup>(١)</sup> .

---

(١) في مسامرة الأبرار لابن عربي أنباء نفيسة من هذا النوع .

## الدُّنْيَا فِي أَزْهَارِ الصُّوفِيَّةِ

ذم الصوفية للدنيا شاهد على تملقهم بها - هل الدنيا قبيحة في  
جميع الأحوال ؟ - حقائق الجمال في هذا الوجود - الدنيا في كلام  
الأنبياء <sup>ع</sup> شخصية المسيح - <sup>+</sup>دفاع المؤلف عن الصوفية - ذم الدنيا  
وأثره في الأخلاق وفي الأدب - مشكلة خلفية - الحمود والمذموم  
في الشئون الدنيوية - النفس كالشجرة التي تحيا بالحرية في مكافئة الهواء .

١ - زارت رابعة أصحابها فذكروا الدنيا فأقبلوا على ذمها فقالت :  
استكنوا عن ذكرها . فلو لا موقعها من قلوبكم ما أكثرتم من ذكرها ألا من  
أحب شيئاً أكثر من ذكره <sup>(١)</sup> .

وإني لأخشى أن تكون هذه النظرة مما يصدق في أكثر الصوفية : فهم  
جميعاً يذمون الدنيا ، ويخافون شرها ، ويكثرون من تقبيحها والتنفير منها ،  
ويندرو أن يكتب في التصوف كتاب ولا تكون الدنيا شغل المؤلف وهمه  
في أكثر الفصول . والواقع أن الدنيا شغلت الصوفية فلم تخل منها قلوبهم  
طرفة عين ، ولو خلت منها قلوبهم لما طوقوها بقلائد الهجاء ، وإنما مثلها في  
أنفسهم مثل المرأة المطلقة التي يحزن إليها زوجها ويتمنى لو عادت لياليها  
الملاح ، وكيف يخلص الناس من فتنة دنياهم وهم مقيدون بما فيها من هواء  
وماء ؟ إن الذفحة السماوية التي يتشوفون إليها لم تكن إلا لفنة فنية ، والتطلع  
إلى السماء إنما هو كبر إنساني شريف ، ولكنه على ما فيه من شرف لا يخلو

من تهور واعتساف ، فالإنسان من الأرض خلق وإلى الأرض يعود ، والنفس على ما فيها من رقة وصفاء قيدتها الإرادة الأزلية بأسباب الميش ، وفرضت عليها الخضوع لسلطان الأمعاء ، فليصنع الصوفية ما يشاءون فسيظل ابن آدم منسوباً إلى الطين والماء .

٢ - وإسراف الصوفية في ذم الدنيا لا يخلو من غفلة وجهل ، فللدنيا فتنة روحية ، وفي الكفاح في مناكبها سحر وإشراق ، والمليح هو الذي لا يدرك جمال هذا الوجود ، ولا يعرف أن القبح نفسه فيه شمر وجمال ، وأن دمامة الأخلاق فيها فرص نورانية لمن يعرف على أى ساس بنيت هذه الدنيا الفيحاء .

إن الرجل الذى يعود إلى بيته وهو مهدم الأعصاب يزججه صراخ الطفل أفيكون ازعاجه دليلاً على وجود البشاعة في صراخ الأطفال ؟ وكيف والرجل السليم يرى في بكاء الطفل ملامح شعرية ، ويتوسم في انفعالاتهم بوارق من نور الوجود ؟

إن إسراف الصوفية في ذم الدنيا هو الشاهد على انحرافهم في فهم الأخلاق ، وهو كذلك الشاهد على أن قواعد الأخلاق أقيمت في الأغلب على الأهواء الذاتية ، فنحن نرضى عن الدنيا ساعة ونفضب ساعات ، فتكون لنا عند الرضى آراء ، وعند النفضب آراء ، والصوفية أولى الناس بالتهمة عند الانحراف ، لأن التصوف يقع في أكثر الأحيان عند المرض والمشيبة ، والمريض الأشيب ينظر إلى الدنيا نظرة الحقد والازدراء .

٣ - إن أشنع غلطة اقترفها الصوفية هي التنفير من الدنيا والدعوة إلى

هجر ما فيها من الطيات ، وإصرارهم على إقناع الناس بأنهم يلدون للسوت  
ويبنون للخراب . والحق أن كل ميلاد إلى موت ، وأن كل بناء إلى خراب ،  
ولكن بين الحالين مواسم للخير والبر والجمال والصفاء ، ومن الحق أن يجهل  
المرء أنه خلق لنهاية نبيلة تتمثل في تطوره من حال إلى حال ، وتنقله بين الحلم  
والجهل ، والعقل والجنون . وكان الصوفية أجدر الناس بأن ينظروا هذه  
النظرة ، وأن يتصوروا ما في قلب الطباع من رونق وبهاء ، ولكن خبز  
الشمير ولباس الصوف والملح الجريش ، كل أولئك طبع أرواحهم بطابع  
التلوم والإشفاق .

كيف غاب عنهم وجه الخير في هذه المغموم السود التي يمانها أشراف  
الرجال ؟ وكيف غفلوا عن المغائم النفيسة التي يظفر بها من محارب الخسة  
والدناءة والإسفاف ؟ إن فرص الجهاد لاتتاح إلا لمن ينفخ في الدنيا ويشهد  
ما يقع فيه الدنيويون من محاربة الشرف والصدق والنبيل ، ولو استمع العالم  
إلى نصائح الصوفية لضاعت أصول كثيرة من الخير والحق والجمال .

إن العالم الباقي لم يتمثل لمشاقه إلا عن طريق الممران : فهو قصور  
وأنتهار وحدائق ، وحوار عين كأمثال اللؤلؤ المكنون . ولو كان النسيم ينفخ  
لذاته لما رضى الصوفية أن يجعلوه نصيبهم في دار البقاء ، فلم يبق إلا أن يكون  
الكدر في هذه الدنيا أثرا من الانحراف في أخلاق الناس ، وتكون النتيجة  
أن الناس أعطوا ملكا فلم يحسنوا سياسته ، أعطاهم الله تلك الأنهار الجارية  
والرياض الحالية ، وسخر لهم الشمس والقمر والنجوم ، ففعلوا عن مغائن  
ذلك الملك الذى ينتظم محاسن الأرض والسما ، وحولوا حياض الأزهار

إلى ميادين تسفك فيها الدماء ، وتزهق الأرواح .

وكان الظن بالصوفية وهم من أهل البصائر والقلوب ، أن يعرفوا قيمة هذه الدنيا ، هذا الملك الذى ضيعه أهله ، كان الظن بهم أن يجاهدوا مافيه من شهوات وأباطيل ، ولكنهم آثروا الحرب والازواء وصاروا يعرفون من أنهار الجنة مالا يعرفون من أنهار هذا العالم ، ويعلمون من أبواب جهنم مالا يعلمون من أسباب انحطاط الأمم وضعف الشعوب ، ويدركون من نعيم الآخرة مالا يدركون من معنى الملك والقوة فى هذا الوجود .

إن الاعتصام بشواهد الجبال فراراً من ظلم الناس فيه ملامح شعرية ، ولكنه دليل على حب السلامة ، وذلك من أخلاق الضعفاء ، وأشرف منه أن تدخل المركة ، وأن يخضب الدم وجهك وصدرك ويديك ، وأن تلقى الله بوجه شريف لم يعرف صاحبه الجبن ولا الرياء ولا الخداع .

الدنيا جنة دانية القطوف ، وفى بعض أركانها أفاف وصلال ، وما أفاعبها إلا لثام الناس ، فكيف خانتكم الشجاعة أيها الصوفية فلم تقتلوا مافى تلك الجنة من خبيث الحشرات ؟ .

أفى الحق أن الدنيا بنيت على الكيد والفتك والنفاق ؟ ليكن ذلك ، ولكن لا تنكروا أنها أعظم مما تتوهمون ، إن فى الدنيا جمالاً جذاباً يستهوى العقول والقلوب ، وهى صالحة كل الصلاحية لأن تكون من ميادين المجد فى عالم الأخلاق ، ولكن أين الصابرون ؟ وأين المحتسبون ؟ كل امرئ فى دنيانا يود أن يغمم المركة فى لحظة واحدة ، وإلا فى مهاوى الفرار متسع للجميع ،

وقد عجز الصوفية ثم تواصلوا بالتقهقر والانسحاب ، فلنسجل عليهم هذه الخزية البلقاء .

٤ - اهتم الصوفية بنقل ما قال الرسول في ذم الدنيا ، فحدثونا أنه وقف على مزبلة وقال : هلموا إلى الدنيا ، وأخذ خرقاً قد بليت على تلك المزبلة وعظماً قد نخرت ، فقال : هذه الدنيا<sup>(١)</sup> وحدثونا أنه قال : أهاكم التكاثر ، يقول ابن آدم مالى مالى ، وهل لك من مالك الا ما أكلت فأفانيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت<sup>(٢)</sup> ؟ وأنه قال : الدنيا دار من لادار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يمدى من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسمى من لا يقين له<sup>(٣)</sup> وحدثوا أن أبا هريرة قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ، ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ فقلت : بلى ، يا رسول الله ، فأخذ يمدى وأتى بى وادياً من أودية المدينة فإذا مزبلة فيها رهوس أناس وعذرات وخرق وعظام . ثم قال : يا أبا هريرة ، هذه الرهوس كانت تحمص كركمكم ، وتأمل كأملككم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى سائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية كانت رباشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد ، فن كان باكياً على الدنيا فليكن<sup>(٤)</sup> .

(١) الإحياء ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) ص ٢٠٤ .



ولم يكتف الصوفية بكلام نبي المسلمين فنقلوا عن صحف إبراهيم هذه الكلمات :  
« يادنيا ماأهونك على الأبرار الذين تصنعت وتزينت لهم ، إني قدفت  
في قلوبهم بفضك ، والصدود عنك ، وما خلقت خلقاً أهون عليّ منك ، كل  
شأنك صغير ، وإلى الغناء يصير ، قضيت عليك يوم خلقتك أن لا تدوى لأحد ،  
وإن بخل بك صاحبك وشحّ عليك<sup>(١)</sup> .

ومضوا يقصون أخبار المسيح فرووا أنه اشتد عليه المطر والرعد والبرق  
فجمل يطلب شيئاً يلجأ إليه فوقعت عينه على خيمة من بعيد ؛ فأتاها فإذا فيها  
امرأة فحاد عنها ؛ فإذا هو بكهف في جبل فأتاه فإذا فيه أسد فوضع يده عليه  
وقال : إلهي لكل شيء مأوى ، ولم نجمل لي مأوى ، فأوحى الله تعالى إليه :  
مأواك في مستقر رحمتي ، لأزوجنك يوم القيامة مائة حوراء خلقتها بيدي ،  
ولأطعمن في عرسك أربعة آلاف عام ، كل يوم منها كعمر الدنيا ، ولأمرن  
منادياً ينادي : أين الزهاد في الدنيا ، زوروا عرس الزاهد في الدنيا عيسى  
ابن مريم<sup>(١)</sup> .

وحدثوا أنه مرّ بقرية فإذا أهلها موتى في الأفنية والطرق فقال : يامعشر  
الحواريين ، إن هؤلاء ماتوا عن سخطه ، ولو ماتوا عن غير ذلك لتدافنوا ،  
فقالوا : ياروح الله ، وددنا أننا علمنا خبرهم ، فسأل الله تعالى فأوحى إليه :  
إذا كان الليل فنادهم يجيئك ، فلما كان الليل أشرف على نشز ثم نادى :  
يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك ياروح الله . فقال : ما حالكم وما قصتكم ؟

قال : بينا نحن في عافية أصبحنا في الهاوية . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لحبنا الدنيا وطاعتنا أهل المعاصي ، قال : وكيف كان حبكم للدنيا ؟ قال : حب الصبي لأمه ، إذا أقبلت فرح بها وإذا أدبرت حزن وبكى عليها . فما بال أصحابك لم يحبوني ؟ قال : لأنهم ملجمون بلجم من نار بأيدي ملائكة غلاظ شداد . قال : فكيف أجبتني من بينهم ؟ قال : لأنني كنت فيهم ولم أكن منهم ، فلما نزل بهم العذاب أصابني معهم ، فأنا معلق على شفير جهنم ، لا أدري أنجو منها أم أكبكب فيها . فقال المسيح للحواريين : لأكل خبز الشعير بالملح الجريش ولبس السوح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup> .

٥ - وما يهمننا في هذا المقام أن نبحث في صحة هذه الأحاديث وفيها الزائف والصحيح ، لا يهمننا ذلك ، لأن غاية الصوفية بدرسها وروايتها هي الشاهد على ما نراه في تصوير مذاهبهم الأخلاقية ، وهم يذمون الدنيا إطلاقاً ولا يتسامحون في الرضا عنها إلا في رسوم ضيقة أشد الضيق ، ولولا غلبة هذه النزعة عليهم لكان لهم موقف آخر في توجيه تلك الأحاديث ، فما نظن أن الرسول كان يرى الدنيا جيفة في جميع الأحوال ، والمعقول أنه كان يحقرها حين يرى الناس يتكالبون عليها ويقتربون في سبيلها منكر الآثام ، ولو عرض الرسول لدنيا رجل صالح لقضى بأن الدنيا مطية المؤمن ، وأن الغنى من نعم الله على عباده الصالحين .

إن وقوف الصوفية عند هذا الجانب من كلام الرسول لم يقع إلا عن قصد ، فذلك هو منجهم في الأخلاق ، والشخصية الخلقية عندهم هي شخصية

فقيرة معدمة لاتعرف غير التفكير في الجزء المجرد من اللسكوت ، أما النظر في هذا العالم الصاحب المملوء بالمحاسن والميوب فذلك لأهل الدنيا الذين قضى عليهم الصوفية بالغفلة والسقوط .

واهتمام الصوفية بأدب المسيح يؤكد ما نراه في نزعتهم الأخلاقية ، فالسيح هو أعظم درويش عرفه هذا العالم ، وهو في ذاته شخصية جذابة ، ولكن الاقتداء به اقتداء مطلقاً لا يخلو من عدوان على ملك العقل ، ولا يصح النظر إلى السيح كشخصية مستقلة تمام الاستقلال ، وإنما يجب النظر فيما كان يحيط به من تكالب أرباب الأموال ، وتصور ما كانوا عليه من قذارة التعامل وسفاهة الإجحاف ، فاليهود الذين عرفهم عيسى كانوا بنوا في الأرض واشتروا رقاب الناس بالربا الفاحش ، وكذلك كانت دعوته إلى بغض الدنيا دعوة طبيعية يقرها الأدب والدوق .

٦ - ولكن كيف نبخل على الصوفية بما سمحنا به للمسيح ، وكيف نحرم هنا ما حللناه هناك ؟

الواقع أن الصوفية نشأوا في بيئات غلب عليها الفساد فساد الخلق والدين ، وما كانت المعاملات بين الناس في المهود الماضية إلا ضرباً من الختل والعدوان ، وهل صلح الناس في زماننا هذا مع قوة القانون وحزم القضاء ؟ حدثني كم رجلاً فيمن تعرف يصلح للتعاون بلا صك مكتوب ؟ وكم رجلاً فيمن تصادق تأمنه فلا يخون ؟ وكم رجلاً فيمن تؤاخي يحفظ سرك ويرعى عهدك ، ويظل ظهيرك في المحضر والمغيب ؟

لقد نشأ الصوفية في أزمان لم يكن فيها لغير الحاكم المسيطر أمر يطاع ،

وكانت الدسائس والوشايات أساس الحل والمقد في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء  
وكان الندمان والمحاسب هم عمور الحركة والسكون ، وأصل الإدبار والإقبال ، على  
نحو ما يقع أحياناً كثيرة في هذا الزمان ، فكيف نفكر أن يكون إشراف  
الصوفية في ذم الدنيا أثراً من آثار ذلك الاضطراب في السياسة والخلق والدين ؟  
وما هي تلك الدنيا الشعة التي يستجيز أهلها النذر والعقوق ؟ وهل يفدر  
الغادر ، ويمق الماق إلا وهو مؤيد بقوى خفية من الطمع والجشع ، وحب  
التملك والاستملاء ؟

إن مطامع الدنيا هي الأصل في فساد الأخلاق ، فهل يلام الصوفية على  
تحقيرهم إياها ، وري عشاقها بالإثم والبهتان ، وحرهم بأقوال الحكماء  
والأنبياء والمرسلين ؟

إننا نهم الصوفية بالضعف حين يفرون من دنيا السفهاء ، فلنجدالدهن نحن ،  
ولنتظر عواقب الحركة بين الهدى والضلال ، وأغلب الظن أننا سنرى  
الراية يائسين ، لأن هنالك سرّاً لا يعلمه إلا علماء الفيوب ، هنالك المشكلة  
الباقية التي قضت بأن لا يخلص العالم من اشتباك الحلم والجهل ، والعقل  
والجنون .

إن رجل الأخلاق ليس أحسن حالا من اعمى الغم ، يجمع هذه فتنة تلك ،  
ولا يزال معذب القلب بين الشاردات والواردات ، وليس أعظم قدرة من المدرس  
الذي يساق إليه التلاميذ بلا تخير ولا اصطفاء ، ثم يطلب منه أن يتعلم تلاميذه جميعاً  
وأن ينجحوا جميعاً .

من الحق أن تطالب رجل الأخلاق بالثبات ، ولكن من الظلم أن لا تشفق

عليه حين ينهزم ، فإن للضعف أنفذ سهماً من القوة في عالم الأخلاق ،  
أنت تعظ ولكن أين من يسمع ؟ وتسير في طريق الهدى ولكن أين من  
يسارك ، وتبنى ، ولكن أين من يشد أزرك ويحمل معك أحجار  
الأساس ١٩ .

والخلاصة أن فرار الصوفية من الدنيا وأهلها يدل على ثلاثة أمور :  
الأول شعورهم بالتبعية الأخلاقية .

والثاني ضعفهم عن مقاومة الرذائل الاجتماعية .

والثالث فساد ما نشأوا فيه من البيئات الدينية والمعاشية .

٧ - فإن سأل القارىء عن أثر ذلك في الأخلاق ، فإننا نجيب بأن كتمان  
الصوفية لأسباب الهزيمة صور فرارهم من الدنيا بصورة العمل المقبول ،  
فاقتدى بهم كثير من الناس وشاع الزهد في الطيبات فضاء من العالم  
الإسلامي جزء كبير من الثروة المعنوية التي يمثلها جمال العمران وتتابع  
الرزق في عالم الاقتصاد .

ومضى المهزمون يسترون الهزيمة بذم الدنيا فكان للأدب من ذلك مفانم  
عظيمة ، واستطاع على بن أبي طالب أن يحسن مثل هذه الأقوال :

« إنما الدنيا منتهى بصر الأعمى لا يبصر مما وراءها شيئاً ، والبصير ينفذها  
بصره ، ويعلم أن الدار وراءها ، فالبصير منها شاخص والأعمى إليها شاخص ،  
والبصير منها متزود ، والأعمى لها متزود<sup>(١)</sup> . . . انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين  
فيها الصادقين عنها ، فإنها والله عما قليل تزيل الثاوى الساكن ، وتفجع المترف

(١) نهج البلاغة ج ١ ص ٢٧٠ .

الآمن ، لا يرجع ما تولى فأدير ، ولا يدري ما هو آت منها فينتظر ، سرورها مشوب بالحزن ، وجلد الرجال فيها إلى الضعف والوهن<sup>(١)</sup> . . . لم يكن امرؤ منها في حيرة إلا أعقبته عبرة ، ولم يلق في سرائها بطلاً إلا منحته من ضرائها ظهراً ، ولم تطله فيها ديمة رخاء إلا هتنت عليه مزنة بلاء<sup>(٢)</sup> . . . أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تتركوها ، والبليّة لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها ، فإنما مثلكم ومثلها كسفر سلكوا سبيلاً فكأنهم قد قطعوه ، وأمّوا علماً فكأنهم قد بلغوه ، وكم عسى الجرى إلى الغاية أن يجرى إليها حتى يبلغها ، وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعدوه ، وطالب حيث يحده في الدنيا حتى يفارقها ، فلا تنافسوا في عز الدنيا ونفرتها ، ولا تمجبوا بزيتها ونعيمها ، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها ، فإن عزها ونفرتها إلى انقطاع ، وإن زيتها ونعيمها إلى زوال ، وضراءها وبؤسها إلى نفاذ ، وكل مدة فيها إلى انتهاء ، وكل حي فيها إلى فناء<sup>(٣)</sup> .

وكلام ابن أبي طالب في ذم الدنيا كثير جداً ، وهو يمثل مذهبه في الزهد ويشرح هزئته السياسية ، وكذلك فعل الخوارج ، فقد أطلالوا القول في التنفير من الدنيا ، ولهم في ثلبها خطب ضربت بفصاحتها الأمثال ، من ذلك قول قطريّ بن الفجاءة .

« أيها الناس ، اعملوا على مهل ، وكونوا من الله على وجل ، ولا تمقنوا بالأمل ، ولا تركنوا إلى الدنيا فإنها غدّارة خدّاعة ، قد تزخرفت لكم بغرورها ، وفتنتكم بأمانها ، وتزينت لخطاياها ، فأصبحت كالعروس المجلوة :

(١) ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) ج ١ ص ٢٠٧ .

(٣) ج ١ ص ٢٣٤ .

الميون إليها ناظرة ، والقلوب عليها عاكفة ، والنفوس لها عاشقة ، فكم من عاشق لها قد قتل ، ومطمئن إليها خذلت ، فانظروا إليها بعين الحقيقة فإنها دار كثرت بوائقها ، وذمها خالقها ، جديدها يبلى ، ومالكها يفنى ، وعزيزها يذل ، وكثيرها يقل ، وحيا يموت ، وخيرها يفوت ، فاستيقظوا من غفلتكم ، واتبهوا من رقدتكم ، قبل أن يقال : فلان عليل ، أو مدنف ثقيل ، فهل على الدواء من دليل ، أو على الطبيب من سبيل ، فيدعى لك الأطباء ، ولا يرجى لك الشفاء ، ثم يقال : فلان أوصى ، ولله أحصى ، ثم يقال : قد ثقل لسانه ، فما يكلم إخوانه ، ولا يعرف جيرانه ، وعرق عند ذلك جبينك ، وتتابع أنينك ، وثبت يقينك ، وطمحت جفونك ، وصدقت ظنونك ، وتلجلج لسانك ، وبكى إخوانك ، وقيل لك : هذا ابنك فلان ، وهذا أخوك فلان ومنعت الكلام فلا تنطق ، ثم حلّ بك القضاء ، وانتزعت نفسك من الأعضاء ، ثم عرج بها إلى السماء ، فاجتمع عند ذلك إخوانك ، وأحضرت أكرامك ، ففسلوك وكفنوك ، فاقطع عوادك ، واستراح حسادك ، وانصرف أهلك إلى مالك ، وبقيت مرتها بأعمالك<sup>(١)</sup> .

وما نريد أن نطيل في بيان ما غنم الأدب من تبرم الصوفية بدنيا الناس فقد عقدنا لذلك فصلاً موجزاً في القسم الأول بيننا فيه كيف أولع الصوفية بتصوير الدنيا ، وكيف لوتونها وعرضوها في مختلف التشبيهات .

ولننصّ في هذا المقام على أن ما قالوه حق ، فالدنيا سخيصة لا ثبات لنعيمها ولا بقاء ، ولكن الإصرار على إحقاق هذا الحق ، والدوران حوله من

(١) نهاية الأرب ج ٥ ص ٢٥١ .

وقت إلى وقت ، أو تمثله في أغلب الأحوال ، إنما هو من أوهام النفوس العليلة التي يترأى لها شبح الموت في كل حين . والموت حق ، ولكن الحياة أيضاً حق ، والشغل بها من دلائل الفتوة الجسمية والعقلية والروحية ، وإليها المرجع في تصوّر النعيم المأمول ، وعلى ما فيها يقاس ما سيكون في دار البقاء .

٨ - وهناك مشكلة اختلف في حلها الصوفية ، وهي حال الرجل الغنى الذى يؤدى حقوق الغنى فينفق في وجوه الحلال ويتصدق على الفقراء والمساكين ، فقد قال رجل للحسن البصرى : ما تقول في رجل آتاه الله مالا فهو يتصدق منه ، ويصل منه ، أيحسن له أن يتعيش فيه - يعنى يتنعم - فقال : لا ، لو كانت له الدنيا كلها ما كان له منها إلا الكفاف ، ويقدم ذلك ليوم فقره<sup>(١)</sup> .

فالحسن يقاوم التمتع ، وينهى عنه الأغنياء الذين يؤدون حقوق المال . أما أبو حازم المدني فيقول بغير ذلك في شيء من الرفق ، فقد قال له رجل : أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار . فقال : انظر ما آتاك الله عزّ وجلّ منها ، فلا تأخذه إلا في حله ، ولا تضعه إلا في حقه ، ولا يضرك حب الدنيا<sup>(٢)</sup> .

وهذا جواب حكيم ، ولكن الغزالي يأبى إلا التعقيب عليه فيقول : وإنما قال هذا لأنه لو آخذه بذلك لأتعبه حتى يتبرم بالدنيا ويطلب الخروج منها .

(١) الإحياء ج ٣ ص ٢٠٩ .

(٢) ص ٢٠٧ .



وهذا التعقيب يعين مذهب الغزالي في الزهد ، وجوهره يدل على ما كان عند أبي حازم من حكمة وعقل ، فإن الأغنياء الذين يؤدون حقوق الغنى هم ظل الله في الأرض ، وهم أهل الحرث وأرباب العمران ، والحكم عليهم بالانحراف عن جادة الحق فيه تبييس وتثبيط وتمويق ، والصوفية لا يستكثر عليهم أن يسرفوا في التزهيد ، وإن كانوا يتلطفون أحياناً ، فقد نقل الغزالي قول أبي سليمان الداراني : إذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا ترحمها فإذا كانت الدنيا في القلب لم ترحمها الآخرة ، لأن الآخرة كريمة ، والدنيا لثيمة . ثم قال : وهذا تشديد عظيم ، وزجو أن يكون ما ذكره سيّار بن الحكم أصح إذ قال : الدنيا والآخرة تجتمعان في القلب ، فأيهما غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك<sup>(١)</sup> .

وفي هذا الحكم اعتدال ، وهو يقضى بأن الدنيا خليفة بالحب ، وليس في حبها ما يعيب ، على شرط أن لا تكون هي الغالبة ، وأن يكون ما فيها من الطيبات وسيلة لصالح الأعمال .

٩ - وقد وضع الغزالي علائم واضحة للمجمود والمذموم من الشئون الدنيوية ، ويتلخص كلامه المطول في الفقرة الآتية :

ليس كل ما تميل إليه بل يندموم هو ثلاثة أقسام : الأول ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت ، وهو شيثان العلم والعمل فقط ، والعلم هنا هو العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوته أرضه

وسمائه والعلم بشريعة نبيه ، والعمل هو العبادة الحاصلة لوجه الله . والقسم الثانى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له فى الآخرة كالتلذذ بالمعاصى والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات . والقسم الثالث متوسط بين الطرفين وهو كل حظ عاجل يعين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن وكل ما لا بد منه ليتأتى للإنسان البقاء<sup>(١)</sup> .

وهذا الكلام فى ذاته مقبول . ولكنه ينتهى إلى غاية واحدة : هى أن يكون الإنسان كُتْلَةً خَلْقِيَّةً لا يتقدم ولا يتأخر إلا وَفْقًا لسياسة روحية ضيقة المسالك . ومن الجليل أن يكون الإنسان كتلة خلقية ، وأن يكون له فى كل خطوة هاد من القلب والوجدان ، ولكنى أخشى أن يكون فى ذلك ما يهدم جانباً من دعائم الأخلاق ، فالنفس قريبة الشبه بالشجرة الصغيرة التى تحيا بالحرية فى مكافحة الهواء ، ويؤذيها أن يراها الجنان فى كل لحظة ، وأن لا يدعها بغير سناد ، وكذلك تحمد النفس حين تُسأل عن كل شىء ، فلا تقرب الطعام إلا لفرض ، ولا تباشر اللباس إلا لفرض ، ولا تنظر فى كتاب إلا بعد أن تميز لأى غاية ألف ، ولا تصحب أحداً إلا بعد أن تستوثق من الطهر فى قصده المكنون .

لقد أسرف الصوفية فى ذم الدنيا وأهلها ، وأسرفوا فى الدعوة إلى التحرر منها ، ولو كانوا أحماء لآثروا الاعتدال .

## المقامات في الأحوال

ما هو المقام وما هو الحال في اصطلاح الصوفية - أهمية المقامات والأحوال  
في تصوير الشخصية الخلقية - عقل العصر الحاضر والحياة الروحية -  
مقام التوبة - مقام الصبر - مقام الشكر - مقام الرجاء - مقام  
الخوف - مقام الرضا - مقام الزهد - مقام الفقر - مقام الورع -  
حال المراقبة - حال القرب - حال الحب - حال الشوق - حال  
الأنس - حال الطمأنينة - حال اليقين - درجات العشق ونقلها  
إلى التصوف .

١ - المقامات جمع مقام - بالتذكير - وهو الخطبة أو المظة يلقيها الرجل  
في حضرة الخليفة أو الملك ، وقد عقد ابن قتيبة فصلاً في المجلد الثاني من عيون  
الأخبار سماه ( مقامات الزهاد عند الخلفاء والملوك ) وقد تؤنث كقول بديع الزمان  
في أحد الواعظين ( فاصبر عليه إلى آخر مقامته ، لعله ينبيء بعلامته <sup>(١)</sup> ) والمقام  
في الأصل ، المجلس ، ففي القرآن ( أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً )  
وفي شعر زهير :

وفيه مقامات حسان وجوههم وأندية ينتابها القول والفعل  
والمقام أيضاً الموقف العصيب . قال لبيد :

ومقام ضيق فرجته بكلام وبيان وجدل

لو يقوم الفيل أو فياله زلّ عن مثل مقامى وزحل

أما الصوفية فالمقام عندهم معناه : مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما

(١) مقامات بديع الزمان ص ١٤٣ .

يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانتقطاع إلى الله تباركت أسماؤه ،  
ومنه آية القرآن ( ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد ) (١) .

أما الحال فنأزلة تنزل بالقلوب فلا تدوم ، والفرق بين المقام والحال أن المقام  
يكتسب بطريق المجاهدات والعبادات والرياضات ، وأن الحال يأتى من فيض الله ،  
وقد أفصح الجرجاني عن ذلك حين قال :

« الحال عند أهل الحق معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا  
اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو هيئة ، ويزول بظهور صفات  
النفس سواء يعقبه المثل أو لا ، فإذا دام وصار ملكا يسمى مقاماً ، فالأحوال  
مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل  
ببذل المجهود (٢) » .

٢ - ودرس المقامات والأحوال يصور لنا فهم الصوفية للحياة الخلقية ،  
وهم يرون الإنسان بين حالين : الأول حال المجاهدة والثاني تلقى الفيض ،  
فالشخصية الخلقية لا تنفك تجاهد الأهواء والشهوات ، ولا تزال موجهة  
القلب إلى النفحات الروحانية ، فهي في شغل موصول بمواجهة أسباب  
الصفاء .

وأثر التصوف من هذه الناحية عظيم جداً في الأخلاق ، فالرجل  
التصوف يحاسب نفسه في كل لحظة ، ويتلصص مواقع الفيض في كل لحظة  
وهذه الشواغل الدائمة قد تكون مما يصرف النفس عن التوجه لما يجدر في عالم  
المحسوسات والمقولات ، وتصير الرجل من أهل الوسواس في تعقب

ما كان وانتظار ما سيكون من أعمال القلب والوجدان ، ولكنها عند الاعتدال تخلق من المرء قوة خلقية تنفع في توجيه الإرادة إلى الصالح من الأعمال .

وعقل العصر الحاضر لا يفهم هذه الوسوسة الروحية ، لأنه اندفع في التيارات الواقعية ، فلم يعد يدرك ما في هذه الوسوسة من الصدق والجلال . وأغلب الظن أن القلق في عالم العيش هو الذي ضيّق الخناق على المعاني الروحية ، لأنها في نظر العقل الحاضر لا تقدم إلى أصحابها شيئاً من البخار أو البنزين ، والتصوف لا ينمو إلا في البيئات التي حَفَّتْ أُنُقُها في عالم العيش ، واستطاعت أن تنمض الجفون ولو لحظات لتنظر ما يجري في دنيا الوجدان .

ونشهد أننا نجد مشقة في تقريب تلك السياسة النفسية من عقل هذا الزمان ، ولكن ما حاجتنا إلى ذلك ؟ نحن نؤرخ بعض المذاهب الفلسفية ، والمؤرخ لا يجعل به أن يشغل نفسه بالتحسين والتبجيل ، وإنما يجب عليه أن يقدم الصور الصحيحة لما وقع في التاريخ .

ولنواجه المشكلة بعزم وصراحة فنقول إن تلك السياسة الصوفية أضرت من وجه وأحسنّت من وجوه ، أضرت حين قصرت الشخصية الخلقية على الحياة الفردية ، وقضت بأن يصم الرجل أذنيه في أكثر الأحيان عما يجري في المجتمع من أخبار الجِد والإبداع ، وأحسنّت حين ربطت مصير الفرد بمجاهدة الأهواء ، ومحاربة الشهوات ، وأقنعت أن لا غنى له عن ترقب الفيض الإلهي في جميع اللحظات ، وراضته على احتقار المغائم الدنيوية ، والإيمان بأن المنعم

الحق هو الاتصال بالمبدع الأول الذى وهب الروح لكل موجود ، وصير العالم كتلة من السكرباء .

٣ - ولناخذ فى شرح المقامات فنذكر أن المقام الأول هو التوبة النصوح وهى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار أن لا يعود التائب إلى الذنب<sup>(١)</sup> .

وجملة ما على العبد فى التوبة وما تعلق بها عشر خصال : أولها أن لا يمضى الله تعالى . والثانية أن لا يصبر إذا ابتلى بمصيبة . والثالثة التوبة إلى الله تعالى منها . والرابعة الندم على ما فرط منه . والخامسة عقد الاستقامة على الطاعة إلى الموت . والسادسة خوف العقوبة . والسابعة رجاء المغفرة . والثامنة الاعتراف بالذنب . والتاسعة اعتقاد أن الله قدر عليه ذلك وأنه عدل منه . والعاشر المتابعة بالعمل الصالح ليكفر عما تقدم من السيئات<sup>(٢)</sup> .

وهذه الخصال تشهد بأن الصوفية يرون الرء مجرداً من الحول والقوة ، فهو يذنب بقدر ، ويتوب بقدر ، ومن واجبه أن يؤمن بأن الله كتب عليه الذنب ، وأن ذلك من الله عدل ، ومن واجبه أن يخاف العقوبة ويرجو المغفرة ، وأن ينوى الاستقامة على الطاعة إلى الموت .

وقليل من الإنصاف يكفى لإعلان أن هذه اللحظة من أهم الدعائم فى الحياة الخلقية ، فكل تردد فى التوبة هو فى بناء الخلق صدع وانحلال ، وكل صدق فى التوبة هو حجر متين فى تقوية الشخصية الخلقية .

ومن علامة صدق التائب فى توبته أن يستبدل بحلاوة الهوى حلاوة

(٢) القوت ج ٢ ص ٦٧ .

(١) قوت القلوب ج ٢ ص ٦٥ .

الطاعة<sup>(١)</sup> ولا تصحّ للتائب توبة إلا بأكل الحلال ، ولا يقدر على الحلال حتى يؤدي حق الله تعالى في الخلق ، وحق الله تعالى في نفسه . ولا يصحّ له هذا حتى يبرأ من حركته وسكونه إلا بالله تعالى وحتى لا يأمن الاستدراج بأعماله الصالحات<sup>(٢)</sup> .

ومن شرط التوبة أنه ينبغي للتائب النيب أن يبدأ ببيانته أهل المعاصي ثم بنفسه التي كان يعصى الله تعالى لها فلا ينفيلها إلا ما لا بد منه ، ثم الاعتزام على أن لا يعود في معصية أبداً ، ويلقى عن الناس مؤوته ، ويدع كل ما يضطره إلى جريرة<sup>(٣)</sup> .

وينبغي لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم في كل طرفة ، ويدعوا كل شهوة ويتركوا الفضول ، وهي ستة أشياء : ترك فضول الكلام ، وترك فضول النظر . وترك فضول المشي ، وترك فضول الطعام ، والشراب واللباس<sup>(٤)</sup> .

ولا تنظر أيها التائب ، إلى صغر الخطيئة ، ولكن انظر إلى من عصيت<sup>(٥)</sup> ، فقد كانت الصغائر عند الخائفين كباراً ، وكان من الصحابة من يقول : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعتدها في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من الموبقات<sup>(٦)</sup> . وليس معنى ذلك أن الكبائر التي كانت على عهد النبي صارت بعده صغائر ، ولكن معناه أنهم كانوا يستعظمون الصغائر لمعظمة الله تعالى في قلوبهم ، ولم يكن ذلك الوجدان في قلوب من بعدهم من المؤمنين .

واختلف الصوفية في نسيان ما سلف من الذنوب ، فقال بعضهم : حقيقة التوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك ، وقال آخر : حقيقة التوبة أن

(٢) القوت ج ٢ ص ٦٩ .

(١) القوت ج ٢ ص ٦٨ .

تنسى ذنبك . وهذان طريقان لطائفتين ، وحالان لأهل مقامين ، فأما ذكر الذنوب فطريق الريدين وحال الخائفين ، وأما نسيان الذنوب فطريق العارفين وحال المحبين<sup>(١)</sup> .

ونحن نرجح الرأي الثانى وزرى الأخذ به فى جميع الأحوال ، فإن تذكر الذنوب الماضية يشلّ المزيمة ويقت فى عضد التائب ، ويخلق جواً جديداً للتعرف إلى ماسلف من الذنوب ، وهو فوق ذلك جهد ضائع وشغل للقلب بما لا يفيد . وإقامة المناجات على المقوات الماضية علالة سخيصة بتوم فريق من الناس أنها تزيد فى طهر القلوب ، وهى فى عالم الأخلاق تشبه بعض ما يقع فى عالم القضاء ، فلو كان يصح للقضاء أن يتعقبوا ماضى الناس ليأخذوهم بهفوات قدم عليها العهد لاختل الميزان ، وذهب جمال الحاضر ، وزهد الناس فى فضل التائب ، فإن الأصل فى التوبة أن تكون حجازاً بين عهدين ، وأن يصبح التائب وكأنه مولود جديد ، ولا تنسى أن اجترار الذكريات الماضية سيء الأثر فى نظام الأعصاب ، وهو خليق بأن ينتهب المافية ويضيع جمال الساعة الحاضرة ، وهى العدة الخلقية فى نظام الأعمال .

ولا يقف الصوفية عند التوبة من الذنوب ، لأنها فى رأيهم توبة العوام بل يدعون إلى التوبة من الغفلة ، وهى عندهم توبة الخواص « فأما لسان أهل المعرفة والواجدين وخصوص الخصوص فى معنى التوبة فهو ما قاله أبو الحسين النورى رحمه الله حين سئل عن التوبة فقال : التوبة أن تتوب من كل شئ ، سوى الله تعالى ، وإلى هذا أشار الذى أشار بقوله : ذنوب المقربين حسنات



الأبرار ، وهو ذو النون ، والذي قال أيضاً : رياء المارقين إخلاص المريرين  
فشتان بين تائب وتائب ، فتائب يتوب من الذنوب والسيئات ، وتائب يتوب  
من الزلل والغفلات ، وتائب يتوب من رؤية الحسنات والطاعات<sup>(١)</sup> .

٤ - المقام الثاني مقام الصبر ، وهو مقام شريف ، وقد جملة على بن  
أبي طالب ركنًا من أركان الإيمان ، فقال : بنى الإسلام على أربع دعائم :  
على اليقين والصبر والجهاد والعدل<sup>(٢)</sup> ، وروى عن النبي أنه قال : من أقل  
ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاته من  
قيام الليل وصيام النهار ، ولأن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب إلى من  
أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكني أخاف أن تفتح عليكم  
الدنيا بمدى فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر  
واحتسب ظفر بكال ثوابه ، ثم قرأ : ما عندكم ينقد وما عند الله باق  
ولنجزي الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون<sup>(٣)</sup> ، وكان سهل  
يقول : أفضل منازل الطاعة الصبر عن المصيبة ، ثم الصبر على الطاعة . . .  
وقال : الصالحون في المؤمنين قليل ، والصادقون في الصالحين قليل ،  
والصابرون في الصادقين قليل ، فجعل الصبر خاصية للصدق ، وجعل الصابرين  
خصوص الصادقين<sup>(٤)</sup> وقد قال بعض العلماء : ما كنا نعد إيمان من لم يؤدَّ  
فيحتمل الأذى ويصبر عليه إيماناً<sup>(٥)</sup> وقد قال الله تعالى في جزاء المخلصين  
( أولئك لهم رزق معلوم ) وقال تعالى في جزاء الصابرين ( إنما يوفي الصابرون

(٢) الفوت ج ٢ ص ٧٨ .

(٤) ص ٧٩ .

(١) المم ص ٤٤ .

(٣) الفوت ج ٢ ص ٨٨ .

أجرهم بغير حساب) قيل في التفسير : يعرف لهم عرفاً ، والمعنى في ذلك أن الصبر أشق على النفس ، وأمر على الطبع ، ويصعب فيه الألم والكظم عند الذل والضيم . ومنه التواضع والكتم ، وفيه الأدب وحسن الخلق ، وبه يكون كف الأذى عن الخلق ، واحتمال الأذى من الخلق ، وهذه من عزائم الأمور ، التي يضيّق منها أكثر الصدور<sup>(١)</sup> .

وللصوفية في الصبر كلام كثير . حدّث السراج الطوسي قال : وقف رجل على الشبلى رحمه الله فقال له : أي صبر أشدّ على الصابرين ؟ فقال : الصبر لله . فقال الرجل : لا ، فقال : الصبر مع الله ، فقال : لا . فنضب الشبلى رحمه الله وقال : ويحك ، فأبش ؟ فقال الرجل : الصبر عن الله عزّ وجلّ . فصرخ الشبلى رحمه الله صرخة كادت تلتف روحه<sup>(٢)</sup> قال : وسألت ابن سالم بالبصرة عن الصبر فقال : على ثلاثة أوجه : متصبر وصابر وصبّار ، فالتصبر من صبر في الله تعالى ، فمرة يصبر على المكروه ، ومرة يعجز ، والصابر من يصبر لله وفي الله ، ولا يجزع ، وأما الصبار فذاك الذي صبره في الله والله وبالله ، فهذا لو وقع عليه جميع البلايا لا يعجز ولا يتغير ، من جهة الوجوب والحقيقة ، لا من جهة الرسم والخلقة<sup>(٣)</sup> وكان الشبلى يتمثل بهذه الآيات إذا سئل عن الصبر :

عبرات خططن في الخلد سطرأ  
قد قراها من ليس يحسن يقرأ  
إن صوت المحب من ألم الشوق  
ق وخوف الفراق يورث ضرأ  
صابر الصبر فاستغاث به الصبر  
فصاح المحب بالصبر صبرا

(١) القوت ج ٢ ص ٩٠ . (٢) اللع ص ٤٩ . (٣) اللع ص ٥٠ .

وعناية الصوفية بالصبر عنصر تمثل جانباً هاماً من تصورهم لكرائم الخلال ، فالصبر في جوهره من عناصر المشجاعة في مقاومة الشدائد ، والشدائد قد تكون حسية وقد تكون عقلية . والصبر عنصر أصيل في الحياة الخلقية ويظهر فضله في كل باب من أبواب العيش : فيكون في العادات ، وفي طلب العلم ، وفي الصناعات ، وفي معاملة الناس ، ويكون في الصحة وفي المرض ، وفي الحب وفي البغض ، وفي التعميم وفي البؤس . ورياضة النفس على الصبر هي ذاتها من مصادر المافية في عالم الأخلاق .

والصوفية يتمثلون الصبر في صور جذابة تفصح عنها الحكاية الآتية :  
حكى عن ذى النون أنه قال : دخلت على مريض أعوده ، فبينما كان يكلمنى أن أنه ، فقلت له : ليس بصادق في حبه من لم يصبر على ضربه . فقال المريض : بل ليس بصادق في حبه من لم يتلذذ بضربه<sup>(١)</sup> .

فالصابر على هذا الوجه يتلقى المكافاة بالقبول ، ويراه من نعم الله ، وعند التأمل نرى العناية الإلهية تسوق إلينا الشدائد لحكمة عالية ، والجاهل هو الذى يضجر ويحزن ويكتئب ، أما الماقل فيلتمس وجوه الخير فيما يبتليه الله به من الشدائد ، وقد جربنا فرأينا النعم تساق لمنافع مستورة نجعلها كل الجهل ، ثم تظهر رويداً رويداً فترى الخير فيما اختاره الله ، ونقدم على ما أسلفنا من الحزن والاكتئاب .

إن التخلق بخلق الصبر على هذا الوجه من أهم الدعائم في بناء الأخلاق وأقل مزاياه أن يورثنا ابتسامة دائمة ندفع بها ما قد نفجع به من آلام

وخطوب . والخلق الصحيح هو الذى يورثك ورباطة الجأش حين تثور  
الأنواء ، بمنحك السيطرة على الحوادث ، ويومض لك يريق الفوز فى حلك  
البأساء .

٥ - ويميل أكثر الصوفية إلى تفضيل الصبر على الشكر ، لأن الصبر  
حال البلاء ، والشكر حال النعمة ، والبلاء أفضل لأنه على النفس أشق<sup>(١)</sup>  
وعند أكثرهم أن الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف ، لأن الصبر  
حال الفقر والشكر حال الغنى ، فن فضل الشكر على الصبر فى المعنى فكأنه  
قد فضل الغنى على الفقر . قال المكي : وليس هذا مذهب أحد من القدماء  
إنما هذه طريقة علماء الدنيا . فإن من فضل الغنى على الفقر فقد فضل الرغبة  
على الزهد . والعز على الذل ، والكبر على التواضع . وفى هذا تفضيل الراغبين  
والأغنياء على الزاهدين والفقراء ، ويخرج ذلك إلى تفضيل أبناء الدنيا على  
أبناء الآخرة . وإنما فضلنا الصبر على الشكر فى الجملة والمعنى لأن الصبر حال من مقامه  
البلاء ، وأهل البلاء هم الأمثل فالأمثل بالأنبياء . ولأن الصبر أبعد من أهواء  
النفوس ، وأقرب إلى الضر والبؤس ، وأشد فى مكاره النفوس وأنقر لطباعها  
وأشد مباينة لما يلائمها<sup>(٢)</sup> .

وهذا الكلام يمثل اتجاه الصوفية فى أكثر ضروب الحياة ، فالجانب  
الأقرب إلى البؤس والخلول هو عندهم أقرب إلى الطاعة والصفاء ، والظاهر  
أنهم لم يتنبهوا كل التنبه إلى قيمة الشكر فى الغنى ، ولو فطنوا له لعرفوا أن  
الشكر على الغنى يفرض على صاحبه مكاره قد تكون أصعب من الصبر على

البلاء . فالشكر على الغنى ليس كلمة تسهل فتقال ، ولكنه جهاد عنيف يلتقى فيه الأغنياء بلأيا من حرب النفس ، وليس من القليل أن ينتصر الغنى على زوانه وأهوائه وأطاعه فيؤدى حقوق الجاه وحقوق المال ، ويميش عيش الأصفياء الذين لا يعرفون غير الحلال .

٦ - على أن من الصوفية من فضل الشكر على الصبر ، فقد قال مطرّف ابن عبد الله : لأن أعافى فأشكر ، أحب إلىّ من أن أبتلى فأصبر ، لأن مقام العوافى أقرب إلى السلامة ، فلذلك أختار الشكر على الصبر ، لأن الصبر حال أهل البلاء<sup>(١)</sup> .

وصاحب هذا الكلام يرى العافية من أبواب السلامة ، أى سلامة النفوس ، لأن البلاء قد يمرض النفس للجزع والارتباب ، وتعرض النفس للفتنة غير مأمون العوافى ، أما العافية فتحفظ توازن النفس ، وتجمل الرجل قادراً على صالح الأعمال .

والحق أن الإنسان يكابر حين يرحب بالمصائب ، لأنه أسير لنظام الأعصاب فى أكثر الأحيان ، ومن الخير له أن يسأل الله العافية ، وأن يتجنب التعرض للامتحان ، فقد يضاف عن مواجهة ما يشتهى من المصائب ، ويعرف بمدى الانزلاق فى هوة المكارة أن المزيمة قد تفتّر أو تخون .

وعند التأمل نرى النعم والعوافى تزيد فى الصلة الروحية بين الإنسان وبين ربه ، والفرق بعيد بين الحالين ، حال الطمأنينة وحال الاحتساب ،

(١) القوت ج ٢ ص ١٠٥ .

فالطَّمَنُ ينظر إلى ربه نظرة المدين ، وهي نظرة كلها ترفق وتُخَشِّع ، أما الصابر المحتسب فيتعرض للزهو بالصبر على ما يمانى ، والزهو من أشد آفات النفوس<sup>(١)</sup> .

٧ - وهناك مقام الرجاء . والرجاء هو اسم لقوة الطمع في الشيء بمنزلة الخوف اسم لقوة الحذر من الشيء ، ولذلك أقام الله تعالى الطمع مقام الرجاء في التسمية ، وأقام الحذر مقام الخوف ، فقال : يدعون ربهم خوفاً وطمعا<sup>(٢)</sup> والرجاء من أوصاف المؤمنين ، ولا يصح الإيمان إلا به ، كما لا يصح الإيمان إلا بالخوف ، فالرجاء بمنزلة أحد جناحي الطائر ، وهو لا يطير إلا بجناحيه ، كذلك لا يؤمن من لا يرجو من آمن به ويخافه ، وهو أيضاً مقام من حسن الظن بالله تعالى وجميل التأميل له ، وقد أوصى به الرسول فقال : لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى لأنه قال : أنا عند ظنّ عبدي بي ، فليظنّ بي ما شاء<sup>(٣)</sup> ومن علامة صحة الرجاء في العبد أن يكون الخوف باطناً في رجائه ، لأن من تحقق بـرجاء شيء خاف قوته لعظم الرجوّ في قلبه وشدة اغتباطه به ، فهو لا ينفكّ في حال رجائه من خوف فوت الرجاء . والرجاء هو ترويجات الخائفين ، ولذلك سمى العرب الرجاء خوفاً ، لأنهما وصفان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ومن مذهبهم إذا كان الشيء لازماً لشيء أو وصفاً له

---

(١) من كلام القدماء « لا يصبر على مرارة الصبر إلا صادق ، ولا يصبر على حلاوة الشكر إلا صديق » ومن كلام بعض الصحابة « ابتلينا بالفسراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر » انظر اليافعي في هامش جامع الكرامات ج ٢ ص ٣١٤ .

ومعنى هذا أن السراء بليّة ، وإنما كانت كذلك لأن شكرها يحتاج إلى جهاد .

(٢) الفتوح ج ٢ ص ١١٨ .

أو سبباً منه أن يعبروا عنه به ، فقالوا : مالك لا ترجو كذا وهم يريدون مالك لا تخاف<sup>(١)</sup> .

وللصوفية كلام كثير جداً في الرجاء ، واهتمامهم به هو أيضاً من دعائم الأخلاق ، لأن المذنب الذي لا يرجو ربه في قبول التائب ينقلب إلى قوة يائسة خطيرة لا يرجى لها صلاح ، ولا ينتظر منها نفع ، وانقطاع الصلة بين المرء وبين ربه هو أقصى غايات الفساد . وتخويف المرء من ربه له حدود ، ولا ينبغي أن يصل الخوف إلى اليأس : فإن التربية التي تقوم على الخوف المطلق تربية فاسدة ، لأنها تطمس أصول النور في القلب ، وتمنع عناصر الخير من النهوض ، ففي كل إنسان عواطف غافية تنتظر لحظات التيقظ والانتباه ، والرياضة الصحيحة هي التي تعني بإيقاظ ما غفا من عواطف الخير والبر والرشاد .

٨ - ومع أن الصوفية يوصون بالرجاء ، فهم أيضاً يوصون بالخوف ، ويرون أن الحب لا يسقى كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه وكل مؤمن بالله تعالى خائف منه ، ولكن خوفه على قدر قرب<sup>(٢)</sup>ه والخوف نوعان : خوف العموم وهو أن يحفظ رأسه وما حواه من السمع والبصر واللسان ، وأن يحفظ بطنه وما وعاء وهو القلب والفرج واليد والرجل ، فأما خوف الخصوص فهو أن لا يجمع مالا يأكل ، ولا يبني مالا يسكن ، ولا يكثر فيما عنه ينتقل ، وهذا هو الزهد<sup>(٣)</sup> .

(١) انظر بقية هذا الكلام في القوت ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) ص ١٣٤ .

(٣) ص ١٣٥ .

والصوفية يرون الخوف ملاك الحياة الخلقية ، فسر بعضهم هذه الآية « خلق الموت والحياة ليبلوكم » فقال : يبلوكم بتقليب القلوب في حال الحياة بخواطر الذنوب ، وفي حال الموت بالحياد عن التوحيد ، فن خرجت روحه على التوحيد وجاوزت البلاوى كلها إلى البلى فهو المؤمن ، وذلك هو البلاء الحسن ، كما قال الله تعالى « وليبلل المؤمنين منه بلاء حسنا » فهذه المعاني من العلوم أوجبت خوف الخائفين من علم الله تعالى فيهم ، فلم ينظروا معها إلى محاسن أعمالهم ، لحقيقة معرفتهم بربهم (١) .

والخوف عند العلماء على غير ما يتصور في أوهام العامة ، وخلاف ما يمدونه من القلق والاحترق أو الوله والازعاج ، لأن هذه خطرات وأحوال ومواجيد للوالمين ، وليست من حقيقة العلم في شيء ، وإنما الخوف اسم لصحيح العلم وصدق المشاهدة ، فإن أعطى عبد حقيقة العلم وصدق اليقين سمى هذا خائفا ، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم من أخوف الخلق لأنه كان على حقيقة العلم ، ومن أشدهم حبا لله تعالى لأنه كان في نهاية القرب (٢) .

وليس لدينا من الأنوار الروحية ما نستطيع به شرح هذه الإشارة ، وهي تبدو لنا في غاية من العمق ، ويمكن أن نقول إنها تقسم الخائفين إلى طائفتين : طائفة تخاف المذاب فتقاسى أهوال المخاوف الحسية ، وطائفة يمكن خوفها في حقيقة العلم وصدق اليقين ، ولا يظهر عليها جزع ولا هلع ولا إشفاق .



ويُخَيَّلُ إلى أن تفسير هذا الخوف يتمثل في طمأنينة من يعلم فيقف عند  
الواجب ، ولا يمرض نفسه لزيغ ولا إثم ولا فسوق ، ثم يترقى في خوفه  
فيتحلى بأشرف ما يتحلى به القربون ، وعندئذ تنتقل مظاهر الخوف من  
عالم الجسم إلى عالم الروح ، فتكون للعارف أشجان لا يدركها إلا أهل الصفاء .

٩ - ويحيى بعد ذلك مقام الرضا ، والرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ،  
وهو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله عز وجل<sup>(١)</sup> .

وأهل الرضا في الرضا على ثلاثة أحوال : فمنهم من يعمل في إسقاط  
الجزع بحيث يستوى عنده ما يجري عليه من حكم الله ، من المكروه والشدائد  
والراحت والنعم والمطاء ، ومنهم من يذهب عن رؤية رضائه عن الله برؤية  
رضا الله عنه ، فلا يثبت لنفسه قدم في الرضا ، وإن استوى عنده الشدة  
والرخاء والنعم والمطاء ، ومنهم من يجاوز هذا ويذهب عن رؤية رضا الله  
عنه ورضاه عن الله لما سبق من الله تعالى خلقه من الرضا<sup>(٢)</sup> والتأمل يرى في  
هذا المقام قاعدة متينة من أصول الأخلاق ، فالتسليم لله من أدب النفس ،  
وهو يطرد عن القلب نوازع كثيرة يخلقها التفكير في النصيب الحاضر من  
حظوظ الحياة ، ومن الواضح أن هذا المقام يحتاج إلى رياضة شديدة ، لأن  
الرضا لا يكون إلا بعد تطهير القلب من الوسواس النفسية .

وهو بالتأكيـد من أسباب الاطمئنان ، والطمأنينة أكبر الفنائم في الحياة  
الخلقية . وقد يقال إن الرضا المطلق يمتد على البلادة ويفرى النفس بإشار  
الركود ، ونجيب بأنه لا تنافي بين الرضا بالواقع وبين الرغبة في تكميل النفس

(٢) اللع م ٥٤ .

(١) اللع م ٥٣ .

وإمدادها بما تحتاج إليه من الأغذية الدنيوية والعقلية والروحية .

١٠ - ومن أهم المقامات مقام الزهد « وهو أساس الأحوال الرضية ،  
والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل والمنقطعين إلى  
الله والراضين عن الله والتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يُحكم أساسه في الزهد  
لم يصح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا  
رأس كل خير وطاعة<sup>(١)</sup> » .

والمراد هو الزهد في الحلال الموجود ، وأما الحرام والشبهة فتركه واجب<sup>(٢)</sup>  
والزهاد على ثلاث طبقات ففهم البتدئون وهم الذين خلت أيديهم من الأملاك  
وخلت قلوبهم مما خلت منه أيديهم ، ومنهم المتحققون في الزهد وهم الذين  
تركوا حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ، وإنما كان هذا زهد المتحققين لأن  
الزهد في الدنيا فيه حظ للنفس هو الثناء والمحمدة واتخاذ الجاه عند الناس ،  
فمن زهد بقلبه في هذه الحظوظ فهو متحقق في زهده ، أما الفرقة الثالثة فهي  
التي تزهد في الزهد ، ويمثلها قول السبلي : الزهد غفلة ، لأن الدنيا لا شيء ، والزهد  
في لا شيء غفلة<sup>(٣)</sup> .

وقد يبدو لنا هذا القول غريباً أشد الغرابة ، ولكن ما يهمننا ؟ نحن نؤرخ  
فكرة فلسفية فيها الواضح والغامض ، والمقبول والمردود ، وليس من المستبعد  
أن تمر بالنفس لحظات تؤمن فيها بأن الخلق كل الخلق أن يعتقد المرء أن  
الدنيا لا شيء ، ومن التجنى أن نطلق القول بأن هذه النزعة علامة مرض ،

---

(١) اللع ص ٤٦ . (٢) اللع ص ٤٧ وهناك أثر يقول ( ازهد في الدنيا  
يحبك الله ، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس ) .

فقد تكون حيناً من علائم العافية ، ومن العدل أن نقضى بأن الخلق السليم قد يوجب الطمع حيناً ، والزهد حيناً ، يوجب الطمع حين يستطيع المرء أن يوجه منافع دنياه وجهة الخير والشرف ، ويوجب الزهد حين يخشى المرء أن تسير به دنياه إلى مزالق البغى والدودان .

ونشهد صادقين بأننا نحار في تلميل هذه المقامات أشد الحيرة ، ونخاف في أحوال كثيرة من عواقب التجنى على الصوفية ، ففي منافع الميث خير وشرف وجمال ، ولكن فيها أحياناً شرّ وضعة وقبح ، والذي يمشى على صراط الخلق يتذكر الصراط الذي وصفوه بأنه أدق من الشعرة وأحد من السيف .

١١ - ويأتى بعد مقام الزهد مقام الفقر ، وهو عند الصوفية مقام شريف ، يؤيدم فيه قول الرسول : الفقر أزين بالعبد المؤمن من العذار الجيد على خد القرس<sup>(١)</sup> وقد وصفه الخوّاص فقال : الفقر رداء الشرف ، ولباس المرسلين ، وجلباب الصالحين ، وتاج التقين ، وزين المؤمنين ، وغنيمة المارقين ، ومنية المریدين ، وحصن الطمعين ، وسجن المذنبين<sup>(٢)</sup> .

والفقراء على ثلاث طبقات : فمنهم من لا يملك شيئاً ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ، ولا ينتظر من أحد شيئاً ، وإن أعطى شيئاً لم يأخذ وهذا مقام المقربين ، ومنهم من لا يملك شيئاً ولا يسأل أحداً ولا يطلب ولا يمرض ، وإن أعطى شيئاً من غير مسألة أخذ ، ومنهم من لا يملك شيئاً وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانيساطه إليه<sup>(٣)</sup> .

ونحن في هذا المقام نواجه شخصية « الدرويش » وهي شخصية نمتها أشد  
المقت ، لأنها حرب على الأخلاق ، تنهى إلى إثارة الحرب من تكاليف الحياة .  
فالفقير الأول الذي لا يملك ولا يطلب ولا يقبل ليس إلا صورة خيالية ، والأمماء  
لم تخلق عبثاً ، وإنما هي جنود تقوم بوظائف حيوية لا يمتري فيها إلا  
المكابرون . والفقير الذي لا يملك ولا يطلب ثم يقبل هو من الشخصيات الضعيفة  
الحول في هذه الحياة ، والفقير الذي لا يملك ثم ينسبط إلى إخوانه  
حين يحتاج هو إنسان رقيق ، والخير له أن ينسبط إلى العمل والجدة والكفاح  
في ميادين الرزق الحلال .

ولا فنكر أن الصوفية استطاعوا تزيين هذه الشخصيات ، فقد قال أبو علي  
الروزباري : سألتني أبو بكر الدقاق فقال : يا أبا علي ، لم ترك الفقراء أخذ  
البلغة في وقت الحاجة ؟ فقلت : لأنهم مشغولون بالمطلى عن المطاء ، فقال :  
نعم ، ولكن وقع لي شيء آخر فقلت : هات أفدني ما وقع لك . فقال : لأنهم  
قوم لا يفهمهم الوجود إذ الله فاقهم ، ولا تضرهم الفاقة إذ الله  
وجودهم<sup>(١)</sup> .

وهذا كلام طريف ، ولكن يجب أن تقف طرافته عند هذا الحد فلا  
تعمدها إلى وضع القواعد الخلقية ، وإلا سادت الفوضى وعم الكسل  
والجمود<sup>(٢)</sup> .

---

(١) اللوح ص ٤٨ .

(٢) ومن أدب الفقراء ما روى اليافعي بسنده قال . كان عندنا بكة فني عليه أطهار رثة ،  
وكان لا يداخلنا ولا يخالنا ، فوعدت عبته لي قلبى ، ففتح لي بمائتي درهم من وجه حلال  
لحماتها إليه ووضعها على طرف سجادته . وقالت إنه فتح لي ذلك من وجه حلال تصرفه في =

١٢ - ومن المقامات الشريفة مقام الورع ، وهو ملاك الدين ، ومن الصوفية من يتورع عن الشبهات ، وهي ما بين الحرام البين والحلال البين وما لا يقع عليه اسم حلال مطلق ولا اسم حرام مطلق فيكون بين ذلك<sup>(١)</sup> ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك في صدره ، وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب ، وهناك ورع المارفين والواجدين ، وهم الذين يرون أن كل ما يشغلك عن الله فهو مشغوم عليك<sup>(٢)</sup> .

ومن أشرف ما قيل في الورع قول أبي سعيد الخراز : الورع أن تتبرأ من مظالم الخلق ومن مثاقيل الذر حتى لا يكون لأحدهم قبلك مظلة ولا دعوى ولا طلب<sup>(٣)</sup> .

وهذا رأى سديد ، فنحن في الأغلب ننسى حقوق الناس ، وهي كثيرة جداً ، يتصل بعضها بالسلوك ، وبعضها بالماش ، ولا يستطيع تحقيق الورع على هذا الوجه إلا الأقلون .

١٣ - ومن شريف الأحوال المراقبة ، وأشرف أحوال المراقبة أن تمبذ الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك<sup>(٤)</sup> ، أو أن تراقب الله ونسأله أن يرعاك ، فإنه لا بكل خاصته في جميع أحوالهم إلى نفوسهم ، ولا إلى أحد<sup>(٥)</sup> وقال ابن عطاء لبعض حكاء خراسان ممن قد ولع بالجهل وقارن التقشف :

= بعض أمورك ، فنظر إلى شراً ثم قال : اشتريت هذه الجلسة مع الله سبعائة على الفراغ بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات وتريد أن تخدعني عنها بهذه ؟ وقام وبددها ، وضدت أنقطعها ، فأرأيت كثره حين صر ، ولا كذلي حين كنت ألتقطها ( أنظر نعر المحاسن الغالية ج ٢ ص ٣١٧ ) .

(٢) ص ٤٥ .

(١) اللع ص ٤٤ .

(٣) اللع ص ٥٥ .

أَوْ ما علمت أن ما تقارن بيدتك أقذار في جنب ما تطالع بقلبك ، وما تطالعه بقلبك هباء في جنب ما تراقب في سرك ؟ فراقب الله في سرك وعلايتك فإنه خير مما تقارن من عملك وعبادتك .

١٤ - وقد ينشأ عن المراقبة حال القرب وحال الحب ، أما القرب فسيبيله الطاعة وصدق العبودية كما قيل :

تحققتك في السرِّ ففاجاك لسانى  
فاجتمعنا لمان وافترقنا لمان  
إن يكن غيبك التـمـظـيم عن لحظ عيانى  
فلقد صيرك الوجد من الأحشاء دانى

وأما المحبة فسيبيلها الأنس بالنعم الإلهية ، والمحبون على ثلاثة أحوال ، فالحال الأول محبة العامة ، ويتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم ، وعطفه عليهم ، وشرط هذا الحال صفاء الود مع دوام الذكر ، وموافقة القلوب لله وبذل المجهود ، والمبالغة في الثناء على المحبوب . والحال الثانى يتولد من نظر القلب إلى جلال الله وعظمته وعلمه وقدرته ، وهو حب الصادقين ، وشرطه هتك الأسرار ، وكشف الأسرار ، ومحو الإرادات : وأما الحال الثالث فهو محبة الصديقين والعارفين ، وهى تتولد من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة ، فيحبونه كذلك بلا علة ، وقد سئل ذو النون فقيل له : ما المحبة الصافية التى لا كدرة فيها ؟ فأجاب : حب الله الصافى الذى لا كدرة فيه سقوط المحبة عن القلب والجوارح حتى لا تكون فيها المحبة ، وتسكون الأشياء بالله والله ، فذلك المحب لله .

وحب الله من أهم القواعد في بناء الأخلاق ، وهو يحوّلنا إلى أرواح لطيفة لا يصدر عنها شرّ ولا عدوان ، وقد يصل بنا إلى حبّ كل شيء في الوجود ، حين تتمثل العالم كله من صنع المحبوب . وهذا بالطبع لا يتيسر إلا حين يغلب علينا الصفاء ، فننسى البغض والحقد والانتقام والحسد ، وسائر الدسائس الصغيرة التي تفسد جمال الحياة ، وتصير الأحياء أشقياء .

والصوفية يشترطون في الحب أن يتصل بأدب النفس ، فمن المحبة الاستراحة إلى علم الله وحده بحال المحب ، وإخلاص المعاملة لوجهه ، وحسن الأدب فيها وهو الإخفاء لها ، وكنتم ما يحكم به من الضيق والشدائد ، وإظهار ما ينعم به من الألفاف والفوائد ، وكثرة التفكير في نعمائه وخفيّ ألفافه وغرائب صنعه ومعجائب قدرته ، وحسن الثناء عليه في كل حال ، والصبر على بلائه ، لأن المحب قد صار من أهله وأوليائه . والمحبوب قد يعنف بأحبابه لتمكّنه منهم ومكانتهم عنده ، لعلهم أنهم لا يريدون به بدلاً ، ولا يبعثون عنه حولا : إذ ليست لهم راحة لسواه ، ولا بغية في سواه ، ولا همّ لهم إلا فيه ، كما قال بعض المحبين : ويلي منك ، ويلي عنك ، أفزع منك وأشتاق إليك ، إن طلبتك أتعبتني ، وإن هربت منك طلبتني ، فليس لي معك راحة ، ولا لي في غيرك استراحة<sup>(١)</sup> .

وكانت رابعة العدوية من المحبين ، سألتها النوري فقال : لكل عبد شريطة ولكل إيمان حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقالت ما عبدت الله خوفاً من الله فأكون كالأمة السوء إن خافت عملت ، ولا حبّاً للجنة فأكون كأمة السوء

إن أعطيت عملت ، ولكنى عبده حبا له وشوقا إليه<sup>(١)</sup> وخطبها محمد بن سليمان أمير البصرة على مائة ألف وقال : لى غلة عشرة آلاف فى كل شهر أدفعها إليك ، فكتبت إليه : ما يسرنى أنك لى عبد وأن كل ما تملكه لى وأنتك شغلتنى عن الله طرفة عين<sup>(٢)</sup> .

ولها أبيات فى معنى المحبة رواها كبار الرجال من القوم :

أحبك جبين حبّ الهوى      وحبّا لأنك أهلّ لذاكا  
فأما الذى هو حبّ الهوى      فشغلى بذكرك عن سواكا  
وأما الذى أنت أهلّ له      فكشفك للحُجب حتى أراكا  
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى      ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

ولننظر شرح السكى لهذه الأبيات : لأنه يصور فهم الصوفية للحب ، وهو يستكثر أن يدركه من لا ذوق له ولا قدم له فيه ، ويقول فى معنى حب الهوى « إنى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة عين اليقين ، لا عن خبر وسمع وتصديق من طريق النعم والإحسان فتختلف محبتي إذا تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك علىّ ، ولكن محبتي من طريق العيان فقربت منك ، وهربت إليك ، واشتغلت بك وانقطعت عن سواك ، وقد كانت لى قبل ذلك أهواء متفرقة فلما رأيتك اجتمعت كلها فصرت أنت كلبية القلب وجملة المحبة فأنسيتنى ما سواك ، ثم إنى مع ذلك لا أستحق على هذا الحب ولا أستأهل أن أنظر إليك فى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان ، لأن حبي لك لا يوجب عليك جزاء عليه ، بل يوجب علىّ فى كل شيء لك



كل شيء مما لا أطيقه ، ولا أقوم بحقق فيه أبداً ، إذ كنت قد أحبتك فلزمني  
خوف التقصير ووجب على الحياء من قلة الوفاء ، فتفضلت على بفضل  
كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك ، فأريتني وجهك عندك آخراً كما  
أريتني اليوم عندي أولاً ، فلك الحمد على ما تفضلت به في ذا عندي في الدنيا  
ولك الحمد على ما تفضلت به في ذاك عندي في الآخرة ، ولا حمد لي في ذا  
ههنا ولا حمد لي في ذاك هناك ، إذ كنت إنما وصلت إليهما بك ، فأنت المحمود  
فيهما لأنك وصلتني بهما<sup>(١)</sup> .

وهذا التفسير يدل على أن الصوفية لا يقفون في فهم الحب عند الماني  
القطرية ، ولكنهم يتوغلون فيمللون ويحللون ويصبغون الحب بصبغة  
الفكر والعقل ، فهم ينظرون إلى الحب نظرة فلسفية ويضيفونه إلى دقائق  
المشكلات العقلية .

١٥ - ويتصل بحال الحب حال الشوق ، وقد روى عنه عليه السلام أنه  
كان يقول في دعائه : أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك . ولذة  
النظر إلى وجه الله تعالى في الآخرة ، والشوق إلى لقائه في الدنيا<sup>(٢)</sup> وسئل  
بعضهم عن الشوق فقال : هيام القلب عند ذكر المحبوب ، وقال آخر :  
الشوق نار الله تعالى أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من  
الخواطر والإرادات والموارض والحاجات<sup>(٣)</sup> وأهل الشوق في الشوق  
على ثلاثة أحوال : فمنهم من اشتاق إلى ما وعد الله تعالى لأوليائه من الثواب  
والكرامة والفضل والرضوان ، ومنهم من اشتاق إلى محبوبه من شدة محبته ،

(٢) الجمع ص ٦٥ .

(١) القوت ج ٣ ص ٨٤ .

(٣) الجمع ص ٦٤ .

وتبرمه يبقائه شوقاً إلى لقائه ، ومنهم من شاهد في قرب سيده أنه حاضر لا يغيب ، فتتم قلبه بذكره وقال إنما يشاق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب ، فذهب بالشوق عن رؤية الشوق فهو مشتاق بلا شوق ، ودلائله تصفه عند أهله بالشوق وهو لا يصف نفسه بالشوق<sup>(١)</sup> .

وهذا نظر دقيق ، فقوة الحب تذهل المحب عن إدراك حال الشوق ، لأن التفكير في المحبوب ليس إلا من أحوال أهل البدايات في الحب ، فإذا امتزجت الأرواح نسي المحب ونسى الشوق .

١٦ - أما حال الأنس فلا يمكن التعبير عنه بأكثر من قول الطوسي : معنى الأنس بالله الاعتماد عليه والسكون إليه والاستعانة به ومن شواهد ما روى أن مطرف بن عبد الله كتب إلى عمر بن عبد العزيز .

« ليكن أنسك بالله وانقطاعك إليه ، فإن لله تعالى عباداً استأنسوا بالله فكانوا في وحدتهم أشد استئناساً من الناس في كثرتهم ، وأوحش ما يكون الناس آنس ما يكونون ، وآنس ما يكون الناس أوحش ما يكونون<sup>(٢)</sup> » .

وأهل الأنس في الأنس على ثلاثة أحوال ، فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة ، وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب . ويفسر هذا قول سهل بن عبد الله : أول الأنس من العبد أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ، ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصاً فيأنس العبد بالله ، أى يسكن إليه والحال الثاني أن يأنس العبد بالله ويستوحش مما سواه من العوارض والخواطر الشاغلة ،

ويفسره قول ذي النون وقد قيل له : ما علامة الأنس بالله ؟ فقال : إذا رأيته يؤنسك بخلقه فإنه هو ذا يوحشك من نفسه ، وإذا رأيته يوحشك من خلقه فهو ذا يؤنسك بنفسه<sup>(١)</sup> والحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس ، وسئل السبلي عن الأنس فقال : وحشتك منك ومن نفسك ومن الكون<sup>(٢)</sup> .

١٧ — والأنس بالله يقتضى الطمأنينة ، وهى ضروب : طمأنينة العوام الذين إذا ذكروا ربهم اطمأنوا إلى ذكرهم له ، فحظهم منه الإجابة للدعوات باتساع الرزق ودفع الآفات ، وطمأنينة الخواص الذين يرضون بقضاء الله ويصبرون على بلائه ، وطمأنينة خواص الخواص وهم الذين علموا أن سرائرهم لا تقدر أن تطمئن إليه هيبة وتمظيا ، لأنه ليس له غاية تدرك وليس كمثل شئ<sup>(٣)</sup> .

١٨ — والطمأنينة تقتضى المشاهدة ، وهى وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان ، وتمثل فى مشاهدة الأشياء بأعين الفكر ، وأشرف أحوالها أن تشاهد قلوب المارفين مشاهدة تثبت فيكونوا حاضرين غائبين وغائبين حاضرين على انفراد الحق فى الغيبة والحضور ، فيشاهدوه ظاهراً وباطناً وآخرأ وأولاً<sup>(٤)</sup> .

١٩ — والمشاهدة تقتضى حال اليقين ، واليقين هو ارتفاع الشك وليس لزياداته نهاية ، وكلما تفقه المريدون فى الدين ازدادوا يقيناً إلى

(٢) ص ٦٦ .

(٤) ص ٦٩ .

(١) اللع ص ٦٥ .

(٣) ص ٦٧ .

يقين ، ونهاية اليقين تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب <sup>(١)</sup> .

٢٠ - إلى هنا عرف القارئ صوراً من المقامات والأحوال ، ورأى كيف تمثل هذه النوازع فهم الصوفية للحياة الخلقية . ولنقرر أننا اعتمدنا في هذا البحث على كتاب اللع وكتاب قوت القلوب ، وبين هذين الكتابين تفاوت قليل في فهم المقامات والأحوال ، فما يكون حالا عند هذا قد يكون مقاماً عند ذاك .

أما تقسيم بعض المقامات أو الأحوال إلى درجات ثلاث فهو من صنع الطوسي في اللع ، ومن واجبنا أن ننبه القارئ إلى أن هذا التقسيم لا يمدو حدود التقريب ، فالنفس قد يكون لها في الحال الواحد مئات من الأشكال وقد يتقلب القلب في اللحظة الواحدة إلى ضروب مختلفة من الأنس واليقين ، وتلك وثبات روحية لا يعلم تصرفها غير علام الغيوب .

٢١ - ولنشر في ختام هذا الفصل إلى رأى السيو ماسينيون في مقامات العشق ، وهو يرى أن المشاق تقلوا أحوال الحب عن الصوفية ، ومن أمثلة ذلك قول محمد بن داود : « إن الأحوال التي تتولد عن السماع والنظر مختلفة ولها مراتب : فأول ما يتولد عن النظر والسماع الاستحسان ، ثم يقوى فيصير مودة ، والمودة سبب الإرادة ، فمن ودّ إنساناً ودّ أن يكون له خلاً ، ومن ودّ غرضاً ودّ أن يكون له ملكاً . ثم تقوى المودة فتصير محبة ، ثم تقوى المحبة فتصير خلّة ، ثم تقوى الخلّة فتوجب الهوى ، ثم يقوى الهوى فتصير عشقاً ، ثم يزداد العشق فيصير تتيماً ، ثم يزداد التميم فيصير ولها . والشوق

تابع لكل واحدة من هذه الأحوال ، والمستحسن يشاق إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه ، ثم كلما قويت الحال قوى معها الاشتياق<sup>(١)</sup> .

والواقع أن الحب الذى يفهمه ابن داود هو ذاته نزعة صوفية ، فقد وقف عند قول أبي الشيص .

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخر عنه ولا متقدم  
أجد اللامة في هواك لذيدة حباً لذكرك فليلمني اللوم  
أشبهت أعدائى فصرت أحبيهم إذ كان حظى منك حظى منهم  
وأهنتنى فأهنت نفسى جاهدأ ما من يهون عليك ممن أكرم

ثم قال : ولولم يقل أبو الشيص في عمره — بل لو لم يقل أحد من أهل عصره — غير هذه الأبيات لكانوا غير مقصّرين ، وإذا كانت كل خواطر العاشق فيما يتمناه واقعة ممن يهواه على الأمر الذى يرضاه فهذه هى المشاكلة الطبيعية التى لا يفنيها مرّ الزمان ، ولا تزول إلا بزوال الإنسان ، وإذا صح هذا المذهب لم يجب من أن يعيل الإنسان إلى الإنسان بخلة أو خلتين ، فإذا زالت العلة زال الهوى ، فلا يزال الرابط متنقلا إلى أن يصادف من يجتمع فيه هواء فحينئذ يرضاه فلا ينمطف عنه إلى أحد سواه .

وليس من المستبعد أن يكون الصوفية هم الذين أخذوا المقامات والأحوال عن المحبين ، فالحب الحسى يقع أولاً ، ويحيى الحب الروحى ثم الإلهى ثانياً .  
والعرب حين قالوا ( تيم اللات ) أو ( تيم الله ) إنما نقلوا التيم من المحسوس

---

(١) لحصنا هذا من الزمرة ص ١٩ — ٢١ .

إلى المقول فشبهوا الحب الروحي بالحب الحسى ، لأن المحسوس أقوى في  
الظهور من المقول .

وقد ظل الحب الحسى مقياساً للصدق ، حتى صبح لأحدم أن يقول :  
تعصى الإله وأنت تظهر حبه      هذا لعمري فى القياس بديع  
لو كان حبك صادقاً لأطعته      إن الحب لن يحب مطيع

---

## التَّجَرُّدُ وَالْإِسْبَابُ

ما هو التجرد وما هو التسبب — الأغراض التي يطلب من أجلها المال —  
هل التجرد والتسبب في رتبة واحدة — آداب التجرد — آداب التسبب —  
الادخار — رأى الغزالي في المال — الدعوة إلى الفقر — خطر هذه  
الدعوة — هجوم على الصوفية — بعض ما يجلب المال من هوان النفوس .

١ — رأينا عند الصوفية مقامات الفقر والورع والزهد . ولكن لا بد من  
النص على آرائهم في الفقر والغنى ، لأن لذلك صلة وثيقة بمذاهبهم الاخلاقية في  
طرائق المعاش . ونبادر فنذكر أن التصوف يسمى الفقر ، والصوفية يسمون  
الفقراء . وهذا وحده كاف لتعيين مسالكهم في الحياة .

والانقطاع بالكلية إلى الله يسمى التجرد ، وطلب الرزق يسمى التسبب ،  
وهذه الكلمة الثانية لاتزال حية ، والموام في مصر يقولون ( رجل متسبب )  
وربما سموا ما يتجرون به سبباً ، وقد يقولون فيمن يبحث عن الرزق : أخذ  
في الأسباب .

٢ — والصوفية لا يؤثرون الفقر لذاته ، وإنما يؤثرونه لما فيه من  
صرف النفس عن الشواغل الدنيوية التي تبعد المرء من الله . وهم حين  
يدعون إلى جمع المال ينصون على أنه لا يطلب لذاته ، وإنما يطلب للأغراض  
الآتية :

الأول — أن ينفقه المرء على نفسه : إما في عبادة أو في الاستمانة على العبادة ، أما في العبادة فهو كالاستمانة به على الحج والجهاد ، وأما فيما يقويه على العبادة فذلك هو المطعم والملبس والسكن ، وما إلى ذلك من ضرورات العيش ، لأن هذه الشئون إذا لم تتيسر كان القلب مصروفًا إلى تديرها فلا يتفرغ للدين .

الثاني — ما يصرفه في الصدقة والرؤية ووقاية المرض وأجرة الاستخدام . ومن وقاية المرض في رأيهم بذل المال لدفع هجو الشعراء وتلب السفهاء ، وقطع ألسنتهم ودفع شرهم<sup>(١)</sup> وفي وقاية المرض صرف للناس عن رذيلة الاغتياب ، وليس من الإسراف أن يكون للرجل خدم : لأن قيامه بجميع شئونه قد يعطل عليه أوقاته فلا يتفرغ لعبادة الله على الوجه المقبول .

الثالث — ما ينفقه للخير العام كبناء المساجد والملاجئ والمستشفيات<sup>(٢)</sup> . تلك فضائل المال من الوجهة الدينية ، ولا بأس بأن يحمّد المتصوف ما في المال من الحفظ الديني : كالخلاص من ذل السؤال وحقارة الفقر والوصول إلى المز والمجد بين الخلق وكثرة الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب<sup>(٣)</sup> .

وفي تحرير ذلك يقول ابن عطاء الله : اعلم أن الأشياء إنما تدم وتمدح

---

(١) لم تكن عندهم جرائم ولا مجلات .

(٢) الملاهي في التعابير القديمة كانت تسمى الخوانق أو الرباطات . والمستشفيات كانت تسمى دور المرضى أو البيمارستانات .

(٣) انظر الإحياء ج ٣ ص ٢٣٧ و٢٣٨ .



بما تؤدي إليه : فالتدبير المذموم ما شغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله والتدبير الحمود هو ما ليس كذلك مما يؤديك إلى القرب من الله ، ويوصلك إلى مرضاة الله . وكذلك الدنيا ليست تنم بلسان الاطلاق ولا تمدح كذلك ، وإنما المذموم منها ما شغلك عن مولاك ، ومنعك الاستعداد لأخراك<sup>(١)</sup> .

٣ - وليس معنى هذا أن التسبب والتجرد في رتبة واحدة . لا . ليس الأمر كذلك ، ولن يجعل الله من تفرغ لعبادته وشغل أوقاته به كالداخل في الأسباب ، ولو كان فيها متقيا ، فالتسبب والتجرد إذا استوى مقامهما من حيث المعرفة بالله فالتجرد أفضل .

ذلك كلام ابن عطاء الله في ( التنوير )<sup>(٢)</sup> وهو في ( الحكم ) يدعو المريد إلى أن يقيم حيث أقامه الله<sup>(٣)</sup> ولا تناقض بين الفكرتين ، لأنه مع استواء التجرد والتسبب يرى قيام التجرد أعلى وأكمل .

ونحن لا نرتضى هذا الرأي ، ولكن من نحن ؟ نحن نرى التسبب فرصة ذهبية ، لأنه يعرض النفس للمحن ويروضها على البلاء . ولا تعرف قيمة الخلق إلا عند الاتصال بالناس ، والأدب مع الناس موصول الأواصر بالأدب مع الله لأننا لا نحب العدل والإنصاف إلا لتتخلق بأخلاق الله ، ولا نبغض الجور والظلم والعسف إلا ابتغاء مرضاة الله ، والتجرد لا يتعرض لشيء من ذلك ، هو رجل خلت دنياه من أسباب الشقاق والنزاع منذ سلعت نفسه

(١) التنوير ص ٣٣ .

(٢) انظر شرح الرندي ج ١ ص ٤ .

(٣) ص ٣٤ .

من بلايا الأخذ والمطاء . ويمكن الفصل في هذه القضية بأن تفضل التجرد حين نخشى على أنفسنا الضعف عن رعاية الحقوق ، ونفضل التسبب حين نرى في عزائمنا من القوة والصلابة ما ندوس به على المطامع الدنيئة التي تستهوي من يطلبون الأرزاق .

٤ - ولكن ما هو التجرد المحمود ؟ وما هو التسبب المحمود ؟

لقد وضع ابن عطاء الله في ذلك رسالة طريفة سماها التنوير في إسقاط التدبير ، وهي رسالة ممتعة من الوجهة الأدبية والصوفية ، لأنها حوت فقرات كثيرة مما أنشأ الصوفية في الدعوة إلى التخلاق بكرائم الخلال .

وإليك خلاصة ما وضعه لآداب التجرد :

الأول - علمك بسابق تدبير الله فيك ، وذلك أن تعلم أن الله كان لك قبل أن تكون لنفسك ، فكما كان لك مدبراً قبل أن تكون ولا شيء من تدبيرك معه ، كذلك هو سبحانه مدبر لك بعد وجودك ، فكأن له كما كنت له يكن لك كما كان لك .

الثاني - أن تعلم أن التدبير منك لنفسك جهل منك بحسن النظر لها .

الثالث - علمك بأن القدر لا يجري على حسب تدبيرك . بل أكثر ما يكون ما لا تدبر ، وأقل ما يكون ما أنت له مدبر .

الرابع - علمك بأن الله تعالى هو المتولى لتدبير مملكته : علوها وسفلها ، غيبها وشهادتها . وكما سلمت له تدبيره في عرشه ، وكرسیه ، وسماواته ، وأرضه ، فسلم له تدبيره في وجودك إلى هذه العوالم .

الخامس — علمك بأنك ملك لله ، وليس لك تدبير ما هو لغيرك . فما ليس لك ملكه ليس لك تدبيره .

السادس — علمك بأنك في ضيافة الله ، لأن الدنيا دار الله ، وأنت نازل فيها عليه ، ومن حق الضيف أن لا يعمل همًا مع رب المنزل .

السابع — نظر العبد إلى قيومية الله تعالى في كل شيء ، فإذا علم العبد قيومية ربه وقيامه عليه ، ألقى قياده إليه وانطرح بالاستسلام بين يديه .

الثامن — اشتغال العبد بوظائف العبودية ، فإذا توجهت همهته إلى رعاية عبوديته شغله ذلك عن التدبير لنفسه .

التاسع — أن تعلم أنك عبد مربوب ، وحق العبد أن لا يعمل همًا مع سيده مع اتصافه بالافضال وعدم الاهمال ، فإن روح مقام العبودية الثقة بالله والاستسلام إلى الله :

العاشر — عدم علمك بعواقب الأمور ، فربما دبرت أمرًا ظننت أنه لك فكان عليك ، وربما أتت الفوائد من وجوه الشدائد ، والشدائد من وجوه الفوائد ، والاضرار من وجوه المسار ، والمسار من وجوه الاضرار وربما كنت المن في المحن ، والمحن في المن ، وربما انتفعت على أيدي الأعداء وأرديت على أيدي الأحاب<sup>(١)</sup> .

٥ — أما المتسبب فتجب عليه مراعاة الآداب الآتية :

---

(١) انظر التتوير من ٩ — ١٣ .

الأول - ربط العزم مع الله قبل الخروج من المنزل على المفو عن المسيئين إليه ، إذ الأسواق محل المحاصمة والمقاولة ، فيكون كأبى ضمضم الذى كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إني تصدقت بعرضي على المسلمين .

الثاني - أن يتوضأ ويصلى قبل خروجه ويسأل الله السلامة في مخرجه ذلك فإنه لا يدري ماذا يقضى عليه .

الثالث - ينبغى له إذا خرج من منزله أن يستودع الله أهله ومسكنه وما فيه ، فإنه قادر على أن يحفظ ذلك عليه .

الرابع - يستحب له إذا خرج من منزله أن يقول : باسم الله توكلت على الله ، لا حول ولا قوة إلا بالله . فإن ذلك يؤثس منه الشيطان .

الخامس - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وليجعل ذلك شكراً لنعمة القوة والتقوى ، اللتين وهبهما المولى له ، فمن أمكنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بحيث لا يصل إليه أذى في نفسه ، أو عرضه ، أو ماله ، فهو ممن مكن له في الأرض ، والوجوب متعلق به ، وإن كان لا يصل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بالأذى سقط عنه الوجوب .

السادس - أن يكون مشيه بالسكينة والوقار . لقوله تعالى : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » وليس ذلك خاصاً بالمشي ، بل المطلوب منك أن تكون أفعالك كلها تقارنها بالسكينة ويلازمها التثبیت .

السابع - أن يذكر الله تعالى في سوقه ، فإنه قد جاء عنه عليه السلام :

ذاكر الله في الغافلين كالقاتل بين الفارين<sup>(١)</sup> ، ذاكر الله في السوق كالحي بين الموتى .

الثامن — ألا يشغله ما هو فيه من البايعة عن النهوض إلى الصلاة في أوقاتها جماعة ، لأنه إذا ضيعها اشتغالا بسببه ، استوجب المقت من ربه ، ورفع البركة من كسبه .

التاسع — ترك الحلف والإطراء لسلمته ، فقد قال عليه السلام : التجار هم الفجار إلا من بر وصدق .

العاشر — كف لسانه عن الغيبة والنميمة ، وليعلم أن السامع للغيبة أحد المفتاين ، فإن اغتیب أحد بحضرته فليذكر عليه ، فإن لم يسمع منه فليقم ، ولا يمنعه الحياء من الخلق من القيام بحق الملك الحق<sup>(٢)</sup> .

ثم قال ابن عطاء الله : عليك أيها المؤمن بنض طرفك من حين خروجك إلى سبيك إلى حين ترجع ، ولتذكر قول الله تعالى ( قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ) وليعلم أن بصره نعمة من الله عليه ، فلا يكن لنعم الله كفورا ، وأمانة من الله عنده فلا يكن لها خائناً<sup>(٣)</sup> .

٦ — وابن عطاء الله لا يرى التسبب مما ينافي التوكل ، ويقول في ذلك : انظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم ( لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق

(١) في الأصل « الغارين » وهو تحريف .

(٢) راجع التنوير ص ٣٤ — ٣٦ .

(٣) انظر التنوير ص ٣٧ .

الطير ، تغدو خاصاً وتروح بطاناً ) تراه يدل على الأمر بالتوكل على الله تعالى لا على نفي الأسباب ، بل يدل على إثباتها لقوله عليه السلام « تغدو خاصاً وتروح بطاناً » فقد أثبت لها غدوها ورواحها ، وهو سببها ، ونفي عنها الادخار<sup>(١)</sup> .

٧ - وابن عطاء الله لا ينكر الادخار في جميع الأحوال ، وإنما ينكر ما يقع منه بخلاً واستكثاراً ، ومباهاة وافتخاراً ، وهو يقبل ادخار المقتصدين وهم الذين لم يدخروا استكثاراً ولا مباهاة ولا افتخاراً ، وإنما علموا من نفوسهم الاضطراب عند الفقر فعلموا أنهم إن لم يدخروا تشوش عليهم إيمانهم ، وتزلزل إيمانهم ، فادخروا لضعفهم عن حال التوكلين ، وعلماً منهم بمجزهم عن مقام اليقين . وهناك طبقة ثالثة ، هم السابقون ، وادخارهم ليس لأنفسهم ، ولكنه ادخار أمانة ، فإن أمسكوا الدنيا أمسكوها بحق ، وإن بذلوها بذلوها بحق ، وليس المسك لها بحق بدون الباذل لها بحق .

٨ - والنزالي يرى المال كالحبة : يأخذها الراقق ويستخرج منها الترياق ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ، ولا ينجو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى - أن يعرف المقصود من المال : فلا يحفظ منه إلا قدر الحاجة ولا يعطيه من همته فوق ما يستحقه .

الثانية - أن يراعى جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض وما يغلب

عليه الحرام كأموال الحكام الظالمين ، ويحتنب الجهات المكروهة التي تقدر في المروءة : كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة .

الثالثة — أن يراعى في كسبه مقدار حاجته في اللبس والسكن والطعم

الرابعة — أن يقتصد في الانفاق غير مقتر ولا مبذر .

الخامسة — أن يصلح نيته في الأخذ والترك ، والإنفاق والإمساك ، لأن حسن النية هو الأساس<sup>(١)</sup> .

٩ — إلى هنا رأنا القارئ نحتال في صياغة هذا الفصل ، وإنما كان الأمر كذلك لأننا أردنا أن تُنطق الصوفية بالدعوة إلى المال والادخار والحق أنهم غرباء في هذا الميدان ، فالتصوف الإسلامي هو في حقيقته ظل من ظلال المسيحية ، هو هربٌ مطلق من الدنيا ومن الجاه ومن المال ، ولا يدعو إلى الفنى إلا طبقة ضئيلة من الصوفية ، ومن أجل هذا كان خطرهم شديداً على الأخلاق . . . الصوفية جنوا على المسلمين أبشع جناية حين حببوا إليهم الزهد وبغضوا إليهم المال ، الصوفية هم الذين جعلوا المسلمين آخر الشعوب ، وهم الذين قضوا عليهم بالاستعباد ، وهم الذين أوردوهم موارد الذل والضميم والمهوان .

إن أول صوفي تعمق في البحث عن عيوب النفس وآفات الأعمال وأغوار العبادات هو الحارث المحاسبي<sup>(٢)</sup> وهذا الرجل — الذي كان قدوة

(١) الإحياء ج ٣ ص ٢٦٤ .

(٢) أنظر الإحياء ج ٣ ص ٢٦٥ .

لجميع الصوفية — كان من أعداء المال ، ولم تكن عداوته للمال عداوة هينة لأنه ضرب على الوتر الحساس حين ذكّر المسلمين بفقر الرسول ، وهو يتخذ من فقر النبي حجة على شر الغنى وإضراره بخير الدنيا والدين .

وكان الحارث المحاسبي رجلاً قوى النطق زلق اللسان ، وكان من أهل البصر بمكامن الضعف في النفوس ، وقد مكّنت له مواهبه الأدبية والذوقية من نواصي الناس ، فاندفع يذم المال ذمّاً بليفاً لم يصل إلى سمع ولا قلب إلا حوّل صاحبه إلى زاهد أوّاب .

رأى المحاسبي أن جماعة من العلماء احتجوا للغنى بما كان من أمر عبد الرحمن ابن عوف ، وعبد الرحمن هذا كان من صحابة الرسول ، وكانت أمواله ومتاجره مضرب الأمثال ، وقد شهد له النبي بالخير ورجا له حسن المكّاب وكان غنى ابن عوف خليفاً بأن يحبب المسلمين في الغنى ويبين لهم أن كثرة المال لا تنافي الدين ، فاندفع المحاسبي يبدد هذه الشبهة ويبين أن ابن عوف لن يدخل الجنة بالرفق الذي يدخل به الصّاليك ، وإنما يدخل في هيبة وحذر كما يدخل المريب .

ونظرية المحاسبي تقوم على أساس خطر ، فهو يرى الدنيا غير الدنيا والناس غير الناس ، فإن تشبهتم بالصّحابة فأنتم مخطئون « فقد كانوا فيما أحل لهم أزهد منكم فيما حرّم عليكم ، والذي لا بأس به عندهم كان من الموبقات عندهم<sup>(١)</sup> » وليس لكم أن تطعموا في الحلال ، لأنكم لن تجدوه في دهركم



كما وجدوه في دهرهم ، ولن تحتاطوا في طلب الحلال كما احتاطوا ، ولنفرض أنكم ظفرتم بالحلال فهل تأمنون تغير القلوب ؟ إن كان ذلك فأنتم تحسنون الظن بالنفس وهي أمارة بالسوء<sup>(١)</sup> وهل غاب عنكم أن الرسول قال : يدخل صمالك المهاجرين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام ؟<sup>(٢)</sup> وهل نسيت أنه قال : سادات المؤمنين في الجنة من إذا تغدى لم يجد عشاء وإذا استقرض لم يجد قرضا . وليس له فضل كسوة إلا ما يواريه ، ولم يقدر على أن يكتسب ما يفييه<sup>(٣)</sup> .

وكان المحاسبي رجلا مسيحيّ النزعة يرى العلماء كالنخل يخرج منه الدقيق الطيب وتبقى فيه النخالة ، ويرى الحكمة تخرج من أفواههم ويبقى النمل في صدورهم ، ورامم أفسدوا آخرتهم بصلاح دينهم ، وقد روى كلمة المسيح في هذا المعنى ، وهي كلمة لا نحب أن نرويها في كتابنا هذا ، ويكفي أن نشير إلى مكانها في كتاب الإحياء<sup>(٤)</sup> .

١٠ - والحق أن الصوفية اختلط عليهم الأمر حين أحبوا التشبه بالأنبياء فالسبح تصوف لأنه رأى حب الدنيا يعصف باليهود ، والنبي محمد لم يفكر في إصلاح دينه لأنه شغل بتبليغ الرسالة : فكان مثله مثل الداعية الذي يريد أن يقطع جميع الألسنة ويسلم من تلوم السفهاء .

ومن المعقول أن بلوذ الأنبياء والمصلحون بالفقر ليفرغوا لدعوة الخير

(٢) ص ٢٧٠ .  
(٤) ج ٣ ص ٢٦٥ .

(١) الإحياء ج ٣ ص ٢٦٩ .  
(٣) الإحياء ج ٣ ص ٢٧٢ .

ولكن كيف يصبح الفقر شريعة ؟ وكيف يصير من واجب الناس جميعاً أن يعيشوا فقراء ؟

إن جانب الضعف في الأخلاق الصوفية أنها تجعل الفقر مما يجب أن يرغب فيه جميع الناس ، ولو عقل الصوفية لعرفوا أن للفقر خلقة بشعة لا يطعم في التعرف إليها رجل كريم . الفقر هو البلية المظلمة ، والنكبة الكبرى ، والبلاء الماحق ، والشر الملمون . الفقر هو المودة التي يفتضح بها الرجال الفقر هو القتل الذي يُصرَّحُ به الأبطال ، الفقر هو أقبح الصفات التي تنزه عنها الله ذو الجلال ، الفقر فضيلة سخيفة لا يدعو إليها إلا رجل سخي !

١١ - للصوفية عذر واحد ، وهو عذر جميل ، هم يرون حب المال يذهب بالناس إلى البنى في أكثر الأحيان ، ولكنني مع هذا أجزم بأن بنى الغنى أجل صورة من عدالة الفقير ، وهل للفقير عدالة ؟ إنه شخص مضيع وهو في المجتمع لا يحسب له حساب ، والخلق الحق هو الذى يرفع الشخصية الإنسانية ويقيم لها الموازين .

ولو أن الصوفية درسوا الطبيعة الإنسانية حق الدرس لتغير موقفهم في فهم الفقر ، لو أنهم عرفوا أن الفقير لا يصلح لقيادة النهضات الاجتماعية والسياسية والخلقية لأيقنوا أن الغنى سلاح ماض في أيدي المصلحين ، ولكن الواقع أن الصوفية كانت همهم في الأغلب همماً تربية ، أليسوا هم الذين وضعوا القواعد للسؤال ؟ وهل يسأل الناس إلا الصغار والضعفاء ؟ وأى قيمة للخلق إذا انتهى بصاحبه إلى الضعف والصغار ، ونأى به عن مواطن الرجال ؟

إن الجنة وما فيها من خير ونعيم لاتساوى ذلة السؤال ، والله لم يخلقنا  
انسأل الناس ، وهو لم يمنحنا العقل والعافية إلا للاستعبد خيرات الأرض  
ونستغنى عن المخلوقين ، ولولا الأدب لقلت إن الله دعانا إلى الاستغناء عنه  
منذ فطر الأرض والبحر والهواء على خدمتنا خدمةً أبدية لا يُحرَم منها  
إلا أهل الخمود .

إن الله دعانا إلى الكرامة ومهد لنا سُبُلها وأعاننا عليها ، ولم يشأ أن يذل  
الكفار بحرمانهم من استخراج ثمرات الأرض لأنه سبحانه لا يحب لأبنائه  
أن يعيشوا عيش العبيد ، والمؤمن والكافر أمام عدله ورحمته سواء :

الدعوة إلى الفقر تنافى الخلق ، وتنافى الأدب ، وتنافى الإيمان .  
الدعوة إلى الفقر هي السوس الذى قضى على عظام المسلمين وجملهم من أذل  
الشعوب بعد أن كانوا من أقوى الأعزاء .

الدعوة إلى القناعة وذيلة إنسانية لا يحترمها إلا رجل غافل أو مخبول .  
وكيف نقنع وقد هدانا الله إلى أسرار الوجود فمرفنا أن الخير لا نهاية له ،  
وأن النعم أعظم وأكبر من أن تقام له حدود .

لو عاش أهل الأرض بمقول الصوفية وأوهامهم وأغلاطهم لما استطاع  
الإنسان أن يسخر البرق والساء لو عاش أهل الأرض بأذهان الصوفية لما  
كانت هذه النعم التى يمرح فيها أهل الشرق والغرب ، لو عاش أهل الأرض  
بأذهان الصوفية لما كانت هذه الوثبات التى يمج بها العالم السياسى فيقيم قناطر  
من الخير على بحار من الدماء .

الصوفية قوم كسالى وادعسون ذهب بهم الجوع إلى أودية الموت .

١٢ - قد يقول القارئ : وما شأنك أنت ؟ أنت تؤرخ التصوف ، فكيف

تستطيل على الصوفية ؟

وأجيب بأنى أيضاً متصوف ، ولكن أى تصوف ؟ إنه تصوف استقيته من مورد الحياة ، هو تصوف حق يقوم على أساس الحق ، فإن كان التصوف القديم هو الزهد فالتصوف الجديد هو الإخلاص المطلق في حب الحياة والفوز والمجد ، التصوف الذى أدعو إليه هو شره الشريف على فهم ما فى الدنيا من خير وشر ، وجمال وقبح ، وحق وزيف ، هو أن تكون قوة كاشفة قاهرة تستوعب أسرار الوجود ثم تسخره لخدمة الإنسان والحيوان ، هو أن تجعل الدنيا فردوساً يذكر بما وعدت به من نعيم الفراديس ، هو أن تكون غنياً بمقلك وجهدك وخلقك فلا يكون لمخلوق فصل عليك ، هو أن تكون شبيهاً بربك فى كرمه وغناه .

أنا لا أريد أن يتصوف الرجل تصوف العبيد ، وإنما أريد أن يتصوف تصوف الملوك .

١٣ - ولكن هناك وجه آخر نفهم به جمال الدعوة إلى الفقر . وتفصيل ذلك أن الننى لا ينتظرنا فى كل وقت ، ولا تقتنصه حين نشاء ، فقد يحتاج الننى أحياناً إلا مسالك ينفر منها الكريم ، وفى هذه الحال يكون الفقر أجمل وأشرف .

فى أحيان كثيرة يكون من النبيل أن نحرر رقابتنا من رق الطمع ، وأن نتغنى بقول الذى يقول :

حرام على من وحده الله ربه      وأفرده أن يجتدى أحداً رعداً  
ويا صاحبي قف بي مع الحق وقفة      أموت بها وجدوا أحياء بها وجداً  
وقل للوك الأرض تبجد جهدها      فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

وأنت لو نظرت حولك لرأيت طوائف من الأغنياء لم يصلوا إلى غنهم  
إلا بوسائل يفزع من تصورهما كرام الرجال : فهذا الذي يسكن قصرًا فخماً  
ويعيش عيش الأسماء لم يصل إلى الغنى إلا منذ اليوم الذي باع فيه نفسه  
وقلبه وضميره لأحد الوزراء أو لأحد الأحزاب ، وذاك الذي يأمر وينهى  
ويطغى ويستطيل هو في حقيقة أمره أذل من القراد بمناسم الجبال الجرب  
لأنه لا يصبح ولا يمسي إلا وهو تابع ذليل ، وذلك الذي لا يمد يده لمصاحفتك  
إلا وهو متكاف ، ولا يواسيك إن حزنت ، ولا يعودك إن مرضت ، ولا  
تراه إلا أشم الأنف منتفخ الأوداج ، ذلك المتكبر المتعجب الذي يحاول أن  
يخرق الأرض ويطاول الجبال ، هو في قرارة نفسه مستعبد لجهة قوية يرى  
سوطها مسلطاً عليه في كل حين ، وهو على كبريائه ترتد فرائضه كلما تمثل له  
شبح من يملك أمره في يقظة أو في منام .

إن أكثر من ترى من أصحاب الحول والطول كان مثلهم مثل المرأة التي لا تفرط  
في عرضها بسبب القوت ، وإنما تفرط في عرضها لتتقضى لبانتها من الترف ،  
وبعض النساء لا يؤذيها أن تجوع ، ولكن يؤذيها أن تخرج وهي عاطل من  
الأساور والدمالج والخلاخيل .

وهل تظن أن الذي يبيع ضميره يبيعه لبقطات ؟ وكيف يكون الأمر  
كذلك وأكبر البطون يملؤه رغيف جاف ، ويرويه كوب من الماء القراح ؟

إنما يبيع الناس ضمائرهم ليتحلوا بالحُلَى الكواذب من صور الأمر والنهى والطمع .

انظر هذه النظرة إلى حقائق الجاه والمال ، ثم ارجع إلى الصوفية تجددم أعقل الناس وأشرف الناس .

١٤ - أترك نظرت وفكرت ؟ إن كنت فعلت فاعلم أن الصوفية حين دعوا إلى الفقر والورع والزهد لم يكونوا عابثين ، وإنما كانوا يدافعون عن الكرامة الإنسانية التي لا تضيع ولا تنهن إلا في أسواق المنافع . وحفظ الكرامة هو الحجر الأول في صرح الأخلاق .

انظر هذه النظرة لترى ما في مسالك الصوفية من المعاني الشرعية ، وهل من القليل أن تخلص من ربة الأغراض فلا يكون لأحد سلطان عليك ؟ هل من القليل أن تشعر بأن مائدتك الجافية هي من كسب يدك ، وأن ثوبك الحقير لم ينسج خيوطه أحد سواك ؟ هل من القليل أن تعرف زوجتك وأن يعرف أبنائك أن ليس لهم سيد بعد الله غيرك ؟ هل من القليل أن يكون كل ما في بيتك من أثاث ورياش إنما وصل إليك بفضل كدحك ، وإن كان غطاؤك من الخيش ، ومريرك من الجريد ؟

إن الصوفية لا يحرمون عليك أن تثرى من الحلال ، فقد كان الصوفية بالفعل من أهل الكسب ، ولكن أى كسب ؟ انظر إلى أسمائهم وألقابهم تجد فيهم الخواص والحرار والوقاد والصباغ والحداد والسماك والقصاب والدقاق .

انظر إلى ألقابهم تجددم كانوا من أهل المارة والصناعة والزراعة ، انظر

إلى ألقابهم تجدهم كانوا من أقطاب السعى في سبيل الرزق الحلال .  
١٥ - كن كيف شئت في فهم الدنيا والمعيش ، ولكن تذكر أن المتصوف  
رجل دقيق الإحساس ، وأنه لا يهون عليه في سبيل الدنيا ما يهون عليك ،  
ومن أجل هذا تراه في أدبه صادقاً كل الصدق ، وتكاد تلمس في كل سطر بل  
كل حرف أنه يخفى بلية موجمة رماه بها التصون والعفاف .

وما نريد أن نسلك جميع المتصوفين في سلك واحد ، هيات ، فنحن  
نحتقر التبذل الذي يؤسم بالتعفف . ولكننا لانملك الغض من الأدب  
الحق ، أدب النفوس التي ترحب بالفقر حين لا ينال الغنى إلا بالذل ، ولا يدرك  
إلا بالضم .

وفي ظلال هذه المعاني نقرأ أدب الصوفية في ذم الغنى ومدح الفقر فتراه  
صوراً طريفة من أحوال النفوس والقلوب ، ونرى أنفسنا أمام صروح عالية  
من مكارم الأخلاق .

إن الصوفية الصادقين لا يؤثرون الفقر إلا فراراً من المال المشوب بالشبهات .  
والخوف على النفس والقلب والضمير من أدناس الحرام هو خوف نبيل  
لا يستشمره غير صحاح القلوب .

وما أسعد من ينفرون من الحرام ، ولا يأنسون بغير الحلال !

# أَبَا الطَّعَامِ

متابعة الصوفية للرسول في خشونة الطعام — غرتهم من البطنة  
وإبتارهم للحرمان — قبول فريق منهم لأطعمة السلاطين — فضل  
الجوع في كبح الشهوات — أثر الجوع في قتل الحيوة — فضل الطعام  
في إعداد الرجال لجلال الأعمال — السر في إسراف الصوفية حين  
يتحدثون عن الطعام — الشبه بينهم وبين شعراء البادية — شغلهم  
بترتيب أوقات التلذذ — رأيهم في دعوة الإخوان — أدب المائدة —  
رأى ابن آدم في الطعام والأثاث واللباس — نفرة بعضهم من  
إجابة الدعوات .

١ — الصوفية يتابعون الرسول في خشونة الطعام ، والرضا منه بالقليل ،  
وكان عليه السلام يأكل خبز الشعير غير منخول ، وما ذم طعاما قط ، لكن  
إن أعجبه أكله ، وإن كرهه تركه ، وإن عافه لم يُبغضه إلى غيره ، وكان يَلْمُقُ  
بأصابه الصَّخْفَةَ ، وكان يَلْمُقُ أصابعه من الطعام حتى تحمر . وكان لا يمسح  
يده بالمندبل حتى يلمق أصابعه واحدةً واحدةً ، وكان لا يسأل أهله طعاما  
ولا يتشبهاء عليهم ، ما أطعموه أكل ، وما أعطوه قَبِلَ ، وما سَقَوْهُ شرب ، وكان  
ربما قام فأخذ بنفسه ما يأكل أو يشرب<sup>(١)</sup> .

وكان يقول « إياكم والبطنة فإنها مُفْسِدَةٌ للبدن ، مُورِثَةٌ للسَّعَمِ ،  
مكسلة عن العبادة » ويقول « ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه ، حَسْبُ

(١) تلك من الجوانب الحشنة من حياة الرسول في طعامه ، وهذه فقرات أخر جناها من  
كلام كثير كتبه الغزالي في الإحياء ج ٢ ص ٣٦٨ و٣٦٩ وللرسول طرق غير هذه في طعامه  
ولكن الحشونة كانت أغلب .



ابن آدمَ لَقِيَمَاتٍ يُقِمْ مَنَ صُلْبِهِ ، فَإِنْ كَانَ لَا بَدَّ فَتُكِّ لِلطَّعَامِ ، وَتُكِّ لِلشَّرَابِ ، وَتُكِّ لِلنَّفْسِ «<sup>(١)</sup>» .

٢ - وقد أُمِرَتْ عن الصوفية أقوالٌ في النهي عن كثرة الطعام ، قال مالك بن دينار « وددت أن رزقي حصاة أمصّها فقد ضجّرت من كثرة ترددي إلى الخلاء » وباع جارية فزارته يوماً فقال : كيف ترين مواليك ؟ فقالت ؟ ما أكثر خير بيوتهم ! فقال : أخبرني عن عمرانٍ حشوشهم «<sup>(٢)</sup>» .

وهو بهذا لا يتمثل طيبات الطعام إلاّ مقرونة بما ستصير إليه ! .

٢ - ويمكن الجزم بأن سياسة الصوفية فيما يختص بالطعام كانت قائمة على أساس الحرمان «<sup>(٣)</sup>» وكان فيهم من يصوم الدهر « ولا يفطر غير أيام العيدين وأيام التشريق »<sup>(٤)</sup> « وسُمع شعيب بن حرب يقول :

« أَكَلْتُ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ أَكَلَةً ، وَشَرِبْتُ شَرِيَةً »<sup>(٥)</sup> « وتحدث التستري عن نفسه فقال : « رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصاراً على أن يشتري لي بدرهم من الشعير الفرق فيطحن ويخبز لي فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بمحّتا بغير ملح ولا إدام ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة . ثم عزمت على أن أطوي ثلاث ليال ، ثم أفطر ليلة ، ثم خمسا ثم سبعا ، ثم خمسا وعشرين ليلة ، وكنت عليه عشرين سنة »<sup>(٦)</sup> .

ومن الصوفية من حدث عن نفسه أنه تقوت في بضعة عشر يوماً - أو

(١) معاضرات الأصفهاني ج ١ ص ٣٠٢ .

(٢) المصدر السابق - والحشوش في الأصل البساتين وكانوا يقضون فيها الحاجة .

(٣) الكشكول ص ٢٥٨ .

(٤) معجم البلدان ج ٥ ص ٣٩٨ .

(٥) تاريخ بغداد ج ٩ ص ٢٤١ .

(٦) القشيرية ص ١١٥ .

قال سبعة عشر يوماً - خمس حبات ، أو قال ثلاث حبات . فقيل له : وكيف عملت ؟ فقال : لم يكن عندي غيرها ، فاشتريت بها لفتا ، وكنت آكل كل يوم واحدة . ولا عبرة بأن يقال إن هذا الرجل اكتفى بهذا القدر للضرورة فقد أثر عنه أنه كان لا يسأل أحدا شيئا<sup>(١)</sup> .

٣ - ومع إظهار الصوفية للإقلال من الطعام ، والرضا من العيش بالدون ، كان فيهم من يأكل طعام السلاطين ويقبل جوائزهم ، وقد بلغ ابن عبد البر ، وهو بشاطبة ، أن قوماً عابوه بأكل طعام السلطان وقبول جوائزهم ، فقال :

قل إن ينكر أكلى لطعام الأمراء  
أنت من جهلك هذا في عمل السفهاء

لأن الاقتداء بالصالحين ، من الصحابة والتابعين ، وأئمة الفتوى من المسلمين ، من السلف المباضعين ، هو ملاك الدين<sup>(٢)</sup> فقد كان زيد بن ثابت وهو من الراسخين في العلم يقبل جوائز معاوية وابنه يزيد ، وكان ابن عمر مع ورعه وفضله يقبل هدايا صهره المختار بن أبي عبيد وياً كل طعامه ويقبل جوائزهم . وقال عبد الله ابن مسعود - وكان قد ملأ علماً - لرجل سأله فقال : إن لي جاراً يعمل بالربا ولا يجتنب في مكسبه الحرام يدعوني إلى طعامه فأجيبه ؟ قال . نعم ، لك المهنأ ، وعليه السأثم ، ما لم تعلم الشيء بعينه حراما . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه حين سئل عن جوائز السلاطين : لحم

(١) تاريخ بغداد ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) العبارة للمقرئ - نفع الطيب ج ٢ ص ١٥٨ .

ظبي ذكي . وكان الشعبي — وهو من كبار التابعين وعلمائهم — يؤدب بني عبد الملك بن مروان ويقبل جوائزهم ويأكل طعامه وكان إبراهيم النخعي وسائر علماء الكوفة والحسن البصري مع زهده وورعه وسائر علماء البصرة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان والفقهاء السبعة بالمدينة حاشا سعيد بن المسيب يقبلون جوائز السلطان .

وكان مالك وأبو يوسف والشافعي وغيرهم من فقهاء الحجاز والعراق يقبلون جوائز السلاطين والأمراء ، وكان سفيان الثوري مع ورعه وفضله يقول : جوائز السلطان أحب إليّ من صلة الإخوان ، لأن الإخوان يموتون والسلطان لا يمت ، ومثل هذا عن العلماء والفضلاء كثير قد جمع الناس فيه أبواباً<sup>(١)</sup> .

٤ — ويظهر من هذا أن الصوفية كانوا فريقين : فريقاً يبالغ في الإقلال الطمالة ويروض نفسه على الجوع ، وفريقاً يتسامح بمض التسامح فيوسع على نفسه بأكل ما يصل إليه من أطعمة السلاطين والأمراء .

ولكن الحال الغالب عليهم هو الحرمان ، وكان فيهم من يحرص على خبز الشعير<sup>(٢)</sup> ويتجنب ترف الاستحمام<sup>(٣)</sup> وإيثار الشعير له معناه ، فهو في خشونته من حيث الطعام يناسب الصوف في خشونته من حيث اللبس ، وإذا التقت خشونة الطعام وخشونة اللباس مع هجر الحمام نشأت عن ذلك

---

(١) العبارة للمقرئ — نفح الطيب ج ٢ ص ١٨٥ (٢) القشيرية ص ١٥  
(٣) في النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٦ « أن الحسين بن أحمد كان زاهداً عابداً لا ينال إلا عن غلبة ، وكان لا يدخل الحمام ، ويأكل خبز الشعير » ورفض الحمام ليس معناه الانصراف المطلق من الاستحمام

صورة شعناء لا يتمثلها الرجل المترف إلا بمنف شديد .

ولا جدال في أن لذلك تأثيراً على الأخلاق ، لأن المرء يتأثر في أخلاقه بما يأكل وما يلبس ، فما قيمة ذلك من الوجهة الأخلاقية ؟ .

نستطيع أن نحزم بأن سياستهم في الطعام لها أثر بالغ في حرب الشهوات ، فالرجل لا تصبو نفسه ، ولا يطمح بصره ، إلى الحسن الممنوع ، إلا حين ينشط الجسم وتهيج الحواس ، وهيات أن تستيقظ جوارح رجل يكتفى بخبز الشعير ، ثم لا يأكل منه إلا القليل .

والذين يتخلقون بأخلاق الصوفية في الطعام يستطيعون بسهولة أن يستهينوا بما تعرض الحياة من صنوف الشهوات . وقد كنت وأنا طالب في الأزهر أكتفى بالخبز الجاف مصحوباً بإدام تافه هو الفول المدمس في الصباح ، والفول النبات في المساء ، وكنت يومئذ في ميعة الشباب ، ومع ذلك لا أذكر أنني تعرضت لشهوة جامحة أو هوى غلاب .

هذا جانب من الفضل في تلك السياسة الصوفية<sup>(١)</sup> .

أما الجانب الآخر فهو الخطر الذي يهدد من يكتفون بالطعام الخشن القليل .

إن الجوع يقتل الحيوية ، ويروض الجائع على صفر النفس ، وموت العزيمة ، وانحلال الشخصية . ولا يمكن لرجل يكتفى بأكلة واحدة في الأسبوع أن يكون من رجال الأعمال . وما الذي يحمل المرء على التفكير في

---

(١) في وثوق القلوب ص ٤٢ — ٦١ ج ١ كلام مطول عن نظام الأكلات عند المريدين وهو يفصل رأى الصوفية في العام تفصيلاً مبيّناً .

عظائم الأمور وهو يعيش في العام بديرام معدودات ؟ .

إن الطعام يقوى شهوة النهم ، كما يقول البصيرى ، والنهم يتطلب وقوداً من طليات الأرزاق ، والرزق الطيب لا ينتهب ولا يختلس ، ولكنه يأتي بفضل المزيعة التوثبة والساعد المتين .

فلا حرج علينا بعدم هذا البيان ، من التصريح بأن الصوفية فتنوا العالم الإسلامى ، وأضرروا به ، حين حبيوا إليه الظماً والجوع .

ونظرة في مدينة كاتقاهرة ترينا شاهد ذلك . فطبقات الموام يحمدون الله على الخبز والملح والماء . . ، ومن أجل هذا يسرون في الحياة بخطوات بطيئة متساقطة ، ويكتفون بالمساكن القذرة ، والمأكّل الخسيسة ، والملابس الرخيصة ، على حين يقتحم الأجانب حصون المنافع الاقتصادية ، ويأكلون الطليات ، ويقيمون في أحياء جميلة هم منشئوها ، ويعرفون أدب الزينة وأدب الاستقبال .

ولو سألت الرجل الداوى الجسم بفضل الجوع أن يتأهب للحرب لتردد وجذع ، وكيف يرحب بالحرب وليس له فيها مغنم مرموق ؟ أما الرجل الذى عرف أطايب العيش ففيه من قوة المراس ، وحب النضال ، والشوق إلى المراك ، ما يدفعه إلى المخاطرة بنفسه في سبيل ما تنتج الحرب من مغنم وأسلاب .

والموت نفسه قد يتمثل للرجل السليم متعة رياضية ، أما الجسم العليل فقد شبع من الموت !!

هـ - ولكن ما رأى القارىء في أن الحرمان الذى كاد يلترمه الصوفية عاد بشيء من النفع على قواعد الأخلاق ؟ .

لقد حرم الصوفية أنفسهم من الطعام ، فكان ذلك الحرمان سبباً  
لإكثارهم من التحدث عن الطعام ، وأدب الطعام ، ومثلهم في ذلك مثل  
شعراء البادية ، فإن قصائد المديح في الجاهلية وصدر الإسلام يكثر فيها  
الكلام عن اللحوم والألبان ، ويكثر فيها مدح الكرماء بكثرة الرماد وهزال  
الفصلان ، ويرجع ذلك إلى أن الشعراء كان أكثرهم من أهل الفقر والجوع  
فكان نحر الجزور يتمثل لهم شيئاً هائلاً جداً ، وكان الشعر ترقص عرائسه  
في أحلامهم كلما تصوروا المصعب وقد جدّ له السيف ، وكان خير الرجال عندهم  
من صح فيه قول النابغة الذبياني :

له بفناء البيت سوداء نغمة

تلقّم أوصال الجزور المراعر<sup>(١)</sup>

وخير الناس من صح فيهم قول مسكين الدراي :

كأن قدور قوى كل يوم

قباب الترك ملبسة الجلال<sup>(٢)</sup>

كأن الموقدين بها جمال

طلاها الزفت والقطران طالى

بأيديهم مغارف من حديد

أشبهها مقبرة الدوالي<sup>(٣)</sup>

---

(١) السوداء هنا هي القدر ، والجزور الناقة ، والمراعر المظيمة الخلق .

(٢) الجلال : الأغطية السود .

(٣) المقبرة : المطيلة بالقار وهو الزفت ، والدوالي جمع دالية وهي الدلو — وهذا الشعر  
منقول من باب الأضياف والمديح في الحماسة وله نظائر كثيرة جداً .

فحرمان الصوفية من الطعام شغلهم به ، وحملهم على وصف أصنافه ، والتهيؤ للصبر عنه ، وبسط القول فيما ينبغي له من آداب<sup>(١)</sup> .

٦ - ومصداق ذلك أنا نراهم يتحدثون عن رياضة النفس على الجوع باهتمام شديد ، هو آية الحرص على الطعام لو يعلمون ، كأن يقول صاحب قوت القلوب :

« ومن كان ذا معلوم فالستحب له أن لايزيد على رغيقت في يوم وليلة ، وليجعل بينهما وقتاً طويلاً مرة ، وقصيراً أخرى ، على حسب الحاجة وتوقان النفس إلى الغذاء ، لا على طرد المادة والشهوة ، والرغيف ستة وثلاثون لقمة ، يكون قوام النفس في كل ساعة ثلاث لقمات ، فإذا أراد أن يأكل الرغيف على هذا التقسيم فليجرع بمد كل ثلاث لقم جرعة ماء ، فذلك اثنا عشر جرعة في تصاعيف ستة وثلاثين لقمة ، ففي ذلك قوام الجسم وصلاحه في كل يوم وليلة على هذا الترتيب<sup>(٢)</sup> »

وهذه الرياضة اليومية ، أو الساعية إن شئت ، هي الشغل كل الشغل بالطعام !

٧ - وقد تحدثوا عن أدب المائدة ودعوة الإخوان ، وعن الإكثار والإقلال ، فقالوا ، مثلاً ، إن من إكرام الضيف تمجيل الطعام لهم ، وأفضل ما قدم إليهم اللحم ، وخير اللحم السمين النضيج ، فإن كان بعد اللحم حلاوة فقد جمع لهم الطيبات<sup>(٣)</sup> .

وهذا التحديد له دلالة نفسية .

---

(١) الصوفية في ذلك كالمشائخ أكثرهم حديثاً عن الألقاء والوصال والعصوات ثم المحرومون .

(٢) قوت القلوب ج ٤ ص ٤٦ .

واستحبوا أن يأكل الرجل في منزل أخيه على نحو ما يأكل في منزله  
بغير تكلف ولا ترين ، لأنه قد يدخل من الرياء والترين في الطعام مثل  
ما يدخل في سائر الأعمال<sup>(١)</sup> .

وتلك دقة في فهم أحوال النفس .

وحدثوا أن سفيان الثوري دعا إبراهيم بن أدهم وأصحابه إلى طعام فقصروا  
في الأكل ، فلما رفضوا الطعام قال له الثوري : إنك قصرت في الأكل فقال  
إبراهيم : قصرت أخدم في الطعام فقصرنا في الأكل<sup>(٢)</sup> .

ودعا إبراهيم الثوري أصحابه إلى طعام فأكثر منه فقال له : يا أبا اسحق ،  
أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال إبراهيم : ليس في الطعام إسراف<sup>(٣)</sup> .  
وم يوصون بلمق الأصابع ، وأكل ما سقط من فئات الطعام لأنه فيما يقال  
من مهور الحور العين<sup>(٤)</sup> .

وقال أبو سليمان الداراني : أكل الطيبات يورث الرضا عن الله عز وجل :  
وهذه الجلة كررها لكي فذكرها في فصلين متجاورين ، ولهذا  
التكرار معنى .

ومن الأخبار التي اهتموا بروايتها أن المائدة التي أزلت على بني إسرائيل  
من السماء كان فيها من كل البقول إلا الكراث ، وكان فيها سمكة عند رأسها  
خل ، وعند ذنبها ملح ، وكان عليها سبعة أرفعة ، على كل رغيف زيتونتان ،  
وحب رمان ، وهذا عندهم من أحسن الطعام إذا اتفق<sup>(٥)</sup> .

---

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ٦٥ . (٢) القوت ج ٤ ص ٦٤ .



وحدثوا أن الحسن البصرى قال : كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم يحاسب عليها ، إلا نفقة الرجل إذا دعا إخوانه إلى طعام ، فإن الله سبحانه ونمالي يستحي أن يسأله عن ذلك<sup>(١)</sup> .

وحضر الثورى - وكان صوفياً - على مأثدة أحد أبناء الدنيا ، وكان فيه بخل ، فقدم حملاً<sup>(٢)</sup> فجعلوا يأكلون ، فلما رآهم يمزقون كل ممزق ضاق صدره فقال : يا غلام ارفع إلى الصبيان ، فرفع الحمل إلى داخل الدار فقام الثورى يمدو خلف الحمل ، فقال صاحب المنزل : إلى أين ، يا أبا عبد الله ؟ فقال : آكل مع الصبيان ! فاستحيا الرجل وأمر برد الحمل حتى استوفوا منه<sup>(٣)</sup> وحدث أحدهم قال : كنا في جماعة عند رجل فجعل يقدم إلينا ألوان الرؤوس ، منها طبيخا وقديداً . فجعلنا نقصر في الأكل نتوقع بعد الألوان حملاً أو جدياً . قال : فجاءنا بالطست ولم يقدم إلينا غيرها ، فقال لى بعض الشيوخ من أهل التصوف وكان مزاحاً : هو تعالى يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان ! قال : فبتنا تلك الليلة جوعاً ، فطلب بمضنا فى آخر الليل خبزاً أو فتيتاً لسحوره<sup>(٤)</sup> .

ودفع ابراهيم بن آدم إلى بعض إخوانه دراهم فقال : خذ لنا بهذه زبداً وعسلًا وخبراً حورانياً ، فقال : يا أبا اسحق ، بهذا كله ؟ ! فقال ابن آدم : ويحك ! إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا عدمتنا صبرنا صبر الرجال . وأصلح ذات يوم طعاماً فأكثر ، ودعا نفرأ يسيراً منهم الثورى والأوزاعى ،

(١) القوت ج ٤ ص ٦٨

(٢) فى الأصل « حملاً » بالميم ، والأصوب أن تكون « حملاً » بالحاء المهملة .

(٣) القوت ج ٤ ص ٧١

(٤) القوت ج ٤ ص ٧٢

فقيل له : أما تخاف أن يكون هذا إسرافا ؟ فقال : ليس في الطعام إسراف ، إنما الإسراف في الأثاث واللباس <sup>(١)</sup> .

وحدثوا عن سهل أنه سئل كيف كان في بدايته فأخبر بضروب من الرياضات منها أنه كان يقات ورق النبت مدة ، ومنها أنه أكل دقاق التبن ثلاث سنين ، ثم ذكر أنه اقتات ثلاثة دراهم ثلاث سنين ، قيل وما هو ؟ قال : كنت أشتري في كل سنة بدائنين تمرًا ، وأربعة دوانق كُسبا ، ثم أعجنها عجنة ، ثم أجزئها ثلثمائة وستين كبة أفطر في كل ليلة على كبة ، فقيل له : فكيف أنت في وقتك هذا ؟ قال : آكل بلا حدي ولا توقيت <sup>(١)</sup> .

وكان معروف الكرخي يهدي إليه طيبات الطعام فيأكل فيقال له : إن أخاك بشرا لا يأكل من هذا فيقول : أخى بشر قبضه الورع ، وأنا بسطنتى المعرفة ، ثم قال : إنما أنا ضيف في دار مولاي ، إذا أطمعنى أكلت ، وإذا جوعنى صبرت ، مالى والاعتراض والتخير <sup>(١)</sup> !

٨ - فهذا كله دليل على شغفهم بالطعام ، ومع هذا كان فيهم متكبرون وهم عند بعضهم من أنفة النفوس ، قال قائلهم : أنا لا أجيب دعوة . قيل : ولم ؟ قال : انتظر المرقعة ذل . وقال آخر : إذا وضعت يدي في قصعة غيرى ذلت له رقبتي . وكان بعضهم يقول : لا تجب دعوة إلا من يرى لك أنك أكلت رزقك . وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده ، ويرى لك الفضل في قبولها منه <sup>(١)</sup> .

٩ - هذا ، ولا مفر من الاعتراف بأن ما وضع الصوفية في كتبهم من أدب الطعام أكثره مقبول ، يشهد بحسن الفهم وسلامة الذوق ، ويدل على بصر بأوضاع الحياة الاجتماعية ، ولا يمنع من صحته ما نراه من تغير آداب الأطعمة والموائد ، فإننا لا نحكم لهم أو عليهم إلا بما أن تتمثل ما كانوا عليه من الحياة الفطرية .  
ولكل زمن آداب .

---

## أَبَابُ الصَّيِّدِ

١- ينظر الصوفية إلى الصيام نظرة خلقية وروحانية ، وهم يقسمونه إلى ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص .

أما صوم العموم فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام ، وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية ، والأفكار الدنيوية ، وكفه عما سوى الله عز وجل بالسكينة ، كما عبر الغزالي في الجزء الأول من الإحياء .

وليس الطعام وحده ، ولا الشراب وحده ، ولا اللس وحده ، مما يفطر به الصائم عند الصوفية . فهناك أشياء يفطر بها الصائمون ويفسد بها الصيام وليست مع ذلك من اللس أو الطعام أو الشراب ، فالصائم يبطل صومه في نظر الصوفية بالفكر فيما سوى الله عزّ شأنه واليوم الآخرة ، وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تُراد للدين لعدّة ذلك من زاد الآخرة .

ويرى بعض الصوفية أن من تحركت همّة بالتصرف في نهاده لتدبير ما يفطر عليه كتبت عليه خطيئة ، لأن ذلك لا يقع إلا من قلة الوثوق بفضل الله وقلة اليقين بالرزق الموجود .

## ٢ - وصوم خصوص الخصوص لا يتم إلا ب ستة أمور :

الأول - غض البصر وكفه عن النظر إلى كل ما يُذَمّ وكل ما يكره ، وإلى ما يشغل القلب وينهى عن ذكر الله .

الثاني - حفظ اللسان عن الفضول - وهم يعبرون عنه بالهذيان - وحفظه عن الكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء وإلزامه السكوت وشغله بذكر الله وتلاوة القرآن .

ومن الصوفية من يرى أن الغيبة تفسد الصوم ، وهم يستندون إلى أحاديث مروية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

الثالث - كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ، لأن كل ما حرّم قوله حرّم الإصغاء إليه . ولذلك سوّى الله سبحانه بين السمع وأكل السحت فقال « سماعون للكذب ، أكّالون للسحت » وقال « لولا ينهائم الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت » .

الرابع - كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل ، وكفها عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار لأنه لا معنى للصوم عن الحلال ثم الإفطار على الحرام .

الخامس - أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ ، فما من وعاء أبنض إلى الله من بطن مليء من حلال ، فالصوم يراد به قهر أهواء النفس أو كما يقولون قهر عدو الله الشيطان . وقهر أهواء النفس أو كما يقولون كسر الشهوة لا يتم لمن يتدارك عند فطره ما فاتته في نهاره من ألوان الطعام والشراب .

ولم يفت الصوفية أن ينصوا على الخطر الذى يهدد من يسرف فى الأكل بعد أن تخوى معدته ، وهم يرون ذلك يضاعف قوة النفس ويساعد على انبعاث الشهوات .

ومن رأى الصوفية أنه لا يليق بالصائم أن يأكل عند الإفطار أكثر مما كان يأكل لو لم يصم ، لأن الفرض من الصيام هو حرمان النفس من مألوفها قبل الصيام ، والذى يملأ معدته عند الإفطار على نية التعمييض تعوييض المدة مافاتهما بالصيام لم يرد لنفسه من الخير إلا قليلا .

السادس — أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرجاء ، إذ ليس يدرى أيقبل صومه فهو من القريين ؟ أم يرد عليه فهو من المقوتين ؟

٣ — ومفسدات الصوم عند الصوفية هي اقتراف المكاه . أما المفطر بالطعام والشراب فهو أخف من ذلك . وعندهم أن من كف عن الأكل والجماع وأفطر بالآثام مثله مثل من مسح على أعضائه فى الوضوء ثلاث مرات ، ومن فعل ذلك فصلاته مردودة عليه لأنه ترك المهم وهو الغسل . أما الذى يصوم بجوارحه عن المكاه ويفطر بالأكل فثله مثل من غسل أعضائه مرة مرة فصلاته متقبلة لإحكامه الأصل وإن ترك الغسل .

ومعنى ذلك بصريح العبارة أن المهم فى الصوم هو كف الجوارح عن الآثام ، والإفطار بالطعام ليس بشئ عند الصوفية وإنما هو شبهة بمن تفوته السنة فى آداب الوضوء ، أما الإفطار بالآثام فهو أخطر ما يمرض له الصائمون وليس لآثم عندهم صيام وإن قتله الظلم والجور .

وعند تأمل هذه الأحكام نرى الصوفية يقفون عند المعاني وهم بذلك يخالفون رجال الشرع الذين يحملون غاية الصوم أو شرائط الصوم موقوفة على الكف عن شهوات الحواس .

وليس معنى هذا أن الصوفية لا تهتمهم ظواهر الصيام ، لا ، وإنما يرون وقوف الصيام عند الجوع والعطش غاية سوقية لا يتسامى إليها أرباب القلوب .

هم لا ينكرون أثر الظمأ والجوع في كسر الشهوات ، ولكنهم يرون كف النفس عن الآثام غاية الغايات . وكل طاعة هي عندهم باب لإصلاح النفوس .

٤ — والصوفية هم الذين عطروا أيام الصوم بالأنفاس الروحية ، وإليهم يرجع الفضل في نظم ما ساد على ألسنة الناس من الأناشيد . وقد سلكوا مسالك مختلفة من التنعيم والتطريب ، وكثرت منظوماتهم في الفن الغنائى الذى يعرف باسم « كان وكان » وإليك هذا الشاهد الطريف :

أيا من عمره طال	إلى كم أنت بطال
جميع الدهر نقال	على دهرك أثقال
تبارز بالمعاصي	وعنا أنت قاصي
وتدعو بالخلاص	وما عندك إقبال
إلى الغيبة ترتاح	وما عندك إصلاح
وما يرضيك يا صاح	سوى قد قيل أو قال
تعد الطرف في الصوم	ولا تحشى من اللوم

ليكتب منك في اليوم وفي الليلة أفعال  
فتب ذا الشهر كي يمضي وكُل صومه فرضا  
لمل الله أن يرضى ويصلح منك أحوال  
وإليك هذا الشاهد :

إن كنت تطلب توبة إنهمض فهذا وقتها  
فبعد خمس ليال يقال فرغ رمضان  
يرحل وما أودعته إلا زخايف العمل  
واحسرتك حين يشهد عليك بالخسران  
تصوم نهارك ولما تفطر تحصل فايتك  
تشبع وتنسى الجائع هذا هو الخذلان  
تقطع صيامك غيبه والصوم قبوله من عجب  
تأكل لحوم المالم وترتجى الإحسان  
من ليس يحفظ لسانه ولا الجوارح من زلل  
ماله من الصوم إلا يقضى النهار جوعان  
بالله عليك قم ودع شهر الصيام قبل السفر  
ولا تخله يرحل وهو عليك غضبان  
بيض سواد الصحيفة فالوت أدنى من نفس  
وخف إلهك تحظى منه غداً بأمان

وفي رحاب الصوفية ظهرت القصيدة المشهورة التي يتغنى بها المنشدون  
في توديع رمضان .



شهر الصيام لقد كُرُمْتَ زَيْلَا      ونويت من بعد المقام رحيلَا  
وأقمتَ فينا ناصحاً ومؤدباً      وشفيت منا بالفؤاد غليلَا  
نبكيك يا شهر الصيام بأدمع      تجري فتحكي في الحدود سيولا  
أسفاً على الأنس الذي عودتنا      وصنيع فعل لا يزال جميلا  
شهر الأمانة والصيانة والتقى      والفوز فيه لمن أراد قبولَا  
تبكي المساجد حسرة وتأسفاً      إذ عطلت من أنسه تعطيلَا  
فيه الجنان تفتحت لقدمه      وزينت ولدانها تجميلا  
وتفيات أشجارها بظلالها      وقطوفها قد ذلت تذليلا  
وهي قصيدة طويلة يجدها القارئ في كتاب الروض الفائق .

وللصوفية توسلات خاصة بشهر رمضان :

« إلهي ، وقف السائلون ببابك ، ولاذ الفقراء بجنابك ، ووقفت سفينة

المساكين على ساحل كرمك ، يرجون الجواز إلى ساحة رحمتك ونعمتك » .

« إلهي ، إن كنت لا تسكرم في هذا الشهر الشريف إلا من أخلص لك في

صيامه ، فمن للمذنب المقرّ إذا غرق في بحر ذنوبه وآثامه » .

« إلهي ، إن كنت لا ترحم إلا الطائعين ، فمن للماصين ؟ وإن كنت

لا تقبل إلا العاملين ، فمن للمقصرين ؟

« إلهي ، ربح الصائمون ، ونحن عبيدك المذنبون ، فارحمنا برحمتك ،

وجد علينا بفضلك وممتك ، واغفر لنا أجمعين برحمتك ، يا أرحم

الراحمين » .

ولهم فيه تأوهات وحشرات كلوعة الذي يقول .

« إخواني ، ما أحسن من خلع عليه مولاء خلع القبول ! وما أنعم بال من بلغه غاية القصود والشؤل ! وما أشق من رُدَّ عليه مياؤه ، وأحصيَ عليه قبجه وآثامه ، ومضت في البطالة شهره وأعوامه ، وآثر شهوة نفسه على خدمة ربه إلى أن ذهبت ساعاته وأيامه ! !

وجملة القول أن الصوفية يرون الصيام فرصةً من فرص القلب والروح ، وتركُ الطعام والشراب هو أهون ما يفكر فيه الصائمون ، والأصل عندهم أن يسلم القلب من الزيف وأن تسلم الجوارح من آفات البنى والمدوان . وكذلك كانت أقوالهم في الصوم وآدابه منمودة بمعاني الرفق والصفاء .

ولا يمكن القارئ أن يتصور مبلغ ما صنع الصوفية في تحبيب الصوم إلا إن زار المساجد في رمضان : فهناك يجد الترتيل والتسبيح والتهليل ، وهي تقاليد طريقة يرجع الفضل في إقامتها وتثبيتها إلى الصوفية ، وهم قوم لم يشغلهم الحرام والحلال وإنما انغمست أرواحهم في لطف القناء فكانت أحاديثهم وأناشيدهم ترتيلات قدسية لا يدرك أسرارها غير أرباب القلوب .

إن رجال الشريعة يختلفون فيما ينمقد به الصوم من النية ، أما الصوفية فيوجبون النية في كل لحظة ، ويرون رمضان كله موسماً ستوباً تطهر فيه السرائر والنفوس .

ورجال الشريعة يختلفون فيما يفسد الصوم ، ولهم في ذلك مزالق ، لأنهم يقفون عند المحسوس من الطعام والشراب . أما الصوفية فيشغلون بحساب النفس ، ويرون الصوم أصلاً من الأصول في تطهير النفوس والقلوب ، والصائم عندهم لا يشغل نفسه بمحدث الظمأ والجوع ، كما يفعل

العوام من أشباه الصالحين ، وإنما يشغل نفسه بالحقائق الجدية ، ويتساقى إلى الاتصال برب العزة والجبروت .

ينظر العايم إلى الهلال فيراه فاتحة للمعجزات الحسية وينظر الصوفي إلى الهلال فيراه فاتحة لطوائف من المعاني الروحية ، وإذا كان الصائم من العامة يفرح عند الغروب لأنه سيرجع إلى الحرية الطبيعية فإن الصوفي لا يفرح عند الغروب إلا حين يوقن أنه قضى يوماً سعيداً لم يدنس فيه لسانه بقبية أو نعمة ، ولم يأت قلبه بالتفكير فيما سوى الحضرة الربانية .

الصوم هو صوم الصوفية ، والصوفية هم الناس ومن عداهم أشباح بلا أرواح .

وما فضل الجوع في تهذيب النفوس ؟ إن لحظة واحدة من كبح جماح النفس وصدّها عن شهوات البنى والمقوق أفضل وأشرف من ألف يوم يقضيها العايم في الظمأ والجوع .

إن الصوم عن الطعام ليس بشيء في جانب الصوم عن الآثام . وهل يتشهى الناس الطعام بقدر ما يتشهبون الوقوع في الأعراض !!

ما هو الكف عن أكلة يتشهاها البطن ؟ إن المزيمة الصادقة لا تُعرف إلا في إقامة المدل ، لأن ابن آدم يتشهى الظلم أكثر مما يتشهى أطايب الطعام والشراب .

الصوم صوم النفوس لا صوم البطون ، الصوم الأعظم هو الكف عن إيذاء الناس ، ومن هنا صح لبعض الصوفية أن يقول :

إذا ما المرء صام عن الدنيا فكل شهوره شهر الصيام

## آداب الزوجة

١ - الأغلب على الصوفية أن ينفروا من الزواج ، وقد استشار رجل الشعبي في الزواج فقال :

« إن صبرت عن الباء فائق الله ولا تزوج ، فإن لم تصبر فائق الله وتزوج<sup>(١)</sup> . »

وقيل للمالك بن دينار : لو تزوجت ! فقال : إني طلقت الدنيا ثلاثاً فلا رجعة لي فيها<sup>(٢)</sup> .

وقيل لبعض الصالحين : إلام تبق عزباً ولا تزوج ؟ فقال : مشقة العزوبة أسهل من مشقة الكد في مصالح العيال<sup>(٣)</sup> .

٢ - وهذا الجواب الأخير فيه سياسة الصوفية ، فهم ينفرون من الزواج هرباً من تكاليف العيش ، وقد حمل ذلك بعضهم على ابتكار المآذير ، ولكن السبب الأصيل هو الرغبة في راحة البال .

٣ - والظاهر أن الصوفية قبل الإسلام كانوا يميلون إلى العزوبة تأسيّاً بالنصرانية ، ولهذا رأينا الرسول يحاربهم أشد الحرب ، فقد قال لعكاف بن وداعة : ياعكاف . ألك امرأة ؟ قال : لا . قال النبي : فأنت إذن من إخوان

---

(١) محاضرات الأصفهاني ج ٢ ص ٨٧ (٢) الكشكول ص ٧٧ .

الشياطين ، إن كنت من رهبان النصارى فالحق بهم ، وإن كنت منا فن سنتنا النكاح<sup>(١)</sup> .

وهذا السؤال من جانب الرسول لا يمكن أن يقع بمثل هذه الحدة إلا إن سبق بشواهد من حياة عكاف ، وزجج أنه كان لمكاف هذا آراء تشبه الدعوة إلى التبتل والرهبانية .

وقد بقي شيء من هذا المعنى في أنفس الصوفية ، فإنهم حدثوا أن سبب تزويج أبي أحمد القلانسي أن شاباً من أصحابه خطب ابنة لصديق لأبي أحمد فلما حضر وقت النكاح امتنع الشاب ، واستحيا من ذلك الرجل الذي كان يزوجه بابنته ، فلما رأى ذلك أبو أحمد قال . يا سبحان الله ! يزوج رجل بكريمته فتمتنع عليه ! وعقد النكاح على أبي أحمد ، فقبل أبو البنت رأسه وقال : ما علمت أن لي عند الله تعالى من المقدار أن يكون لي مثلك ختن ، وما علمت أن لا بنتى عند الله تعالى من المقدار أن يكون لها مثلك زوج .<sup>(٢)</sup>

وهذه الحكاية فيها معنى لطيف هو أدب القلانسي في إنقاذ الموقف — كما نمبر في هذه الأيام — ولكن النتيجة كانت غريبة فقد بقيت تلك الفتاة ثلاثين سنة عند أبي أحمد وهي بكر<sup>(٣)</sup> .

٤ — فمن أين جاء هذا التبتل ؟ جاء من النصرانية أولاً ، ومن الصابئية ثانياً .

أما التبتل في النصرانية فمعروف ، وأما الصابئون فإن العابد منهم ربما

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ١٨

(٢) اللع ص ١٩٩

خصى نفسه<sup>(١)</sup> وفي الجزء الرابع من عيون الأخبار<sup>(٢)</sup> أن ابن المبارك خصى نفسه وعاش محبوباً ، وتلك نزعة صابئية ، ولكننا رأينا بعد البحث أن ما في عيون الأخبار خطأ ، وأن الذى خصى نفسه هو أبو المبارك الصابى ، وليس ابن المبارك الصوفى ، وقد هدانا إلى تصحيح هذا الخطأ ما كتبه الجاحظ عن الصابئين في الجزء الأول من الحيوان<sup>(٣)</sup> .

٥ - وكلام الصوفية عن الزواج يشمر بأنه كان في أنفسهم من التكليف الثقال ، وعندهم أن الفقير إذا تزوج فثله مثل رجل قد ركب السفينة فإذا وُلِدَ له فقد غرق<sup>(٤)</sup> ، ويؤيد هذا المعنى أنهم نصوا على آداب الزواج « وليس من آدابهم أن يتزوجوا ذوات اليسار ويدخلوا في رفق نساءهم ، ومن أدب الفقير أن يتزوج بفقيرة مُقِلَّة وأن ينصفها ، وإن رغبت فيه امرأة غنية أن لا يرتفق منها<sup>(٥)</sup> » .

وهذه آداب ترتكز على حفظ الكرامة ، واستقلال النفس ، والبعد من المغانم الدنيوية ، وهم يتمثلون أنفسهم فقراء ، ولا يتسامون إلى المرأة الغنية ، وإنما يقبلونها إن رغبت فيهم ، وكانت الفتيات تميل إليهم في بعض الأحيان .  
٦ - ويظهر أنه كان معروفاً عنهم التقصير في رعاية الأطفال ، فإن السراج الطوسى يقول :

« وليس من آداب من تزوج أو كان له ولد أن يكل أمر عياله إلى الله »

(١) الحيوان ج ١ ص ٥٧ (٢) ص ٩٩ (٣) ص ٥٧

(٤) نسب هذا القول إلى إبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري . انظر اللع ص ١٩٩

(٥) اللع ص ٢٠٠

تعالى ويجب عليه أن يقوم بفرضهم إلا أن يكونوا مثله في الحال<sup>(١)</sup> .  
والنص على هذا الأدب لا يقع بغير سبب ، وإنما هو موجه إلى ناس كانوا  
يرون من التوكل أن يكلوا أمر غيالمهم إلى الله .

وهذا من الصوفية ضعف رأى ، إن وقع منهم ، وهم صالحون لقبول  
مثل هذا الرأى الضعيف<sup>(٢)</sup> .

٧ - وجلة القول أن الصوفية ينظرون إلى الزواج كأنه غُل من الأغلال  
التي تشل حركة الروح ، وقليل منهم من يفطن إلى ما في الزواج والذرية من  
الممانى الروحية ، فالرجل التأهل الذي يعاني مشاقَّ العيش تفتتح أمامه أبواب  
من الجهاد لا تخلو من شرف ونبل ، وفي رعاية الأهل ميدان لخبرة الخلق  
والروح ، وأخشى أن يكون الميل إلى العزوبة جيناً وهماً من تكاليف الحياة ،  
ولعله لا يكون إلا كذلك ، ولا عبرة بدعوى الانقطاع إلى الله ، فالسعى  
في بر الأهل والذرية هو أيضاً انقطاع إلى الله .

وفي أعمال المرء كثير من الوجوه السادية ، ولكنها عند النية تصبح  
وجوهاً روحية . وقصير النظر الذي يتوهم أن العبادة لا تكون إلا في  
العزلة والتسبيح .

على أن في السعى للأهل تعرضاً لضروب من المعاملات تبين فيها جواهر  
الأخلاق ، وفي الاتصال بالناس عن طريق المعاش أبواب من المحن الخلقية  
يُعرف عندها فضل الرجل الكريم الخلال .

(١) اللع من ٢٠٠

(٢) في قوت القلوب ج ٤ ص ١٤٨ - ١٧٧ كلام مطول عن آراء الصوفية في الزواج ،  
ولم نشأ تلخيص تلك الآراء لأنها لا تخرج عما أئبته في هذه الفقرات ، فن كان في حاجة إلى  
زيادة فليرجع إليها هناك .

للسوفية أن يفروا من الزواج ، ولكن عليهم أن يتذكروا أنهم يفرون من الجهاد ، وأى جهاد أفسى من السعى للأهل والأطفال ؟ إن التصوف كل التصوف أن تواجه مكاره العيش اعتماداً على رغبة الله ، أما إيشار العزوبة حباً في السلامة ، أو رغبة في الانقطاع إلى الله ، فهو من أعمال الجبناء والغافلين .

٨ - ومن الخير أن نشير إلى أن من الصوفية من لم يفتنه الترغيب في الزواج ، وإن كان نقرّ منه المريدن ، فقد حدث المكي أن بشر بن الحارث كان يقول في أحمد ابن حنبل . فضل على بثلاث : بطلب الحلال لنفسه ولغيره وأنا أطلب الحلال لنفسى ، واتساعه للنكاح وضيق عنه ، وقد جعل إماما للعامة وأنا أطلب الوحدة لنفسى . ونقل أن بشر بن الحارث رأى في المنام بعد وفاته فسئل عن حاله فقال : رُفعت سبعين درجة في عليين ، وأُشرف بي على مقامات الأنبياء ، ولم أبلغ منازل التأهلين<sup>(١)</sup> ، وأنه قال : وعاتبني ربي عز وجل فقال : يا بشر ، ما كنت أحب أن تلقاني عزّبا ، وأن صاحب الرؤيا قال له : ما فعل أبو نصر التمار ؟ فقال : رُفع فوق سبعين درجة ، فقال الحالم : بماذا ؟ فقال : بصبره على بنائه والعيال<sup>(٢)</sup> .

ومضى فحدث أن ابن مسعود كان يقول : لو لم يبق من عمرى إلا عشرة أيام أموت في آخرها لأحببت أن أتزوج ولا ألقى الله عز وجل وأنا عزب ، وأن رسول الله قال : تناكحوا تناسلوا فإن مكارمكم بكم الأمم يوم القيامة ، حتى بالسقط والرضيع<sup>(٣)</sup> .

(٢) القوت ج ٤ ص ١٥٤

(١) قوت القلوب ج ٤ ص ١٥٣ .



وحدث أيضاً أن بعض الصالحين كان يمرض عليه التزويج فيأباه برهة من  
دهره ، فانتبه من نومه ذات يوم فقال : زوجوني ! فستل عن سبب ذلك فقال :  
رأيت في نومي كأن القيامة قد قامت وكنت في جملة الخلائق في الموقف وبني  
من العطش ما يكاد يقطع عنتي ، وكذلك الخلائق في شدة العطش من الحر  
والشمس والكرب . قال : فبينما نحن كذلك إذ ولدان يتخللون الجمع عليهم  
مناديل من نور ، وبأيديهم أباريق من فضة وأكواب من ذهب ، وهم يسقون  
الواحد بعد الواحد ، ويتخللون الجمع ويمجاوزون أكثر الناس . قال فددت  
يدى إلى أحدهم فقلت : اسقني شرية فقد أجهدني العطش . فقال : ليس لك فينا  
ولد ، إنما نسق آباءنا . فقلت : ومن أنتم ؟ فقالوا : نحن من مات من أطفال  
المسلمين <sup>(١)</sup> .

ورواية أمثال هذه الأخبار هي دعوة إلى الزواج ، وهذه الأحلام نفسها تدل  
على أن من الصوفية من كان يشمر بأهمية الزواج من الوجهة الدينية .  
ولنقيد ما تنبه إليه أحدهم من فضيلة الصبر على البنات والعيال ، فهي لمحة  
تدل على بصر بمزائم الأمور في عالم الأخلاق .

٩ — على أن الصوفية في زواجهم وعزوبتهم ينتهون إلى غاية واحدة هي  
الفناء ، والرجل الجائع الخامد يعسر عليه أن يأتى بنسل متين ، وما نظن الرسول  
يكأثر بالأبناء الضعفاء ، إنما يكأثر بالذرية القوية التي تحفظ الثغور وتقيم الحصون ،  
وهؤلاء لا ينتجهم إلا من يعرفون قوة الجسم قبل أن يعرفوا صفاء الروح ،  
وذخيرة الأمم في العوام لا في الخواص .

(١) القوت ج ٤ ص ١٥٥ .

# أدب الأخوة

اهتمام الصوفية بالأخوة — الأخوة عمل ينفع — من هو الصديق  
في عرف الصوفية ؟ — الأخ والصديق — الحب في الله — كيف  
تعامل الصديق المذنب — فضل الصفع والإغضاء — أدب الصديق  
— ترك الماراة — ترك الخلاف — الوفاء في الحياة وبعد الممات —  
الصوفية لا يبذلون المودة لجميع الناس — القصد في الحب والبغض —  
الحبة عمل يحتاج إلى حسن غائلة — كيف تفرد الصوفية بإطالة القول  
في أدب الأخوة .

١ — اهتم الصوفية بالأخوة أبلغ اهتمام ، ولم يفرط منهم في بيان آدابها  
إلا القليل ، وهم يرون أنفسهم مسئولين عن رعاية ماسنة الحكماء في مختلف  
الملل من أدب الصداقة والوداد ، فيروون ما أثر عن النصارى واليهود ، والفرس  
والروم ، ويتمثلون بكلام الشعراء ، وإن لم يكن أولئك الشعراء من المعروفين  
بالزهد والصلاح .

وقد يستطيع الناقد أن يجد منمراً في أكثر ما سنّ الصوفية من شرائع  
الأخلاق ، ولكن ما كتبوه عن أدب الأخوة أمتع من أن يمتدّ إليه فكر  
بغمز أو تجريح ، فهؤلاء الناس فهموا الصداقة كما ينبغي أن تفهم ، وكلامهم  
فيها كلام من يعرف قيمة الصديق ، ولا نبالغ إذا قلنا إن أكثر من كتبوا  
في آداب المودة عيال عليهم ، لأن الصوفية يتكلمون عن الألفة كلام من  
يعتقد أنه سيحاسب يوم القيامة عما قدّم في عالم الأخوة والوداد . فلا تسأل  
أين الجديد في كلامهم عن الصداقة ، ولكن انظر إلى الحماسة التي صوروا

بها أواصر المودة لترى فضلهم في تعريف الناس بحقائق الإخاء ، وليس المهم أن تدعو إلى فكرة ، ولكن المهم أن تصل بالفكرة إلى أعماق القلوب .

ولسنا في حاجة إلى تأكيد أهمية الصداقة في الحياة الروحية والاجتماعية ، فمشاكل الأفراد والجماعات يرجع أكثرها إلى انقسام عرى المودة بين الناس ، ولو عرفت الجماهير كيف تتعامل وكيف تتواء لانعدمت أصول كثيرة من جرائم الشقاق .

وباب الأخوة والصحبة في مؤلفات الصوفية باب نفيس نود لو أخذت منه صورة للطالبة في المدارس الثانوية ، ففيه من الحكم والأمثال والأقاصيص نكت بديعة تتمتع العقل والروح . وفيما كتب الصوفية عن أدب الأخوة ما يكفي لتوجيه النفوس إلى الاقتناع بأن الأخوة مشكلة أخلاقية ، وأنها جذيرة بأن تكون مما يوضع في الموازين عند تقويم ملكات الرجال .

٢ - وأعجب ما تنبأت له من كلام الصوفية ما قيل : إن الأخوين في الله عز وجل إذا كان أحدهما أعلا مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه ، وأنه يلحق به كما تلحق الذرية بالأبوين والأهل ببعضهم يعض : لأن الأخوة عمل كالولادة<sup>(١)</sup> .

الأخوة عمل كالولادة ؟ هذا والله عجب ، وهو يدلنا على فهمهم للشقات التي يمانونها من ينشئون الأخوات ، فالوادة في تصورهم تحتاج إلى ضروب

السياسة العملية لا يصبر عليها إلا الراشدون ، والذي يرعى صديقه لا يقلّ جهداً عن الذي يرعى ولده ، وله من رعاية الصداقة أجر في الآخرة يساوى أجره في رعاية الأهل والأطفال .

### ٣ - ولكن من هو الصديق في عرف الصوفية ؟

هو الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله عز وجل ، فلا تصحب الفاجر فتعلم فجوره ، ولا تطلعه على سرك . وليكن صاحبك من إذا خدمته صانك ، وإن قدمت بك مؤونة مانك ، وإن مدت يدك بخير مدها ، وإن رأى منك حسنة عدها ، وإن رأى منك سيئة سدها ، وإن سأله أعطاك ، وإن سكت ابتداك ، وإن نزلت بك نازلة واساك ، وإن قلت صدق قولك ، وإن تنازعنا آثرك ، إن صديقك هو من يسدّ خللك ، ويسترّ زلللك ، ويقبل علك . ومن حق الصديق عليك أن تتجاوز له عن ثلاث : عن ظلم الغضب وظلم الهفوة ، وظلم الدالة<sup>(١)</sup> .

ذلك هو الصديق في عرف الصوفية ، فهو أولاً رجلٌ يخاف الله ، وهو ثانياً رجلٌ مواسرٌ ألوف ، كثير الصفح ، وافر الحياء .

٤ - وهذا الصديق أخ لك لم تلده أمك ، والقراية تحتاج إلى مودة ، أما المودة فلا تحتاج إلى قراية ، وقد قيل لحكيم بن مرة : أيما أحب إليك ، أخوك أم صديقك ؟ فقال : إنما أحب أخى إذا كان صديقاً<sup>(٢)</sup> ، وقال أكرم ابن صيفي : يا بنيّ ، تقاربوا في المودة ، ولا تتكلوا على القراية<sup>(٣)</sup> ، وكان

(١) انظر قوت القلوب ج ٤ ص ١١٨ .

(٢) القوت ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٣ .

عبد الله بن الحسن البصري يعرف إخوان الحسن إذا جاءوه لطول لبثهم عنده ، ولشدة شغله بهم ، فيقول لهم : لا تملّوا الشيخ ! فكان الحسن إذا علم ذلك يقول : دعهم بالكعب ، فإنهم أحبّ إليّ منكم ، هؤلاء يحبوني لله عز وجل ، وأنتم تريدوني للدنيا<sup>(١)</sup> وكان الحسن وأبو قلابة يقولان : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكرّونا الدنيا وإخواننا يذكرّونا الآخرة<sup>(٢)</sup> .

فأساس العلاقة هو العمل الصالح لا المنافع الدنيوية ، وأخوة القرابة عديمة القيمة إذا عريت من أخوة المودة ، وهذه نظرة سليمة تصلح لجميع الناس في كل زمان ومكان .

• — وأصل الحب أن يكون في الله ، وقد روى عن النبي أنه قال : ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، ووجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون ، وهم أولياء الله عز وجل الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، قليل من هؤلاء يارسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله عز وجل . ورواه أبو هريرة فقال فيه : إن حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ، ووجوههم نور ، ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يقبضهم الأنبياء والشهداء ، فقالوا : يارسول الله ، صفهم لنا ، فقال : هم المتحابون في الله عز وجل ، والمتجالسون في الله تعالى ، والمتزاورون في الله تعالى<sup>(٣)</sup> وهؤلاء المتحابون في الله إذا التقوا فهشّ بعضهم

(١) الفتوح ج ٤ ص ١٢٤ .

(٢) الفتوح ج ٤ ص ١٢٣ ، ويلاحظ القارىء أن نون الرفع حذفت تخفيفاً في بعض الأفعال من هذه الشواهد .

(٣) الفتوح ج ٤ ص ١٢٠ .

إلى بمض تتحات عنهم الخطايا كما يتحات ورق الشجر في الشتاء إذا ييس<sup>(١)</sup>  
والتآخيان في الله يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله<sup>(٢)</sup> .

ومن شرط المحبة في الله « أن لا تكون لرحم يصلها ، أو لنعمة يربها »<sup>(٣)</sup>  
فقد جاء في الأثر أن رجلا ، زار أخا في الله في قرية أخرى ، فأرصد الله تعالى  
على مدرجته ملكا فقال : أئن تريد ؟ قال : أردت أخا لي في هذه القرية قال هل  
بينك وبينه رحم تصلها أو له عليك نعمة تربها ؟ قال : لا ، إلا أني أحببته في الله  
تعالى ، قال الملك : فإنني رسول الله إليك ، إن الله تبارك وتعالى قد أحبك كما  
أحبته فيه<sup>(٤)</sup> .

والحب في الله يوجب التزاور والتبازل والتصافي . ولقاء الإخوان له لذة تعدل  
الصلاة في جماعة والتهجد من الليل<sup>(٥)</sup> .

وهذا النوع من المودة هو أفضل وأشرف ما يقع بين الناس من  
العلاقات الوجدانية .

٦ - ومن واجب المؤمن أن يرعى حرمة الصداقة ، وأن يتأسي بالدعاء المأثور  
« يا من أظهر الجميل ، وستر القبيح ، ولم يؤاخذ بالجريرة ، ولم يهتك السر »<sup>(٦)</sup>  
فيظهر حسنات إخوانه ، ويستر مساوئهم ، ويتجاوز عن سيئاتهم ويسدل السر  
على ما يقومون فيه من خطايا وهفوات .

وقد اختلف مذهب الصحابة في الأخ يحب أخاه في الله ، ثم ينتقل  
الآخر عما كان عليه ، هل ينفذه بمد ذلك ؟ فكان أبو ذر يقول : إذا انقلب  
عما كان عليه وتغير فأبفضه من حيث أحببته ، وكان أبو الدرداء يقول بخلاف

(١) الفوت ج ٤ ص ١٢٠ .

(٢) الفوت ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) الفوت ج ٤ ص ١٢٢ .

ذلك ، وقد حدثوا أن شاباً غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء ، فسكن  
يقدمه على الأشياخ ويقرّبه فحسدوه ، وأن الشاب وقع في كبيرة من الكبائر  
فجاءوا إلى أبي الدرداء وحسدوه وقالوا . لو أبعدته ! فقال : سبحان الله !  
لا تترك صاحبنا لشيء : وقال بعض التابعين في مثله : إنما أبغض عمله وإلا  
فهو أخى . وكذلك قال الله عز وجل لنبيه في عشيرته ( فإن عصوك فقل  
إني بريء مما تعملون ) ولم يقل : قل إني بريء منكم للحمّة النسب ، وقد قيل  
للصداقة لحمّة كالحمّة النسب . وكان أبو الدرداء يقول : إذا تغير أخوك وحال  
عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك ، فإن أخاك يموّج مرة ويستقيم أخرى ،  
وكان يقول : داو أخاك ، ولا تطع فيه حاسداً فتكون مثله . وقال إبراهيم  
النخعي : لا تقطع أخاك ، ولا تهجره عند الذنب فإنه يركبه اليوم ويتركه غداً .  
وقال أيضاً : لا تحدثوا الناس بزلّة العالم ، فإن العالم يزل الزلّة ثم يتركها  
وروى عن الرسول أنه قال : شرار عباد الله المشاءون بالنيمة ، المفرقون بين  
الأحبة ، الباغون للبرآء العيب<sup>(١)</sup> .

فالرأى الأول يقول بقطيعة المذنب ، وله وجه ، أما الرأى الثانى فهو  
غاية فى التسامح ، وهو رأى حكيم ، لأن مقاطعة المذنبين تغريهم بالانتم ،  
وتزيّن لهم الفسوق ، وتملأ صدورهم بالحقد على الصالحين ، وتلك جرائم لفساد  
الأخلاق .

والرجل الصالح حقاً هو الذى يعرف ضعف النفس الإنسانية ، ويعرف  
كيف يسوس المذنبين فيثقلهم من النقي إلى إلى الرشده ، ويفنمهم لحزب الهدى

(١) انظر قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١ ، ١٢٢ .

بعد أن غنمهم الشيطان مرة لحزب الضلال .

ولكن هذه النظرة الحكيمة ليست من حظ جميع الصوفية ، وإنما هي من حظ أشرافهم الذين أغنمهم نفوسهم عن كسب الشرف المزيف الذى يُجْتَلَبُ باسم الفيرة على الخلق والدين .

والرجل النافع هو الذى يفكر عند أول وهلة فى إنقاذ من زلت قدمه ، ولا يشغل نفسه عن الواجب بتريد الصباح والمصراخ .

وعند هذه النقطة الدقيقة تزلُّ أقدام كثير ممن يتحدثون عن الأخلاق فأكثر أهل الفيرة لا يفارون إلا على منافعهم الدانية ، ومن منافعهم أن تُسمع أصواتهم باستنكار الآثم والفسوق !

وللشيطان فى هذه المزالق حيل شيطانية ! فهو يُخَيِّلُ للناس أن من واجبه أن يصيحوا ويصرخوا ، وأن من التهاون أن يسكتوا عن منكر رأوه بأعينهم ، أو ترامت أخباره إليهم ، وكذلك ينطلقون فيضيفون إثمًا إلى إثم ، وعدوانًا إلى عدوان .

ولا سبيل إلى قهر الشيطان إلا بالموازنة بين الحالين : حال الغضب وحال السر ، فالذى يعلن غضبه حين يذنب أخوه يستطيع أن يضمن رضا العامة ، ولكنه قد يبعد من رضا الله ، لأن إعلان الغضب قد يجرّ على أخيه المذنب مصائب أدبية واجتماعية ، وبمعرض رزقه ورزق أهله للضياع ، إذا كان ممن يعيشون بمعاملة الناس ، وإعلان الغضب قد ينتهى إلى التشهير ، ولذلك عواقب وخيمة لا يستهين بها إلا النافلون . وحين ينتهى الغضب المطبوع



أو المصنوع إلى مثل هذه الحال فهو بلا ريب من الكبار عند من يفهمون دقائق الأخلاق .

أما الستر فهو من أخلاق الكرام بين الرجال ، وهو عنوان النبيل والدين وله مزايا كثيرة .

فهو أولا دليل على الرفق ، ومن واجب المؤمن أن يستر عورة أخيه ، وأن ينصحه في السر لا في العلانية ، وهو ثانياً شاهد على نزاهة النفس ، لأن إظهار السخط على المذنبين يرجع في أكثر الأحوال إلى شهوة خفية هي حب التسلط والاستعلاء .

فإن لم يكن يد من الغضب على المذنبين فليكن ذلك في حدود العقل ، فإن كانت الذنوب متصلة بالمصالح الاجتماعية والماشية بذل الناصح جهده ليجمع بين الفضيلتين : إنقاذ المذنب بالنصح ، والسمي الرزين لسلامة ما يتصل بأعماله من شؤون المعاش ، وإن كانت الذنوب واقعة في حدود التكاليف الذاتية التي يوجبها الشرع فمن الأدب أن تترك حساب ذلك لعلام الغيوب .

وليس معنى هذا أنا نقول بترك الناس يذنبون كيف يشاءون ، لا ، ولكننا نقول بكف عادة الناصحين ، فأكثر النصح ظلم وعدوان ، ومن أدياء الأخلاق من يختلق لخصومه طوائف من المساوي والميوب ، ثم يمضي فيلبس ثياب الأتقياء ، وينقلب إلى واعظ يبكي على الفضيلة بدموع التماسيح . وأمثال هؤلاء تروج دعواتهم ، ويمسسون ولهم سوق في عالم الأراجيف ، وقد يفسد الزمن فيكون لمُفترياتهم صوت مسموع ، وفي الدنيا شهداء راحوا ضحية هذه الدعاوى الباطلة ، دعاوى الحرص على الفضيلة

والأخلاق ، وبدعوى الفضيلة والخلق تُنتَهَبُ حقوق ، وتَضِيعُ على أهلها حقوق .

وهذا الذى نقول به تنبه له كبار الصوفية ، فقد كان الرجل إذا كره من أخيه خُلُقًا عاتبه فيما بينه وبينه ، أو كاتبه فى صحيفة . قال المكي : وهذا للممرى فرق بين النصيحة والفضيحة ، فما كان فى السر فهو نصيحة ، وما كان فى العلانية فهو فضيحة ، وكلما تصح فيه النية لله تعالى لأن فيه شناعة<sup>(١)</sup> .

وقد أفصح النزالي عن ذلك حين قال :

« وروى فى الأسرائليات أن أخوين عابدين كانا فى جبل ، ونزل أحدهما ليشتري من المصر لحماً بدرهم ، فرأى بَنِيَّةً عند اللحم فرمقها وعشقها واجتذبها إلى خلوة فواقمها ، ثم أقام عندها ثلاثاً ، واستحيا أن يرجع إلى أخيه حياء من جنائته ، فافتقده أخوه واهتم بشأنه ، فزل إلى المدينة فلم يزل يسأل عنه حتى دُلَّ عليه ، فدخل إليه وهو جالس معها فاعتنقه وجعل يقبله ويلتزمه ، وأنكر الآخر أنه يعرفه لفرط استحيائه منه ، فقال : قم يا أخى . فقد علمت شأنك وقصتك ، وما كنت قطُّ أحبَّ إلىَّ ولا أعزَّ من ساعتك هذه . فلما رأى أن ذلك لم يسقطه من عينه قام فانصرف معه » .

قال النزالي : فهذه طريقة قوم ، وهى أَلُفٌ وأَفْقُه من طريقة أبى ذَرٍّ رضى الله عنه ، وطريقته أحسن وأسلم . فإن قلت : ولم قلت هذا أَلُفٌ وأَفْقُه ومُتعارِفُ هذه المصيبة لا تجوز مؤاخاته ابتداءً ، فتجب مقاطعته انتهاءً ، لأن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، وعلة عقد الأخوة

التعاون في الدين ، ولا يستمر ذلك مع مُقارَفَةِ المعصية ؟ فأقول : أما كونه أطف فلما فيه من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصعوبة ، ومهما قوطع واتقطع طمعه في الصعوبة أصر واستمر ، وأما كونه أفتق فمن حيث أن الأخوة عقدٌ ينزل منزلة القرابة ، فإذا انعقدت تأكد الحق ، ووجب الوفاء بموجب المقد ، ومن الوفاء به أن لا يُهمَل أيام حاجته وفقره ، وفقر الدين أشد من فقر المال ، وقد أصابته جائحة ، وألست به آفة افتقر بسببها في دينه ، فينبغي أن يراقب ويراعى ولا يُهمَل ، بل لا يزال يُتَلَطَّف به ليُمان على الخلاص من تلك النافعة التي ألت به ، فالأخوة عُدَّةٌ للنائبات وحوادث الزمان ، وهذا من أشد النوائب ، والفاجر إذا صحب تقيًا وهو ينظر إلى خوفه ومداومته فسيرجع على قرب ، ويستحي من الإصرار ، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل فيحرص حياءً منه<sup>(١)</sup> .

٧ -- وعلى الصديق أن يعاتب صديقه إذا جدَّ ما يوجب ذلك ، فماتبة الصديق خير من فقدته<sup>(٢)</sup> ومن واجب الرجل أن يصبر لأخيه ، ويشكر له ، ويحلم عنه<sup>(٣)</sup> وليتذكر أن من اقتضى إخوانه ما لا يقتضون منه فقد ظلمهم ، ومن اقتضى منهم ما يقتضون منه فقد أتمهم ، ومن لم يقتضهم فقد تفضل عليهم<sup>(٤)</sup> . وعليه أن يزور صديقه ، وأن يشيِّمه حين يتفضل بزيارته ، وأن يسأل غنه حين يغيب ، فقد كان عطاء يقول : تفقدوا إخوانكم

(٢) القوت ج ٤ ص ١٢٦

(١) الاحياء ج ٢ ص ٨٦

(٣) القوت ج ٤ ص ١١٩

(٤) القوت ص ١٢١

بعد ثلاث ، فإن كانوا مَرَضَى فمودوم ، وإن كانوا مشاغيل فأعينوم ، وإن نسوا فذكروهم<sup>(١)</sup>

٨ - ومن الأدب أن يسكت الرجل عن ذكر عيوب الصديق في غيبته وحضرته ، وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفتح به ذكر غرضه من مصدره ومورده ، ولا يسأله عن وجهته ، فقد يثقل عليه ذلك أو يحتاج إلى أن يكذب فيه ، ومن الأدب أن يسكت عن أسرارته التي بثها إليه ، ولا يثبتها إلى غيره ألبتة . ولا إلى أخص أصدقائه ، ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة ، فإن ذلك من لؤم الطبع ، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، ولا ينبغي أن يُخْفَى ما يسمع من الثناء عليه ، فإن السرور به يَحْمَلُ أولاً من المبلغ ، ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد ، وخلاصة القول أنه يحسن السكوت عن كل كلام يكرهه الصديق جملة وتفصيلاً ، إلا إذا وجب عليه النطق في أمر معروف ، أو نهى عن منكر ، ولم يجِدْ رُخْصَةً في السكوت .

وهذه الآداب تدلّ على بصر الصوفية بأسرار النفوس ، فالمرء يجب بفطرته أن يحتفظ بأشياء كثيرة من شؤون الشخصية ، ويسوؤه أن يتعقب أسرار أخ أو صديق ، ومن الناس من يظن أن الصداقة تعطيه الحق في أن يعرف تفاصيل ما أنت عليه في شؤونك الوجدانية والمعاشية ، ويرى من سوء الرعاية أن تطوّر عنه بعض أخبارك ، ومنهم من يتوهم

(١) اللوت ج ٤ ص ١٢٣

(٢) الإحياء ج ٢ ص ١٧٨

أن الأدب يفرض عليه أن ينقل إليك ما يهمس به أعداؤك وحاسدوك ، وينسى أن لذلك عواقب بعضها خَطِرٌ وبعضها قبيح ، فقد تَنَارَتْ بذلك عداوات كانت خمدتْ ، وقد يَفْلُ ذلك من عزم الصديق فيقتل حيويته ويصدّه عن الكفاح المشروع ، ومن الأصدقاء من يحسب أن من حقه أن يتمرض بالنقد والملام لأحبابك وأهلك وأبنائك ، وتلك ضروب من الفضول لا يقع فيها رجل حصيف .

٩ - وقد اهتم الصوفية اهتماماً خاصاً بتقبيح الماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به الصديق ، وحدّثوا أن الرسول قال : مَنْ تَرَكَ الرِّاءَ وَهُوَ مُبْطِلٌ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ ، وَمَنْ تَرَكَ الرِّاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ . هذا مع أن تَرَكَه مبطلاً واجبٌ ، وقد جعل ثواب الفضل أعظم لأن السكوت عن الحق أشدّ على النفس من السكوت عن الباطل . وعلى الجلمة فلا باعث على الماراة إلا إظهار التميز بمزيد العقل والفضل . واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحق والجهل ، ولا معنى للمعاداة إلا هذا<sup>(١)</sup> .

وأشهد أن هذا الأدب من خير ما دعا إليه الصوفية ، وقد غَفَلْتُ عنه في حياتي الأدبية فأضمت جميع أصدقائي ، وأكاد أحكم بأن حَمَلَةُ الأقلام في عصرنا هذا قلّ أن يبق لهم صديق ، فباسم حرية الرأي ، وحرية النقد ، وحرية النشر ، وحرية القول ، تقع كلمات وعبارات تأتي على المودة من الأساس .

(١) الإحياء ج ٢ ص ١٨١

ولا أنكر أن في الجدل والمهارة فوائد تعليمية ، وباسم هذه الفوائد نرتكب من الشطط ما لا يُباح ، ولكن لا يمكن نكران ما في انهدام صروح المودات من الخسران المبين .

وأذكر أنى قت وأنا طالب في الجامعة المصرية قاربت طالباً ألقى درساً من دروس التمرين ، وكانت ممارسة عنيفة غضب لها الأستاذ الدكتور منصور فهمي وأقبل يعاتبني في قسوة ، فقلت : إني لا أضمر سوءاً لهذا الطالب فهو صديق ، فقال الأستاذ : ما هكذا يُعامل الصديقُ الصديق !

ولو تأدبنا بأدب الصوفية في ترك المهارة لما شاهدنا كل يوم مَصْرَعاً في الحياة السياسية والاجتماعية ، ففي أكثر الأحزاب يَشِبُّ الخلاف وتَتَقَدُّ نيران المهارة ، ثم تصل إلى الصحف فيضيف لها اللفظ وقوداً إلى وقود ، وما هي إلا أيام حتى تستفحل العداوات بين أصدقاء كان تآلفهم مضرب الأمثال .

وقد يقال إن ناساً تصاولوا في ميادين الأدب والسياسة ثم ظلوا أصدقاء وهذا صحيح ، ولكن من يضمن سلامة القلوب من الندوب التي يورثها الجدل العنيف ؟ هؤلاء لم يظلوا أصدقاء على نحو ما كانوا في سالف العهد ، ولكنهم يتجملون فيخفون العتب ويظهرون الوداد .

١٠ - ولا يكتفى الصوفية بتقبيح المهارة ، بل يوصون بترك الخلاف ، وكل صاحب تقول له : قم بنا ، ويقول إلى أين ؟ فليس بصاحب<sup>(١)</sup> والخلاف أصل كل فُرقة وهي لطيفةُ الشيطان في افتراق التحابين في الله<sup>(١)</sup>

وقال أبو سعيد الخراز : صحبت الصوفية خمسين سنة ما وقع بيني وبينهم خلاف ،  
فقليل له : وكيف ذلك ؟ فأجاب : لأنى كنت معهم على نفسى<sup>(١)</sup> .

١١ - والوفاء من شروط الإخاء ، وهو أن يكون الرجل لصديقه فى  
غيبته ومن حيث لا يعلم ولا يبلغه مثل ما كان له فى شهوده ومعاشرته ، ويكون  
له بعد موته ولأهله من بعده كما كان له فى حياته ، وكان من الصالحين من  
يختلف أخاه فى عياله بعد موته أربعين سنة لا يفقدون إلا وجهه ، ويقال  
إن مسروقاً أداً دينا ثقيلاً وكان على أخيه خيثة دين ، فذهب  
مسروق ف قضى دين خيثة وهو لا يعلم ، وذهب خيثة ف قضى دين مسروق  
سراً وهو لا يعلم . فمن حقيقة المُواخاة فى الله عز وجل إخلاص المودة  
بالغيب والشهادة ، واستواء القلب مع اللسان ، واعتدال السر مع العلانية  
فى الجماعة والخلوة ، فإذا لم يختلف ذلك فهو إخلاص الأخوة ، وإن اختلف  
ففيه مدهانة فى الأخوة ، وممازقة فى المودة ، وذلك دخل فى الدين ، ولا يكون  
مع حقيقة الإيمان<sup>(٢)</sup> .

والصوفية لا يبدلون المودة لجميع الناس : فلا تصح مُواخاة مبتدع فى الله  
تعالى ، ولا محبة فاسق على فسوقه ، ولا محبة فقير أحب غنياً لأجل دنياه ،  
وقد تصح الأخوة بين العالم والجاهل ، وبين الصالح والطالح ، إذا صحت  
النية ، وكان للعالم رجاء فى تعليم الجاهل ، وللصالح أمل فى تقويم الطالح<sup>(٣)</sup> .

وقال سهل بن عبد الله : اجتنب محبة ثلاثة أصناف من الناس : الجبارة

(١) اللع ص ١٧٧

(٢) قوت القلوب ج ٤ ص ١٢١

(٣) القوت ج ٤ ص ١٢٥

الغافلين ، والقراء المداهنين ، والتصوفة الجاهلين<sup>(١)</sup> .

ومع هذا التحرز يوصون عند المحبة بالقصد في الحب كما يوصون عند العداوة بالقصد في البغض ، عملاً بما روى عن علي : أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بفيضك يوماً ما ، وأبغض بفيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما ، وتادباً بقول عمر بن الخطاب : لا يكن حبك كلفاً ، وبغضك تلفاً ، وقول أسلم في تفسيره : إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبيُّ بالشئ . وإذا أبغضت فلا تبغضُ بُغضاً تحب أن يتلف به صاحبك ويهلك<sup>(٢)</sup> .

١٣ - والمحبة عند الصوفية عمل ، وكل عمل يحتاج إلى حسن خاتمة ، فمن لم يحسن عاقبة الصحبة أدركه سوء الخاتمة ، وبطل عنه ما كان عليه قبل ذلك<sup>(٣)</sup> .

١٤ - فإن سأل القارئ : كيف تفرد الصوفية بإطالة القول في أدب الأخوة ؟ فإننا نجيب بأن فراغ حياتهم من الشواغل المادية مال بهم إلى الإكثار من الكلام عن الشواغل المنيوية ، والرجل الخلى البال من هموم الماش يجد متسعاً من الوقت لتأمل آداب الصحبة والألفة ومعاملة الرجال أما الذين تكثر شواغلهم الدنيوية فينصرفون عن النوازع الوجدانية ، ولا يلتفتون إلى دقائق الخواطر والإشارات فيما يتصل بأدب التودد إلى الناس .

يضاف إلى هذا أن الصوفية يقفون عند المودة المنزهة عن الأغراض

(١) الصم ص ١٧٩

(٢) القوب ج ٤ ص ١١٨

(٣) القوت ج ٤ ص ١١٧



وهي مودة لا تخلو لها قلوب المشغولين من أهل المنافع ، الذين لا ينفذون  
التحية إلا لفرض مكنون .

وليتذكر القارئ أنا نكتب هذا وخواطرنا موزعة بين أشتات من  
شواغل الحياة ، فلسنا ندرك أغراض الصوفية على نحو ما كانوا يدركون ،  
ومن المؤكد أن علاقتهم فيما بينهم كانت تجلب إليهم ضرباً من المتع والسرّات  
لا تيسر لمن يقفون في ألفتهم عند الحدود الرسمية والمعاشية .

ولست أدري كيف يعمر على من يعيشون عيش الصخب والضجيج  
أن نكون لهم جوانب روحية يخلون إليها من وقت إلى وقت ليتنسّموا رَوْحَ  
الأنس والصفاء في ظلال المودة الخالصة والإخاء الأمين !

---

## الْحُبُّ الْحُبُّ الْحُبُّ !

بداية الصوفية في الحب — ظرف الصوفية — بين التواضع  
الحسية والمواطف الروحية — تأييد الحب الحسى بالمعاني الدينية —  
فتنة الصوفية بالأحداث — هجوم ابن الجوزى عليهم — رأى ابن القيم  
في ضيابة ابن داود — خوف الصوفية من أخطار الجمال — عزائم  
الصوفية وأدبهم في رياضة النفس — الدفاع عن الصوفية — رأى  
ابن القيم في الجمال — صور مبتكرة في التنفير من الحب الأنيم —  
دعوة النفس إلى حرب الهوى — بين العقل والدين .

١ — يجب أن يكون عنوان هذا الفصل على هذه الصورة ، فاعرف  
كلمة من أسماء المعاني شغلت الصوفية كما شغلتهم كلمة الحب ، ويكفى أن  
تذكر أن أناشيد الصوفية تدور كلها حول الحب ، وأن التصوف لا يصلح  
إلا بفضل الحب ، ولا يفسد إلا بسبب الحب ، فالحب هو الأول والآخر  
في حياة أولئك الناس .

وأغلب الظن عندى أن الصوفية ابتدأوا حياتهم بالحب الحسى ، ثم ترقوا  
إلى الحب الروحى . والانتقال من حب الجمال إلى التصوف معقول ، ولا سيما  
في حالة الحرمان من المحبوب . والحرمان قد يكون من آثار التصون والتجمل  
والعفاف ، ثم يصير بأصحابه إلى الضعف فلا ترى منهم غير الأنين والحنين .  
وكذلك كان العذريون ، فهم في الأغلب ضعفاء ، والضعف الحسى هو بداية  
الإقبال على المعاني الروحية في أكثر الأحوال<sup>(١)</sup> .

---

(١) من الصوفية من صرح بأن عشق الفلمن وصور الحسان هو نقطة إلى عشق الإله .  
وذلك الصوفى هو صدر الدين الشيرازى ، وهذا رأى الصريح كان من أسباب ثورة رجال =

وتعزّس الصوفية بالحب في مطلع الشباب هو السرّ فيما يظهر عليهم من معاني الظرف . وقد حدثوا أن أحد تلامذة ابن جابر الأشبيلي قال لغلام جميل الصورة : بالله أعطني قبلة تمسك رمق ، فشكاه الغلام إلى الشيخ وقال له ياسيدي ، قال لي هذا كذا ، فقال له الشيخ : وأعطيته ما طلب ؟ فقال : لا . فقال الشيخ : فما هذه الثقالة ؟ ما كفاك أن حرمته حتى تشتكي به أيضاً ؟ ! (١)

وكان ابن جابر هذا من المعروفين بالزهد والصلاح .

وخرج أبو حازم الصوفي يرى الجار ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها ، وأهلتهم بجمالها ، فقال لها : يا هذه ، إنك بمشعر حرام ، وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم ، فاتقى الله واستترى ، فإن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز ( وليضربن بخمرهن على جيوبهن ) فقالت : يا أبا حازم ، إني من اللاتي قال فيهن الشاعر :

---

== الدين عليه ( انظر أطروحة أبي عبد الله الزنجاني ص ٢٥ ) :  
والواقع أن الدين ثاروا عليه لم يفهموا ما يرى إليه ، فقد كان الرجل من الفائلين بوحدة الوجود ، والصور الجميلة من أغص العناصر في الوحدة الوجودية ، وربما كان التأمل فيها هو الذي ألهم الصوفية فتنة القول بالخلول أو القول بوحدة الوجود .  
وما تقول به يختلف عما يقول به الشيرازي بسبب الاختلاف ، فالميل إلى الجمال هو في رأينا تربية للذوق فتنتى بالانتقال من المحسوس إلى المعقول ، وهو عند الشيرازي خطوة أساسية في سبيل الوصول ، إذ كان الجمال المحسوس جزءاً من الجمال المطلق الذي يتكون من المحسوس والمقول .

والظاهر أن الشيرازي أجراً منا وأصرح .

(١) نفع الطيب ج ٢ ص ٣٢٢

أماطت كساء الخزّ عن وجهها وأرخت على المتنين يرداً مهلهلاً  
من اللاء لم يحججن يمين حسبة ولكن ليقتلن البريء المغفلاً

فقال أبو حازم لأصحابه : تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة أن لا يعذبها  
الله بالنار . فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون . فبلغ ذلك الشعبي فقال :  
ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم ! أما والله لو كان من قرى العراق لقال :  
اغربي عليك لعنة الله ! (١)

ونحن نرى ذلك ظرفاً صوفياً قبل أن يكون ظرفاً حجازياً .

والصوفية أنفسهم يعرفون محنتهم بالملاقات الغرامية وفيهم من يعتذر  
بأن الهوى لم ينفذ قلوبهم إلا للحكمة إلهية فيقول :

« إن الله جلّ ثناؤه إنما امتحن الناس بالهوى ليأخذوا أنفسهم بطاعة من  
يهوونه ، وليشق عليهم سخطه ، ويسرّهم رضاؤه ، فيستدلوا بذلك على قدر  
طاعة الله عزّ وجلّ ، إذ كان لا مثل له ولا نظير ، وهو خالقهم غير محتاج  
إليهم ، ورازقهم مبتدئاً غير ممّنّ عليهم ، فإن أوجبوا على أنفسهم طاعة من  
سواه ، كان هو تعالى أحرى بأن يتّبع رضاه (٢) .

٣ - وهم يقيسون الحب الروحي بالحب الحسى ، ويقولون : إذا استولى  
الحب أدهش عن إدراك الألم ، والتجربة أعدل شاهد على ذلك ، ويدكرون  
أن سمنون الحب قال : كان في جوارنا رجل له جارية يحبّها غاية الحب ،  
فاعتلت ، فجلس الرجل يصنع لها حيساً ، فبينما هو يحرك ما في القدر إذ قالت

(١) زهرة الآداب ج ١ ص ١٥٢ والكشكول ص ١٢٩ وروضة المهين ص ٢٤١

(٢) كتاب الزهرة ص ١٨

الجارية : آء ، فدهش الرجل وسقطت اللعقة من يده ، وجعل يحرك ما فى القدر بيده حتى تساقط لحم أصابعه وهو لا يحس بذلك .

قال العاملى — وهو من أنصار الصوفية — فهذا وأمثاله قد يصدق به فى حب المخلوق ، والتصديق به فى حب الخالق أولى ، لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر ، وجمال الحضرة الربوبية أوفى من كل جمال ، فإنه الجمال الخالص البحت ، وكل جمال فى العالم فهو مختلط ناقص<sup>(١)</sup> .

٤ — وشعراء الصبوات هم ألسنة أرباب الموارد الروحية ، وقد سمع أبو الفتح الأعور الصوفى هذا البيت .

وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج  
فتواجد وصاح ودق صدره إلى أن أغمى عليه وسقط ، فلما انقضى المجلس  
حركوه فوجدوه ميتاً ، ففسلوه ودفنوه .

وهذا البيت الذى قتل رجلاً صوفياً هو من قطعة لرجل فاجر هو عبد الصمد ابن المزدل الذى يقول :

يا بديع الدل والفنَج لك سلطان على المهجر  
إن يبقأ أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج  
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتى الناس بالحجج

قال ابن أبى حجلة : « والصوفية إذا قالوا : وجهك المأمول حجتنا ، نقلوه إلى ما لهم فى ذلك من المعانى<sup>(٢)</sup> » .

(١) الكشكول ص ٢٦٣

(٢) ديوان المصابة ج ٢ ص ٧٠ على هامش تزيين الأسواق طبع سنة ١٢٩١ هـ

ونقل الانطاكى قول البها زهير فى حجر الدلال :

عتب الحبيب قلم أجد سبباً لذك العتب حادث  
ما كنت أعلم أنه ممن تغيره الحوادث

ثم قال : وفى هذا الأصل كلام للعارفين ، وكلّ يأخذ ما يناسبه من الإشارات ، والبهاء زهير لا يكثر عليه مثل هذا ، فلقد سمعت مولانا عارف الوقت الشيخ شمس الدين البكرى أدام الله مدده يقول : إنه كان إماماً عارفاً ، أو ذا لسان عارف<sup>(١)</sup> .

فالبهاء زهير على هذا عارف القلب ، أو عارف اللسان ، أى أنه يتكلم فيعبر عن المعانى الروحية بألفاظ حسية ، وكلّ الشعراء ذلك الرجل إن شاء الصوفية .

وقد يروق لهم أن يتعقبوا أخيلة الحسين بالنقد والتجريح ، كالذى وقع لهم فى لوم من ينام فى غيبة حبيبه ليرى طيف الخيال ، إذ قالوا : إن تخصيص النوم بأنه يريهم أحبّتهم ، نقص بين فى مودّتهم ، فإن الحال إذا تمكنت لم تفرق الروحان ، وإن افرق الشخصان ، فالمحب المشاهد لصاحبه على كل حال مستغن عن الاستعانة على إحضاره برؤية الخيال<sup>(٢)</sup> .

وكيف تحتاج هذه اللمحة إلى تقييد ، ونحن نرى جمهور المؤلفين فى الحب والمحبين لا يخلون من نزعة صوفية ، فابن داود صاحب الزهرة ، وابن حزم صاحب طوق الحمامة ، وابن القيم صاحب الروضة ، والأنطاكى صاحب تزيين الأسواق ، كل أولئك فيهم نفحات صوفية ، والجمع بين النزعة الحسية

والروحانية يظهر لهم من الأمور التي لا تحتاج إلى جدل ولا تأويل .  
ولابن القيم في هذا مذهب طريف : فهو يذكر الأدب في الصبوة الحسية  
ثم يؤيده بالأدب في الملاقة الروحية كأن يقول : ومن علامات الحب إغضاؤه  
عند نظر محبوبه إليه ، ورميه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من مهابته له ، وحيائه  
منه ، وعظمته في صدره ، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يحد النظر  
إليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض ، قال تعالى مخبراً عن كمال أدب  
رسوله في ليلة الإسراء ( ما زاغ البصر وما طغى ) وهذا غاية الأدب ، فإن البصر  
لم يزغ يميناً ولا شمالاً ، ولا طمح متجاوزاً إلى ما هو رائيه ومقبل عليه كاللتشرف  
إلى ما وراء ذلك ، ولهذا اشتد نهى النبي صلى الله عليه وسلم للمصلى أن يزغ  
بصره إلى السماء . . . الخ<sup>(١)</sup> . وكأن يقول : ومن علامات المحبة كثرة ذكر  
المحبوب واللمح بذكره وحديثه ، فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ،  
ولذلك أمر الله سبحانه عباده بذكره على جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوف  
ما يكونون فقال تعالى ( يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله  
كثيراً لعلكم تفلحون ) والمحبون يفتخرون بذكر أحبائهم وقت المخاوف وملاقة  
الأعداء ، كما قال :

ذكرتك والخطي يخطر بيننا وقد نهلت منا المثقفة السمر  
وفي بعض الآثار الإلهية : إن عبدى كل عبدى يذكرنى وهو ملاق قرنه .  
فعلامة المحبة الصادقة ذكر المحبوب في الرغب والرهب ، كما قال بعض المحبين  
في محبوبته :

يذكرنيك الخير والشر والذي أخاف وأرجو والذي أتوقع<sup>(٢)</sup>

٥ - قلت إن أكثر الصوفية عرفوا الحب الحسى فى مطلع الشباب ،  
فلأذكر أن هذا هو السر فى التباس الأمر على فريق منهم عند التفرقة بين  
الشهوات الحسية والمعنوية ، فظلوا يحنون إلى الجمال المحسوس ، بحجة أنه يقربهم  
إلى الجمال المعقول » وإنما تسترت هذه الطائفة لهواها وشهواتها ، وأوهمت أنها تنظر عبـرة  
واستدلالات ، حتى آل يعضهم الأمر إلى أن ظنوا أن نظرتهم عبادة لأنهم ينظرون  
إلى الجمال الإلهى ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول النصارى يظهر فى  
تلك الصورة الجميلة ، ويجعلون هذا طريقاً إلى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرة ممن  
يدعى المعرفة والسلوك<sup>(١)</sup> »

ومن رأى ابن الجوزى أن أكثر المتصوفة قد سدّوا على أنفسهم باب  
النظر إلى النساء الأجانب لبعدهم عن مصاحبتهن ، وامتناعهم عن مخالطتهن ،  
واشتغلوا بالتمبّد عن النكاح ، واتفقت صحبة الأحداث لهم على وجه  
الإرادة ، وقصد الزهادة ، فأماهم إبليس إليهم ، وهم فى ذلك على أقسام :  
القسم الأول أخبث القوم وهم ناس تشبهوا بالصوفية ويقولون بالحلّول ،  
ويزعمون أن الحق تعالى اصطفى أجساماً حلّ فيها بمعنى الربوبية ، والقسم  
الثانى قوم يتشبهون بالصوفية فى ملبسهم ويقصدون الفسق ، والقسم الثالث  
قوم يستبيحون النظر إلى المستحسن ، استثناساً بما روى عن الرسول :  
اطلبوا الخير عند حسان الوجوه ، وقوله . ثلاثة تجلّو البصر : النظر إلى الخضر

---

(١) روضة المهين ص ١٣٤ ومن هذا يظهر أن صدر الدين العيرازى مسبوق إلى القول  
بأن عشق الجمال فترة إلى عشق واجب الوجود .



والنظر إلى الماء ، والنظر إلى الوجه الحسن . وها حديثان لا أصل لهما عن رسول الله . والقسم الرابع قوم يقولون : نحن لا ننظر نظر شهوة وإنما ننظر نظر اعتبار ، فلا يضرنا النظر ، وذلك في رأى ابن الجوزى محال<sup>(١)</sup> .

٦ - وقد شغل ابن الجوزى نفسه بتعقب الصوفية ، فنقل عنهم حكايات غريبة ، وعلّق عليها تعليقات تدلّ على بصر بدقائق علم النفس والأخلاق ، ولا بد لنا من عرض نماذج من ملاحظاته لأنها ثمرة من ثمرات التصوف ، وكل ما كتب للتصوف أو عليه فهو مظهر من آثاره في الحياة العقلية والنوقية .

نقل بسنده أن عبد الله بن الزبير الحنفى قال : كنت جالساً مع أبي النصر القنوى وكان من البرزين المابدين ، فنظر إلى غلام جميل فلم ترل عيناه واقعتين عليه حتى دنا منه فقال : سألتك بالله السميع ، وعزه الرفيع ، وسلطاناه المنيع ، إلا وقفت على أروى من النظر إليك . فوقف قليلاً ثم ذهب ليمضى فقال له : سألتك بالله الحكيم المجيد ، الكريم البديء العبد ، إلا ما وقفت ! فوقف ساعة ، فأقبل يصعد النظر إليه ويصوبه ، ثم ذهب ليمضى . فقال : سألتك بالواحد الأحد ، الجبار الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، إلا وقفت ! فوقف ساعة فنظر إليه طويلاً ، ثم ذهب ليمضى ، فقال : سألتك باللطيف الخبير ، السميع البصير ، وبمن ليس له نظير ، إلا وقفت ! فوقف فأقبل ينظر إليه ثم أطرق رأسه إلى الأرض ، ومضى الغلام ، فرفع رأسه بمد طويل وهو يسكى فقال : قد ذكرنى هذا بنظرى وجهاً جل عن التشبيه ، وتقّس عن التمثيل ،

---

(١) تلبس ابليس ص ٢٦٤ ، ٢٦٦

وتعاضم عن التحديد ، والله لأجهدن نفسي في بلوغ رضاه بمجاهدتي جميع أعدائه ، وموالائي لأوليائه ، حتى أصير إلى ما أردته من نظري إلى وجهه الكريم ، وبهائه العظيم ، ولوددت أنه قد أراى وجهه وحسنى في النار مادامت السموات والأرض . ثم غشى عليه .

ونقل بسنده أن أحدهم قال : كنت مع محارب بن حسان الصوفي في مسجد الخيف ونحن محرمون ، فجلس إلينا غلام من أهل المغرب فرأيت محارباً ينظر إليه نظراً أنكرته ، فقلت له بعد أن قام : إنك محرم في شهر حرام في بلد حرام في مشعر حرام ، وقد رأيتك تنظر إلى هذا السلام نظراً لا ينظره إلا المفتونون ! فقال لى : تقول هذا ، يا شهوانى القلب والطرف ! ألم تعلم أنه قد منعتنى من الوقوع في شرك إبليس ثلاث ؟ فقلت : وماهى ؟ فقال : سرّ الإيمان ، وعفة الإسلام . وأعظمها الحياء من الله تعالى أن يطلع علىّ وأنا جائم على منكبر نهانى عنه ، ثم صمق حتى اجتمع الناس علينا .

وهنا يقول ابن الجوزى في التعليق على هاتين الحادثتين :

« انظروا إلى جهل الأحق الأول ورمزه إلى التشبيه ، وإن تلفظ بالتنزيه ، وإلى حماقة هذا الثانى الذى ظنّ أن المعصية هى الفاحشة فقط وما علم أن نفس النظر بشهوة يحرم ، ومحا عن نفسه أثر الطبع بدعواه التى تكذبها شهوة النظر<sup>(١)</sup> » .

وروى بسنده أن بعضهم قال : قلت لأبي السكيت الأندلسى وكان جوالاً

فى أرض الله : حدثنى بأعجب ما رأيت من الصوفية فقال : صحبت رجلاً منهم يقال له مهرجان ، وكان مجوسياً فأسلم وتصوف ، فرأيت معه غلاماً جليلاً لا يفارقه ، وكان إذا جاء الليل قام فصلى ثم ينام إلى جانبه ، ثم يقوم فزعاً فيصلى ما قدر له ، ثم يعود فينام إلى جانبه ، حتى فعل ذلك مراراً ، فإذا أسفر الصبح أو كاد يسفر أوتر ، ثم رفع يديه وقال : اللهم إنك تعلم أن الليل مضى على سلباً لم أقترف فيه فاحشة ، ولا كتبت علىّ فيه الحفظة معصية ، وأن الذى أضمره بقلبي لو حملته الجبال لتصدعت ، أو كان بالأرض لتدكدكت ، ثم يقول : يا ليل اشهد بما كان منى فيك ، فقد منعنى خوف الله عن طلب الحرام ، والتعرض للآثام ، ثم يقول : سيدى ! أنت تجمع بيننا على تقى ، فلا تفرق بيننا فى يوم تجمع فيه الأجباب ! فأقت معه مدة طويلة أراه يفعل ذلك فى كل ليلة ، وأسمع هذا القول منه . فلما هممت بالانصراف من عنده قلت له : سمعتك تقول إذا انقضى الليل كذا وكذا فقال : وسمعتنى ؟ قلت : نعم ! قال : فوالله يا أخى إنى لأدارى من قلبى مالو داراه سلطان من رعيته لكان الله حقيقياً بالمغفرة له ، فقلت : وما الذى يدعوك إلى صحبة من تخاف على نفسك العنت من قبله ؟

ونقل بسنده أن أبا حمزة الصوفى قال :

رأيت بيت المقدس فتى من الصوفية يصحب غلاماً مدة طويلة ، فات الفتى وعال حزن الغلام عليه حتى صار جليداً وعظماً من الضنى والكمد ، فقلت له يوماً . لقد طال حزنك على صديقك ، حتى أظن أنك لا تسلو بعده أبداً فقال : كيف أسلو عن رجل أجل الله عز وجل أن يصيبه معى طرفة عين

أبدأ ، وصانني عن نجاسة الفسوق في خلال صحبتي له وخلواتي معه في الليل والنهار .

ويقول ابن الجوزي في التعقيب على هاتين القصتين :

هؤلاء قوم رآهم إبليس لا ينجذبون معه إلى الفواحش فحسن لهم بداياتها فتمجّلوا لذة النظر والصحبة والمحادثة وعزموا على مقاومة النفس في صدها عن الفاحشة ، فإن صدقوا وتم لهم ذلك فقد اشتغل القلب الذي ينبغي أن يكون شغله بالله تعالى لا بغيره ، وصرف الزمان الذي ينبغي أن يخلو فيه القلب بما ينفع في الآخرة بمجاهدة الطبع في كفه عن الفاحشة ، وهذا كله جهل وخروج عن آداب الشرع ، فإن الله عز وجل أمر بغض البصر لأنه طريق إلى القلب ، ليسلم القلب لله تعالى من شائب يخاف منه ، وما مثل هؤلاء إلا كتل من أقبال إلى سباع في غيضة وهي متشاغلة عنه لا تراه ، فأثارها وحاربها وقاومها ، فيا بمد سلامته من جراحه إن لم يهلك<sup>(١)</sup> .

واستطرد ابن الجوزي فذكر أنه كان ييلاد فارس صوفي كبير فابتلى بحدث فلم يملك نفسه أن دعت به إلى فاحشة فراقب الله عز وجل ثم ندم على هذه الهمة وكان منزله على مكان عال ووراء منزله بحر من الماء ، فلما أخذته الندامة صعد السطح ورى بنفسه إلى الماء وتلا قوله تعالى : « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم » ففرق في البحر .

قال ابن الجوزي : انظر إلى إبليس كيف درج هذا المسكين من رؤية هذا الأمر ، وإدمان النظر إليه ، إلى أن مكّن الحبة من قلبه ، وإلى أن

---

(١) تلبس إبليس من ٢٧٠

حرّضه على الفاحشة ، فلما رأى استعصامه حتّى له بالجهل قتل نفسه فقتل نفسه ، واملاه همّ بالفاحشة ولم يعزم ، والمهمة معفوّا عنها لقوله عليه السلام : عفى لأمتي عما حدثت به نفوسها ، ثمّ إنه ندم على همته والندم توبة ، فأراه إبليس أن من تمام الندم قتل نفسه كما فعل بنو إسرائيل ، فأولئك أمروا بقوله تعالى ( فاقتلوا أنفسكم ) ونحن نهينا عنه بقوله تعالى ( ولا تقتلوا أنفسكم ) فلقد أتى بكبيرة عظيمة ، وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : من تردّى من جبل فقتل نفسه فهو يتردّى في نار جهنم خالدًا مخلدا فيها أبداً<sup>(١)</sup> .

ونقل أن يوسف بن الحسين كان يقول : كل ما رأيتموني أفعله فافعلوه إلا محبة الأحداث فإنها فتنة الفتن ، ولقد عاهدت ربّي أكثر من مائة مرة أن لا أحبّ حدثا ففسخها علىّ حسن الخدود ، وقوام القدد وغنج الميون ، وما سألتني الله معهم عن معصية ، وأنشد قول مسلم بن الوليد في معنى ذلك :

إن ورد الخدود والحدق النجس وما في الثغور من أقحوان  
واعوجاج الأصداغ في ظاهر الخد وما في الصدور من رمان  
تركنتي بين التواني صريماً فلهذا أدعى صريح التواني  
وفي التعقيب على هذا التصريح الفاتك يقول ابن الجوزي :

« هذا الرجل قد فضح نفسه في شيء ستره الله عليه ، وأخبر أنه كلما رأى فتنة تقضى التوبة ، فأين عزائم التصوف في حمل النفس على المشاق ؟ ثم ظن

(١) تلبس إبليس من ٢٧٢

بجمله أن العصية هي الفاحشة فقط ، ولو كان له علم لم أن صحتهم والنظر إليهم معصية ، فانظر إلى الجهل كيف يصنع بأربابه<sup>(١)</sup> .

وقد أطلنا الاقتباس من ابن الجوزي لأن الصفحات التي كتبها في هذا الموضوع من خير ما قرأنا في الدراسات النفسية والخلقية ، ولأنها تصور ما كان يمرض للصوفية من الحيرة الطبقة في تفهم الفروق بين مسالك الرشد والقي ، ومعالج الهدى والضلال .

٧ -- وقد فصل ابن القيم أحوال المحبين ، وعرض لمن عرفوا بالتصون والمغاف ، فقال : عن محمد بن داود الأصبهاني ؛ وكان من أهل الرواة والدين ، ومن أصدق الناس في المشق العفيف :

وأما قصة محمد بن داود الأصبهاني فغابها أن تكون من سمية المغفور المغفور ، لا من عمله المشكور ، وسلط الناس بذلك على عرضه ، والله ينفرد لنا وله ، فإنه تعرض بالنظر إلى السقم الذي صار به صاحب فراش ، وهذا لو كان ممن يباح له لكان تقصاً وعبثاً ، فكيف من صبي أجنبي ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصلته ، إذ لم يطعم في ذلك منه ، فنال منه ما عرف أن كيد لا يتجاوز ، وجعله قدوة لمن يأتيه به بعده كأبي محمد بن حزم الظاهري وغيره ، وكيد الشيطان أدق من هذا<sup>(٢)</sup> .

وهذا نظر قريب من نظر ابن الجوزي ، ويمتاز مع ذلك بالتلطف والرفق فهو يعترف بمغاف ابن داود ولكنه لا يجعله قدوة لمن سواء ، وحسب ابن

(١) التلبس ص ٢٧٣

(٢) روضة المحبين ص ١٤٣

داود من السلامة أن لا يحشر في زمرة الآئمين .

٨ - ونستطيع الجزم بأن محبة الأحداث كانت من الفتن الظاهرة في حياة الصوفية ، وكانت لهم في هذا الباب كنيات ، من ذلك قولهم للغلام الصبيح ( شاهد ) وممنام فيه أنه لحسن صورته شهيد بقدرة الله عز اسمه على ما يشاء ، ويحكى أن أصحاب أبي علي الثقفى تحاموا لفظة ( الشاهد ) بين يديه هية له ، فتواصوا فيما بينهم أن يقولوا للغلام الصبيح ( حجة ) فاتفق أنهم يحبه في بعض الطريق فترأى لهم من بعيد غلام فقال أحدهم ( حجة ) وهو يظن أن أبا علي لا يفتن للغزاة ، فلما قرب الغلام منهم كان غير ملبح فالتفت أبو علي إليهم وقال : داحضة<sup>(١)</sup> :

ويؤيد هذا أن أكثر من ألفوا في التصوف عرضوا لهذه المسألة وأطالوا في الزجر والترهيب ، وقد عقد لها القشيري فصلا قال فيه :

« ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة محبة الأحداث ، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله عز وجل وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو بألف كرامة أهله ، وهب أنه بلغ رتبة الشهداء . . . أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق ؟ وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب ، حتى يعد ذلك يسيرا ، وقد قال الله تعالى : وتحتسبونه هينا وهو عند الله عظيم . وهذا الواسطي رحمه الله يقول : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأتنان والجيف . سمعت أبا عبد الله الصوفي يقول : سمعت محمد بن أحمد النجار يقول : سمعت أبا عبد الله الحصري يقول : سمعت فتحا الموصلي

---

(١) كنيات التنالي ص ٢٠ والنظر بتيمة الدرر ج ١ ص ٢٠٩

يقول : صحبت ثلاثين شيخا كانوا يمدّون من الأبدال ، كلهم أوصوني عند فراق إياهم وقالوا : اتق معاشرّة الأحداث ومخالطتهم . . . فليحذر المرید من صحبة الأحداث ومخالطتهم ، فإنّ السير منه فتح باب الخذلان ، وبدء حال الهجران ، ونعوذ بالله من قضاء السوء<sup>(١)</sup> .

ونظر محمد بن أسباط الصوفي إلى أبي الثني الشيباني وقد نظر في وجهه غلام مليح فقال : إدمان النظر ، يكشف الخبر ، ويفضح البشر ، ويطول به المسكت في سقر<sup>(٢)</sup> .

وقال الملی الصوفي : شكوت إلى بعض الزهاد فساداً أجده في قلبي ، فقال : هل نظرت إلى شيء فتأقت إليه نفسك ؟ قلت : نعم ! قال : احفظ عينيك ، فإنك إن أطلقتهما أوقعتاك في مكروه ، وإن ملكتهما ، ملكت سائر جوارحك<sup>(٣)</sup> .

وقال مسلم الخواص لمحمد بن علی الصوفي : أوصني ، فقال : أوصيك بتقوى الله في أمرك كله ، وإيثار ما يحب علی محبتك ، وإياك والنظر إلى كل ما دعاك إليه طرفك ، وشوقك إليه قلبك فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك ، حتى تبلغ بهما ما يطالبانك به ، وإن ملكتهما كنت الداعي لهما إلى ما أردت ، فلا يمصيان لك أمراً ، ولا يردّان لك قولاً<sup>(٤)</sup> .

وقال الأسود بن طالوت : نظر إلى أبو عمر الصوفي وقد أطلت النظر إلى غلام جميل ، فقال : ويحك ، إن طرفك لمظلم ما اجتني من البلاء ، قد عرضك للمكروه وطول العناء ، لقد نظرت إلى حتف قاتل للقلوب ، وبلاء



مظهر للعيوب ، وعار فاضح للنفوس ، ومكروه مذهل للمقول ، أكلّ هذا لاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مكروه ، ولم تخف كيده ؟ اعلم أنك لم تكن في وقت من أوقانك ، ولا حالة من حالاتك ، أقرب إلى عقوبة الله منك في حالتك هذه ، ولو أخذك لم يخلصك الثقلان ، ولم يقبل فيك شفاعة إنس ولا جان<sup>(١)</sup> .

ورأى بعض الزهاد صوفيا يضحك إلى غلام جيل فقال له يا خرب القلب ويا خرب الطرف ، أما تستحي من كرام كاتبين ، وملائكة حافظين ، يحفظون الأعمال ، ويكتبون الأعمال ، وينظرون إليك ، ويشهدون عليك ، بالبلاء الظاهر ، والغل الدخيل المخامر ، الذى أقت نفسك فيه مقام من لا يبالى من وقف عليه ، ونظر من الخلق إليه<sup>(٢)</sup> .

٩ - ولكن ما دلالة هذه الشواغل ؟ هى بلا جدال باب من الأخلاق والمخلصون من الصوفية عرفوا خطر هذه المزالق الوجدانية ، وتنهبوا إلى خطرها فى عالم الأخلاق .

ولابن الجوزى أن يقول فيهم ما شاء ، فلن ينكر أحد أن هؤلاء القوم وقفوا موقف التحرز والخوف من فن جائحة كانت تقتل الكرامات والعزائم والنفوس فى كثير من الأندية الأدبية والسياسية ، وكانوا وحدهم أصحاب الضمائر فى عهد كان فيها استهزاء العلماء شريعة من شرائع الاجتماع .

وهل من القليل أن يتواصى الصوفية بالحد من صحبة الأحداث فى أزمئة كان يشتري فيها الغلمان المتخيرون ليمسوا زينة القصور فى قرطبة

والقاهرة ودمشق وبغداد ؟

إن من سوء الرعاية أن تغفل أثر هذا التحرز في عالم الأخلاق ، لقد كان الصوفية يؤخذون على النظرة في أيام كانت تكتب فيها أخبار الفسق والجون بعبارات مكشوفة ينكرها الأدب ويأبأها الحياء .

ومن الذى يضمن أن يكون ابن الجوزى صادقا في كل ما كتب عن منازع الصوفية ؟

أولئك قوم كانت لهم في شبابهم صبوات ، فلما من الله عليهم بالتوبة والهداية ظلّ خصومهم يتذكرون ماضيهم ، ويضيفون إليه ما شاء الإفك والبهتان ، ليفضّوا من أقدارهم وليصرفوا عنهم الناس .

ونحن مع ذلك لا نفتكر أن من الصوفية من زلت أقدامهم في محبة الأحداث ، فالمصمّة لله وحده ، وادعاء المصمّة هو في ذاته وقاحة خلقية ، ولا يدعى التصون المطلق إلا خادع أو مخدوع ، ولكن من الكابرة أن نجحد ما أثر عن الصوفية من الفضل في هذا الباب ، وهل في الأدب كله كلمة أبلغ وأفصح وأنصح وأصدق من قول الواسطى طيّب الله ثراه :

« إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأتنان والجيف ! »

أثرون كيف تضطرم نار الغيرة على الكرامة في أحشاء هذه الحروف ؟ وهل رأيتم صدقا أكرم وجهاً من صدق هذا المعنى ؟ هل رأيتم احتقارا للشهوات الحسية أعنف من هذا الاحتقار ؟ رأيتم كيف تكون بلاغة من من خبر الدنيا ، وعرف مكارهاها ، وتبين عناصر الشر فيها ، واهتدى إلى معالم النجاة والمهلك ؟

الحق أن هذه المسألة في غاية الدقة : فالصوفية على خطر ، وناقدوم على خطر الصوفية على خطر : لأن الاعتبار بالجمال قد يكون وسوسة خفية من مكر الشيطان .

وناقدوم على خطر : لأن الإحساس بروعة الجمال قد يكون باباً إلى صقل النفس والوجدان .

وقد يكون الماضى كله ضلالة من الضلالات يوم تنكشف الحقائق ، ويتبين أن الوجود كله معقود الأواصر بقوة كهربائية لا نملك منها الفرار ، قد يظهر يوماً أننا لا نملك الرغبة ، ولا نملك الزهد ، وإعما نحن مسخرون في وجود عجيب يربطنا بقوة قاهرة حول تيارات من الحسن والقبح . إنه ليوم عصيب ، ذلك اليوم الذى نعرف فيه أننا لا نملك غير الثروة ، وأن قانون الوجود يسخرنا كما يشاء ، وأن تاريخ المذاهب الأخلاقية لم يكن إلا مظهراً من مظاهر ذلك القانون .

أترون الرجل يخرج على مألوف العرف وهو طائع ؟ أترونه يثور على التقاليد الدينية والاجتماعية وهو مطلق الاختيار والحرية ؟ ولماذا لا يكون هذا النزاع بين النوايا والهداية نزاعاً فرضته تلك القوة الكهربائية التى لم نعرف من أمرارها إلا شيئاً يشبه السراب حين يتمثل في الأحلام ؟

ثم مارأىكم في هذه الفلسفة ؟ أترونها نوعاً من الشطح ؟ ليكن ذلك ، فنحن من تلاميذ الصوفية ، وهم أقدر الناس على الشطح والهيام في أودية

الخيال !

ولكن حذار أن تفكروا أن الفتن التي اصطدم بها الصوفية كانت مما لا يمكن تخايشه في هذا العالم الغريب ، إن الدنيا خلقت كما شاء البارئ أن تخلق ، ففيها الخير والشر ، والرشد والغي ، والهدى والضلال ، وفيها ما شاء البارئ من السم والترىاق ، فانظروا كيف شئتم ، ولكن تأدبوا ، وتذكروا أن النار إن سلّطت عليكم فستحرق لكم إلى رماد مهين ، مهما اعتصمتم بالفروض والظنون .

قولوا ، إن شئتم ، إن هناك قوانين أخلاقية عاش بفضلها العالم إلى اليوم ثم تذكروا أن هناك شيئاً اسمه الوقاحة ، شيئاً اسمه الحياء ، فإن وصلتم إلى هذه الغاية فاعترفوا ، إن كنتم منصفين ، أن الصوفية تفردوا بين الناس بالحرص على فضيلة الحياء .

إن الوسوسة الخلقية هي في ذاتها أدب عظيم ، والصوفية هم الذين ملأوا الدنيا بالتنفير من فتنة الجمال ، والجمال في ذاته نفحة إلهية ، ولكن الفسق يحوله إلى عصارة قذرة لا يسكن إليها رجل في شمائله ذوق ، وفي روحه صفاء وكيف كان الفسق قذراً مع أنه من النتائج الطبيعية لنظام الأرواح والأبدان ؟

عند هذه المشكلة تتبين رغبة الإنسانية في الكمال المطلق ، فالفسق لا يقع إلا بسبب نزعتين : الاستعلاء الآثم من جانب ، والاستخذاء الساقط من جانب ، ولا كذلك المغاف فإنه لا يكون إلا بفضل عاطفتين شريفتين : الإبقاء الكريم من جانب ، والإباء النبيل من جانب .

فإن قلتم : وكيف اعترفت بهذه المصطلحات ؟ فإنني أجيب بأن بقاءها على هذه الأزمنة الطوال يدل على أن تلك القوة الكهربائية لها في بقائها سرٌّ

خاص . وحين يصبح أن هناك فروقا جوهرية بين التحليق والإسفاف في عالم الأخلاق فسنعرف أن الصوفية كانوا أشرف الناس .

على أن التحرز فيه معنى المقاومة ، والمقاومة من أصول التغلب في هذا الوجود ، ولو قد نظر ابن الجوزي هذه النظرة لعرف فضل هذا المعنى في قصة ذلك الصوفي الذي ابتلى بحب الجمال المحسوس ثم قاوم وغالب حتى فارق الحياة وهو نقي الثياب .

وإننا لندرجو القارئ أن يرحمنا من تهمة التمسب للصوفية ، فنحن — يشهد الله — لا نحب إلا الوقوف في صف المظلومين ، والصوفية قاسوا من الظلم ألوانا كثيرة ، منها اتهامهم بالفسق والمجون ، وممن ؟ من ناس يتركون قصور الوزراء والأمراء والملوك تعج بالدنس والرفث والقذارة والرجس ، ثم يوجهون جهودهم إلى حرب طائفة من الفقراء الذين لا يجدون الكفاف إلا بشق الأنفس في هذا العالم السخيف .

يرحمكم الله ، أيها المؤلفون في الأخلاق ، فأكثركم من أهل الجبن والتلفيق : وأي مظهر للجبن أقبح وأبشع من أن تصنف الكتب الطوال العراض في مثالب الصوفية ، على حين يترك الملوك الظالمون في العصور الماضية بلا رقيب ولا حسيب ؟

أين ما وضع ابن الجوزي وأمثاله في نقد الاستبداد ، وكان يعيش في عصر لا تحترم فيه ملكية ولا تحفظ حقوق ؟ أين ما كتب هؤلاء المتفهبون في الفساد الخلق والاجتماعي الذي كان يندلع لهيبه من قصور الأمراء والوزراء ؟ أين ما دونوا من أصول الأخلاق القومية والدولية في أزمان طغى فيها تيار

المطامع الأجنبية ، وتعرضت ديار العرب والإسلام للخراب والإقواء ؟  
إن الفقير كان ولا يزال مكشوف المورات ، والفنى منذ الزمن القديم يستر  
الميوب . ألم نجد ناسا ينكرون أن يكون الرشيد عرف مجالس الشراب !  
ولكن ما هذا ؟ لعلنا نسرف فى اتهام الإنسانية بإيثار الملقى والمداهنة  
والرياء ؟

إن الصوفية كانوا دعاة الأخلاق ، فمن واجب الناس أن ينبهوهم إلى ما يزلزون  
فيه ، ومن حق الناس أن يحسدوهم على دعوى التفرد بالشرف والاستقامة والتدين ،  
فالصوفية هم الذين خلقوا أسباب الحسد ، وهم الذين دعوا الناس إلى محاسبتهم على  
ما يقولون وما يعملون .

أما الملوك والأمراء والوزراء فلم يكن فيهم من يدعى أنه نموذج فى  
الأخلاق ، ولهذا سكنت عنهم أكثر المؤلفين فى الأخلاق ، وأريد المؤلفين  
المخلصين ، أما النافقون فلم يكن لهم بد من مداراة أصحاب الملك ، وأرباب  
الجاه والثراء .

لكل إنسان أن يعيش كيف يشاء ، وعلى الله حساب الناس فيما يسرون  
وما يعلنون ، ولكن ليحذر من ينصب نفسه داعية للخلق الجليل ، فإن الناس  
سيحاسبونه على كل صغيرة وكبيرة ؛ وسيقولون فيه كل شئ ، بالحق وبالباطل ،  
فلينظر أين يضع قدمه ، وأين يوجه خطراته النفسية والروحية ، وكيف تكون  
صلته بالله وصلته بخلق الله . إن الدعوة إلى الخلق الجليل كالدعوة إلى الدين  
الحق ، وقد رأينا كيف عانى الأنبياء ، من ظلم الجاهلين والسفهاء ، فمن تسامت

نفسه إلى الدعوة إلى البر والشرف فليوطن نفسه على احتمال الضيم والأذى والمقوق .

١٠ - ولنقيد أن هذه الأزمات لا تقع إلا حين تكون الريب والشبهات ، فإذا صفت النفس ، وأمن الريد من عنف الشهوة ، فإن الصوفية يطلقون لأخيلتهم العنان في تصوير الجمال ، وقد تحفظ ابن القيم ما شاء أن يتحفظ ولكنه عقد فصلاً مهماً في كتاب ( روضة المحبين ) وهو الفصل التاسع عشر الذي تكلم فيه عن فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال .

وقد قسم الجمال إلى قسمين ، ظاهر وباطن ، وبين أن الجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال الملم والمقل والجود والمغة والشجاعة ، وهذا الجمال الباطن هو محل نظر الله من عبده وموضع محبته ، وهو يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذات جمال . وأما الجمال الظاهر فزينة خص الله بها بعض الصور عن بعض ، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالى فيها : ( يزيد في الخلق ما يشاء ) .

قال ابن القيم : وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده ، فإن شكره بتقواه وصيافته ازداد جمالا على جماله وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قلبه له شيئاً ظاهراً في الدنيا قبل الآخرة فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحاً وشيناً ، وينفر عنه من رآه ، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يشينه بين الناس ، فحسن الباطن يملو قبح الظاهر ويستره ، وقبح الباطن يملو جمال الظاهر ويستره<sup>(١)</sup> .

---

(١) روضة المحبين ص ٢٣٨

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جرير بن عبد الله - وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسميه يوسف هذه الأمة - قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنت امرؤ قد حسن الله خلقك فأحسن خلقك<sup>(١)</sup> .

وقال بعض الحكماء : ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم فى المرأة ، فإن رأى صورته حسنة لم يشنها بقبيح فعله ، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل<sup>(١)</sup> .

١١ - ومن الواجب أن تتأمل فى هذا الكلام من التربية الخلقية ، فابن القيم يجمل الحسن الظاهر من طيات الأرزاق ، ولكنه يشترط لذلك أن يحسن الخلق ويكمل الدين ، وهو يلح فى هذا المعنى بصيغ مختلفة من التأكيد ، ويستشهد بكلام الرسول وكلام الحكماء .

وهذا التأكيد يدل على قوة الحاسة الخلقية ، فالحسن الفاجر هو فى الواقع حسن وضع ، وفى الخلق السليم جمال أبرع من الجمال المحسوس ، والمعنويات فى جوهرها أشرف من المحسوسات ، والعقل الصحيح يتمثل المحسوس من صور التقريب للمعقول ، والجمال الحسى لا يمكن أن يكون غاية إلا عند أهل الضمة والإسفاف من طلاب الدون فى عالم الشهوات .

والجمع بين المعقول والمحسوس هو غاية النيات ، ولا يتفق ذلك إلا حين يشاء الله أن يسبغ نعمه على بعض العباد ، كالذى وقع فى حياة محمد بن عبد الله يوسف بن يعقوب .



١٢ - ويمضي ابن القيم فيقول : ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس ، ممظاً في القلوب ، لم يبعث الله نبياً إلا جميل الصورة ، حسن الوجه ، كريم الحسب ، حسن الصوت ، كذا قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أجمل خلق الله وأحسنهم وجهاً ، كما قال البراء بن عازب رضى الله عنه وقد سئل : أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر . وفي صفته صلى الله عليه وسلم : كأن الشمس تجري في وجهه . يقول واصفه : لم أرقبه ولا بعده مثله . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذي يرسل إليه حسن الوجه . حسن الاسم ، وكان يقول : إذا أبردتم إليّ بريداً فليكن حسن الوجه ، حسن الاسم ، وقد روى الخرائطي من حديث ابن جريج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه : من آتاه الله وجهاً حسناً ، واسماً حسناً ، وخلقاً حسناً ، وجعله في موضع غير شائن له ، فهو من صفوة الله من خلقه . وقال وهب قال داود : يارب ، أىّ عبادك أحبّ إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة . قال : فأىّ عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر قبيح الصورة . ويذكر عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره نفر من أصحابه على الباب فجعل ينظر في الماء ويسوى شمره ولحيته ، ثم خرج إليهم ، فقلت يا رسول الله ، وأنت تفعل هذا ؟ قال : نعم ! إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه ، فإن الله جميل يحب الجمال ... ودخلت امرأة جميلة على الحسن البصرى فقالت : يا أبا سعيد ،

أيحلم الرجال أن يتزوجوا على النساء ؟ قال : نعم . فقالت : وعلى مثلي ؟ ثم دلت ، فقال الحسن : ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا<sup>(١)</sup> .

وكذلك يدور ابن القيم حول الجمال يمدحه ويطريه ويصف به أشرف الناس ، وما كان لنا أن نهتم بهذا لولا دلالة على نزعة أصيلة من نزعات الصوفية : فالنبي جميل ، والله جميل ، وصفوة الله من خلقه هم المؤمنون من أهل الجمال .

وأظرف موقف في هذه الأحاديث هو موقف الحسن البصري وقد رأى تلك الحسناء ، والحسن البصري هو إمام الصوفية ، وهو مع ذلك يعرف كيف يقول :

« ما على رجل كانت هذه في زاوية بيته ما فاته من الدنيا » .

وهي عبارة بصرية تمثل اللفظة والشوق إلى أفنان الجمال .

١٣ — أولئك هم الصوفية ، وتلك نظراتهم إلى صباحة الوجوه ، أفلا يكون لذلك أثر في فهمهم للأدب وتصورهم للأخلاق ؟

وكيف يمكن أن لا تؤثر هذه النزعات في اتجاهاتهم الخلقية والأدبية ؟ إن الخلق يصدر عن النفس ، والأدب ينبع من القلب ، وأمثال هذه النفوس والقلوب لا تفيض إلا بالرحيق السلسيل في الأدب والأخلاق . ولا يمكن أن يمتري منصف في قوة الخلق عند أولئك القوم ، وإن جهد ناس في ربيهم بالخصيات ، أما الأدب فحسبهم من التفوق فيه أن تفردوا بالإخلاص ،

(١) تخيرنا هذه الشواهد من الصفحات ٢٣٨ - ٢٤٢ من روضة المهين .

والإخلاص هو أساس العظمة في جميع الميادين .

١٤ - واهتمام الصوفية بالجمال ساقهم إلى فن من الأدب الرفيع : هو الكلام عن فضل العفاف ، وكلامهم فيهم مزاج من الأدب والأخلاق ، ومن الصحف الباقية ما كتبه ابن القيم عن عفاف يوسف ، إذ بين « أن الداعى الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حق غيره ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان شاباً ، والشباب مركب الشهوة ، وكان عَزَباً ليس عنده ما يمَوِّضه ، وكان غريباً عن أهله ووطنه ، والمقيم بين أهله وأصحابه يستحي منهم أن يملوا به فيسقط من عيونهم ، فإذا تقرب زال هذا السانع ، وكان فى صورة المملوك والعبد لا يأنف مما يأنف منه الحر ، وكانت المرأة ذات منصب وجمال ، والداعى مع ذلك أقوى من داعى من ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كلفة تعرض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبة التامة والمرادة التى يزول معها ظن الامتحان والاختبار لتعلم عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجوم الداخل على بفتة ، وأتته بالرغبة والرهبة ، ومع هذا كله عفَّ الله ولم يطمعها ، وقدم حق الله وحق سيده على ذلك كله ، وهذا أمر لو ابتلى به سواه لم يعلم كيف كانت تكون حاله <sup>(١)</sup> » .

إن حوادث الصوفية فى الحب المغيف كانت تروى ، وهى آيات من الأدب المتع ، وأى جمال فات هذه القصة ، وقد رواها المبرد بسنده عن

رجاء بن عمرو النخعي قال :

كان بالكوفة فتى جميل الوجه ، شديد التمسك والاجتهاد ، فنزل في جوار قوم من النخع فنظر إلى جارية جميلة فهويا وهام بها عقله ، ونزل بالجارية ما نزل به ، فأرسل بخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسماة لابن عم لها ، فلما اشتد عليهما ما يقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية : قد بلغني شدة محبتك لي ، وقد اشتد بلائي بك ، فإن شئت زرتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتيني إلى منزلي ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الخلتين ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، أخاف نارا لا يخبو سعيها ، ولا يخمد لهيبها ، فلما أبلغها الرسول قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ والله ما أحد أحق بهذا من أحد ، وإن العباد فيه لمشركون . ثم انخلت من الدنيا وألقت علائقها خلف ظهرها وجملت تتمد ، وهي مع ذلك تذب وتنحل حبا للفتى وشوقا إليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتي قبرها فيبكي عنده ، ويدعو لها ، فنلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها في منامه في أحسن منظر ، فقال : كيف أنت ، وما لقيت بمدى ؟ فقالت :

نعم المحبة يا سؤلى محبتكم حبة يقود إلى خير وإحسان

فقال : على ذلك ، إلام صرت ؟ فقالت :

إلى نعيم وعيش لا زوال له في جنة الخلد ملك ليس بالغاني

فقال لها : اذكريني هناك ، فإنني لست أنساك . فقالت : ولا أنا والله

أنساك ، ولقد سألت مولاي ومولاك أن يجمع بيننا فأعنتى على ذلك

بالاجتهاد . فقال لها : متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريب فترانا ، فلم

يمش الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليال حتى مات رحمه الله<sup>(١)</sup> .

فهذه القصة من وضع الصوفية ، وهى من القصص التلميمية التى ألقت لرياضة النفس على إيثار العفاف ، وهى — على جمال مفزاها من الوجهة الخلقية — متخيرة الألفاظ ، بارعة الخيال .

وأجل من هذه القصة وأمتع ما حدثوا أن امرأة جميلة كانت بمكة ، وكان لها زوج ، فنظرت يوماً إلى وجهها فى المرآة فقالت لزوجها : أرى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتن . ؟ قال نعم . قالت : من ؟ قال : عبيد بن عمير . قالت : فائذن لى فيه فلافتننه ! قال : قد أذنت لك . فأتته كالستفتية ، فخلا معها فى ناحية من المسجد الحرام ، فأسفرت عن وجه مثل قلقة القمر ، فقال لها : يا أمة الله ، استترى ! فقالت : إنى قد فتنت بك ! فقال : إنى سائلك عن شيء ، فإن أنت صدقتى نظرت فى أمرك . قالت : لا تسألنى عن شيء إلا صدقتك . قال : أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليقبض روحك ، أكان يسرك أن أقضى لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو دخلت قبرك وأجلست للمساءلة ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو أن الناس أعطوا كتبهم ولا تدرين أناخذين كتابك يمينك أم بشمالك ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو أردت المرأة على الصراط ولا تدرين هل تنجين أو لا تنجين ، أكان يسرك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو جئ بالميزان وحيء بك فلا تدرين أيخف ميزانك أم يثقل ، أكان يسرك أنى

---

(١) روضة المهين ص ٣٤٨ .

قضيتها لك؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت ، فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة  
أكان يسرك أنى قضيتها لك؟ قالت : اللهم لا . قال : صدقت . ثم قال : اتق  
الله فقد أنتم عليكم ، وأحسن إليك .

فرجعت إلى زوجها فقال : ما صنعت؟ فقالت : أنت بطل ونحن بطالون !  
وأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة ، فكان زوجها يقول : مالى ولنبيد بن  
عمير ، أفسد على امرأتى ، كانت فى ليلة عروساً فصيرها راهبة<sup>(١)</sup> .

أرأيتم ما فى هذه القصة من وجوه التربية الخلقية ؟

إن هذا الفن من الأقايسى هو من وضع الصوفية ومن نحنا نحوم من  
أهل الزهد والعفاف ، وهو بما فيه من عناصر الصديق والإخلاص خليف  
بمطاردة ما وضع المفسدون من أخبار الفسق والمجون ، فإن لم يكن الصوفية  
خلقوا هذا الفن فهم الذين أحيوه وأذاعوه ، فإليهم الفضل فى حياته على كل حال ،  
وهو فضل ليس بالقليل .

١٥ - ويتصل بهذا روايتهم للأخبار القصيرة التى تردع الهوى ، وتردّ  
شارد العقل ، من أمثال هذه الكلمات .

قال إبراهيم بن أبى بكر بن عياش : شهدت أبى عند الموت فبكيت ،  
فقال : ما يبكيك؟ فما أتى أبوك فاحشة قط . وقال عمر بن حفص بن غياث :  
لما حضرت أبى الوفاة أنعمى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لى حين أفاق :  
ما يبكيك؟ قلت : أبكى لفراقك ، ولما دخلت فيه من هذا الأمر - يعنى  
القضاء - فقال : لا تبك ، فإنى ما حللت سراويلى على حرام قط ، ولا جلس

(١) روضة المحبين ص ٣٦٤ وتأمل كلمة ( راهبة )

بين يديّ خصمان فباليت على من توجه الحكم عليه منهما . وقال سفيان ابن أحمد : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت ، وقد سَجَى نحو القبلة ، فقامت جارية تغمز رجله ، فقال اغمزيهما ، فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرام قط<sup>(١)</sup> .

ولهذه الكلمات نظائر كثيرة جداً ، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه من أن اهتمام الصوفية بالجمال ساقهم إلى فنون ممتعة من صور الأدب والأخلاق .

ولكن هل وقف الصوفية في حرب الهوى عند ابتداء هذه الأقاصيص ؟ هيئات ! فقد وضعوا طرائق للرياضة النفسية تعدّ من أبداع الدساتير في عالم الأخلاق ، وهم يوصون مدمني الشهوات بملاحظة الأمور الآتية ، وهي كفيلة بتخليص أسير الهوى من برائن الشيطان :

الأول — عزيمة حرّ ينفار لنفسه وعليها .

الثاني — جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

الثالث — قوة نفس تشجبه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلما صبر

ساعة ، وخير العيش ما أدركه العبد بصبره .

الرابع — ملاحظته حسن موقع العاقبة ، والشفاء بتلك الجرعة .

الخامس — ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

السادس — إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خير

وأُنفع له من لذة مراقبة الهوى .

السابع — إيثار لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المصيبة .

الثامن - فرحه بنفلة عدوه ، وقهره له ، وردة خائبا بنفيظه وغمه وهمه ، حيث لم ينل منه أمنيته<sup>(١)</sup> .

التاسع - التفكير في أنه لم يخلق للهوى ، وإنما هيء لأمر عظيم لا يناله إلا بمعصية الهوى .

العاشر - أن لا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم أحسن حالا منه ، فإن الحيوان يميز بطبعه بين مواقع ما يضره وما ينفعه ، فيؤثر النافع على الضار ، والإنسان أعطى العقل لهذا المعنى<sup>(٢)</sup> .

الحادى عشر - أن يسير بفكره في عواقب الهوى : فيتأمل كم أفاتت معصيته من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلت منعت أكالات ، وكم من لذة فوتت لذات ، وكم من شهوة كسرت جاهاً ، ونكست رأساً ، وقبحت ذكراً ، وأورثت ذماً ، وألزمت عاراً لا يفسله الماء ، غير أن عين الهوى عمياء .

الثانى عشر - أن يتصور العاقل اقتضاء غرضه ممن يهواه ، ثم يتصور حاله بعد قضاء الوطر ، وما فاتته وما حصل له .

الثالث عشر - أن يتصور ذلك في حق غيره حق التصور ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة ، لحكم الشيء حكم نظيره .

الرابع عشر - أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك ، ويسأل عنه عقله ودينه بخبراته بأنه ليس بشيء .

الخامس عشر - أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع

---

(١) المدون في هذا المقام هو الشيطان .

(٢) أي أن ما يدركه البهيم يجب أن يدركه الرجل بالعقل .



أحد هواء إلا وجد في نفسه ذلاً ، ولا يفتّر بصولة أتباع الهوى وكبرهم ، فهم أذل الناس بواطن ، قد جمعوا بين الكبر والذل .

السادس عشر — أن يوازن بين سلامة الدين والمرض والمال والجاه ، وبين نيل اللذة المطلوبة ، فإنه لا يجد بينهما نسبة ألبتة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيمه هذا بهذا .

السابع عشر — أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيزة وسقوط همة وميلاً إلى هواء طمع فيه وصرعه وألجه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة .

الثامن عشر — أن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده ، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة ، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدده عن الحق ، وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجور ، وإن وقع في الولاية والمزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يولى بهواه ، ويعزل بهواه ، وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة ، فما قارن الهوى شيئاً إلا أفسده .

التاسع عشر — أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل على ابن آدم إلا من باب هواء ، فإنه يطيف به ليعرف أين يدخل عليه حتى يفسد قلبه وأعماله فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوى فيسرى منه سرمان السم في الأعضاء .

المشرون — أن يتذكر أن مخالفة الهوى تورث العبد قوة في بدنه وقوة

فى لسانه ، وأن أغزر الناس مروءة أشدم مخالفة لهواه ، وأنه مامن يوم  
إلا والهوى والمقل يمتلجان ، فأيهما قوى على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم  
له ، وأن الله سبحانه جعل الخطأ واتباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة  
الهوى قرينين .

الحادى والعشرون - أن يعرف أن الهوى تخليط ومخالفة رَحْمَةٍ ، وأنه  
يخاف على من أفرط فى التخليط وجانب الحمية أن يصرعه داؤه ، وأن  
الهوى رق فى القلب ، وغل فى العنق ، وقيد فى الرجل ، ومتابمه أسير ، فمن  
خالفه عتق من رقه وصار حراً ، وخلع الغل من عنقه ، والقيد من رجله ، واستطاع  
مسايرة الصالحين<sup>(١)</sup> .

١٦ - وهذه الأمور لخصناها من كلام مطول أثبتته ابن القيم فى نهاية  
كتابه المتع ( روضة المحبين ) وقد وصل به اجتهاده إلى نحو خمسين وسيلة  
لدعوة النفس إلى حرب الهوى . وفى هذه الشواهد مقنع لمن يمتري فى مزج  
الصوفية بين المقل والدين ، فهم لا يتمدون على الشرع وحده ، وإنما  
يحملون الكرامة الإنسانية مما تنصب له الموازين ، وهل كان الشرع فى جوهره  
إلا مبعث يقظة للمقل والوجدان ؟

# الموسيقا والغناء

فضل موسيقا في التذكير بعالم الأرواح - اختلاف الناس في فهم  
الصور المعنوية للموسيقا والغناء - الألحان في الأغاني الدينية وفي  
القرآن - رأى الصوفية في السماع - حسن النية وشرف القصد  
هما الأساس في لإباحة الغناء - بين الفقهاء والصوفية - طرائق  
الإنشاد في مجالس الذكر - مجالس الصوفية تنقلب أحياناً إلى مجالس  
فنية - أثر الغناء في الأدب - بين الرمز والإفصاح .

١ - ليس من البالغة أن نحكم بأن الصوفية تفردوا بين أهل الأدب  
والأخلاق بالتجويد في الموسيقا والغناء ، فهم الذين نظروا في ذلك نظراً فلسفياً  
وهم الذين جعلوا الموسيقا والغناء من المشاكل الخلقية وهم الذين صيروا إنشاد الشعر  
في المحافل العلنية باباً من الأدب الرفيع .

٢ - ولنبدأ هذا الفصل بتحليل الحوار المتع الذي وضعه إخوان الصفا  
في فضل الأنغام الموسيقية ، فهو يمثل فهم الصوفية لأثر الموسيقا في تثقيف  
الأرواح والقلوب .

حدثوا أن جماعة من الحكماء والفلاسفة اجتمعوا في دعوة ملك من  
الملوك فأمر أن يكتب كل ما يتكلمون به من الحكمة ، فلما غنى الموسيقار  
لحناً مطرباً قال أحد الحكماء : إن للغناء فضيلة يتعذر على المنطق إظهارها  
ولم يقدر على إخراجها بالمباراة فأخرجها النفس لحناً موزوناً فلما سمعتها  
الطبيعة استلذتها وفرحت وسررت بها فاسمعوا من النفس حديثها ومناجاتها .

وقال آخر : احذروا عند استماع الموسيقى أن تثور بكم شهوات النفس  
البهيمية نحو زينة الطبيعة فتميل بكم عن سنن الهوى وتصدكم عن مناجاة  
النفس العليا .

وقال آخر للموسيقار : حرك النفس نحو قواها الشريفة من الحلم  
والجود والشجاعة والعدل والكرم والرأفة ، ودع الطبيعة لا تحرك شهواتها  
البهيمية .

وقال آخر : الموسيقار إذا كان حاذقا بصنعتة حرك النفوس نحو الفضائل  
ونقي عنها الرذائل .

وقال آخر : سمع فليسوف نفمة القينات فقال لتلميذه : امض بنا نحو  
هذا الموسيقار لعله يفيدنا صورة شريفة ، فلما قرب منه سمع لحناً غير  
موزون ونفمة غير طيبة فقال لتلميذه : زعم أهل الكهانة أن صوت البوم  
يدل على موت إنسان ، فإن كان ما قالوا صدقا فصوت هذا الموسيقار يدل  
على موت البوم .

وقال آخر : الموسيقار وإن كان ليس بحيوان فهو ناطق فصيح يخبر عن  
أسرار النفوس وضائر القلوب<sup>(١)</sup> .

وقال آخر : لا يفهم معاني الموسيقار ولطيف عبارته عن أسرار الفيوب  
إلا النفوس الشريفة الصافية من الشوائب الطبيعية ، والبريئة من الشهوات  
البهيمية .

---

(١) الموسيقار في هذه العبارة هو الآلة الموسيقية .

وقال آخر : إن النفوس الناطقة إذا صفت عن الشهوات الجسمانية ، وزهدت في الملاذ الطبيعية ، وانجذبت عنها الأصدية الهيولانية ، ترنّت بالألحان الحزينة ، وتذكرت عالمها الروحاني الشريف العالى وتشوفت نحوه فإذا سمعت الطبيعة ذلك اللحن تعرضت للنفس بزيئة أشكلها ، ورونت أصباغها ، كما تردها إليها ، فاحذروا من مكر الطبيعة أن تقوموا في شبكتها .

وقال آخر : إنما تشخص أبصار الناظرين إلى الوجوه الحسان لأنها أثر من عالم النفس ، ولأن عامة الرثيات في هذا العالم غير حسان لما يمرض لها من الآفات الشائنة المشوهة ، إما في أصل التركيب أو بعده . وبيان ذلك أن الصغار من المواليد يكونون أطف بنيةً وأظرف شكلاً وصورة لقرب عهدهما من فراغ الصانع منها ، وهكذا حكم ما يرى من حسن الثياب ورونقها في مبدأ كونها قبل الآفات العارضة لها من الموام والبلى والفساد .

٣ - تلك فقرات قصيرة من الحوار الطويل الذى كتبه إخوان الصفا في فضل الموسيقى والغناء<sup>(١)</sup> ولم ننقل الحوار برمته لأن منهج البحث لا يحتم ذلك . ويكفى أن ندل القارئ على الغرض الذى وُضع لأجله ذلك الحوار وهذه الفقرات تشير إلى أنهم يتمثلون أصولاً روحانيةً للهياكل الجسمانية ، ويتصورون أن الغناء قد يوجه النفس إلى الخير حيناً ، وإلى الشر أحياناً ، يوجهها إلى الخير حين ينبه الموسيقى إلى الواجب الأشرف في تحريك النفوس نحو قواها الشريفة من الحلم والجود والشجاعة والعدل ، ويوجهها إلى الشر حين يتغنى بالشهوات الحسية فيثير في النفس أسباب الشوق إلى موارد النى والضلal .

(١) انظر المحاورة كاملة في رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ١٧٥ - ١٧٩ .

وإخوان الصفا من الصوفية ، وإن لم يصرحوا بذلك ، وهم يستشهدون بكلام أهل التصوف في مواطن كثيرة ، وفي هذا الباب نقلوا من توادهم ما يؤيد رأيهم في اختلاف التأثيرات الموسيقية باختلاف النفوس . وهم يرون أن « كل نفس إذا سمعت من الأوصاف ما يشا كل معشوقها ، ومن النغمات ما يلائم محبوبها ، فرحت وسُرَّتْ والتذت بحسب ما تصورت من رسوم معشوقها ، واعتقدت في محبوبها ، وتلك المعشوقات تختلف باختلاف الطباع ، فللطبع السليم معشوقات روحانية ، وللطبع الليل معشوقات أرضية ، وقد صرحوا بأن أبصار الناظرين تشخص إلى الوجوه الحسان لأنها أثر من عالم النفس . كأن ذلك العالم كله جمال . وعلى هذا الأساس يكون الفناء المذهب تذكيراً بالمحاسن الغيبية في عالم الروح .

٤ - والحق أن الفناء كان منذ الزمن القديم عنصراً حياً في التقاليد الدينية وكان من الأنبياء من يعتمد على صوته الجميل في جذب الناس ، ففي الحديث أن داود عليه السلام قد أُعطي حسن الصوت حتى كان يستمع لقراءته إذا قرأ الزبور الجن والإنس والوحش والطير <sup>(١)</sup> وكان بنو إسرائيل يجتمعون فيستمعون ، وكان يحمل من مجلسه أربعائة جنازة ممن قد مات <sup>(٢)</sup> .

ولا تزال الكنائس المسيحية منذ نشأتها الأولى عامرة بالأناشيد ، وللكنائس الفرنسية تأثير في الموسيقى والفناء يعرفه من يهتم باللوحات الغنائية وقد جمعت عدداً وفيراً من أناشيد الرهبان ، ولا سيما الأناشيد المعروفة بالجرىجوارية .

---

(١) اللع من ٢٦٨ .

والقرآن نفسه لُحْنٌ وقُرِئَ بالألحان منذ عهد الرسول ، وصحَّ للجاحظ أن يحكم بأن القراءة بالألحان غير الغناء <sup>(١)</sup> .

وكذلك درج الصوفية على مدح الصوت الحسن فكان ذو النون يراه مخاطبات وإشارات إلى الحق أودعها كل طيّب وطيبة <sup>(٢)</sup> وكان يحيى بن معاذ يراه رَوْحَةً من الله لقلب فيه حبّ الله <sup>(٣)</sup> .

هـ — وأهم ما امتاز به الصوفية هو التحرز في السماع وهم يكرهونه إذا تطرق إلى الغرض منه الفساد والمخالفة واللامو وترك الحدود <sup>(٤)</sup> وعندهم ما يسمى السماع بالحال ، والذي يسمع بحاله يتأمل إذا سمع حتى يَرِدَ عليه معنى من ذكر عتاب أو خطاب ، أو ذكر وصل أو هجر ، أو قرب أو بعد ، أو تأسف على فائت ، أو تمنّش إلى ما هو آت ، أو ذكر طمع ، أو يأس أو بأس ، أو بسط أو استثناس ، أو خوف الاقتراق ، أو وفاء بالعهد ، أو تصديق بالوعد ، أو نقض للعهد ، أو ذكر قلق أو اشتياق ، أو فرح الاتصال ، أو ترح الانفصال ، أو التحسر على ما لم ينل ، أو القنوط من الذي أُمل ، أو ذكر صفاء المحبة ، أو التمكن من المودة ، أو ذكر اعتراض الصبوة بمد تمكنه من الخطوة ، أو ذكر محافظة الرقيب عند ملاحظة الحبيب ، أو تباريح الشجون ، وفنون الفتون ، فإذا طرق سمعه من ذلك حال مما يوافق حاله فيكون كالقادح يقدح في سره على قدر قوة إرادته فيعجز عن الضبط <sup>(٥)</sup> .

---

(١) وهناك رأى يقول بأن فواتح السور في القرآن هي علامات موسيقية . وقد شرحت هذا الرأي في كتاب الزثر الفني ج ١ ص ٤١

(٢) اللع ص ٢٦٩

(٣) ص ٢٧٣ و ٢٧٦

(٤) ص ٢٧٨

وعندهم السماع بالحق ومن الحق ، والذي يسمع بالحق ومن الحق لا يلتفت إلى هذه الأحوال ، لأنها وإن كانت شريفة فهي ممزوجة بمحظوظ البشرية ، والذين يكون سماعهم بالله ولله ومن الله وإلى الله هم الذين وصلوا إلى الحقائق وعبروا الأحوال ، وفنوا عن الأفعال والأقوال ، ووصلوا إلى محض الإخلاص وصفاء التوحيد ، نغمدت بشريتهم ، وفنيت حظوظهم ، وبقيت حقوقهم ، فشهدوا موارد الحق بالحق بلا علة ولا حظ للبشرية ، وأطلعهم تلك الموارد على أسرار حكمتهم ، وأرنتهم آثار قدرته ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء<sup>(١)</sup> .

٦ - وينبغي أن نتذكر أن الصوفية تفردوا بين رجال الدين بالتشيع للموسيقا والغناء ، فن الفقهاء من يرى أن الغناء لهو مكروه يراد به الباطل ويقضى بأن من استكثر منه فهو سفيه ردُّ شهادته<sup>(٢)</sup> ، وذلك الفقيه هو الشافعي رحمه الله . أما مالك فقد نهى عن الغناء وقال : إذا اشترى جارية فوجدتها مغنية كان له ردُّها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد<sup>(٣)</sup> وأما أبو حنيفة فكان يجعل سماع الغناء من الذنوب<sup>(٤)</sup> .

أما الصوفية فقد أقبلوا على الغناء ، ولم يشترطوا إلا حسن النية ، وشرف القصد ، وتفردت الطريقة المولوية باستجازه المزف على الآلات الموسيقية على اختلاف أنواعها أثناء مجلس الذكر ، وكان لهذه الطريقة أشياع في الأقطار الفارسية والتركية ، وكان لهم في مصر تكية في حي السيوفية بالقاهرة وكانت لهم حضرة أسبوعية يتشوف إليها المولعون بالموسيقا والغناء ، وقد

---

(١) انظر اللع ص ٢٧٩ (٢) الإحياء ج ٢ ص ٢٦٧ (٣) الإحياء ج ٢ ص ٢٦٨



أعلقت الحكومة المصرية تلك التسمية ، ورأينا يوم إغلاقها جماعة من أهل  
الأدب يمترضون في الجرائد على حرمان الموسيقي من براءة أولئك  
القوم<sup>(١)</sup> .

والذي يراجع كتب الصوفية يراها تفيض بالكلام عن الوجد والسماع  
وآداب المستمعين . وفي كتاب الإحياء فصل ممتع تلخصته وناقشته في كتاب  
الأخلاق عند الفزالي<sup>(٢)</sup> ، ولا أرى المود إلى تلخيصه في هذا الحديث ، وبكفى  
أن يتذكر القارئ أن عناية الصوفية بالكتابة عن الموسيقى والفناء فيها وسواس  
كثيرة تمثل عنايتهم بالفنون وحرصهم على الأخلاق<sup>(٣)</sup> .

٧ — أما طريقة التفنى في مجالس الصوفية فقد يتبناها الأستاذ التفتازاني  
في مقال نشره في مجلة المعرفة — عدد يونيه سنة ١٩٣١ — وهو يقول :

« إن الصوفية درجوا منذ القديم على أن يبدأوا مجالس الذكر  
بـ ( لا إله إلا الله ) وتعرف عندهم بالأرضية ، ويأخذ ( الرسيم ) الذي  
هو رئيس المجلس في التدرج بالذاكرين أثناءها من الراسـت « الرصد » إلى  
الدوكة إلى السيكاه إلى الجهر كاه ( الجركاه ) إلى الحجاز ثم الرهاوى فالكردي

---

(١) ذهبت مرة لسماع أولئك القوم ولكن الشيخ محمد عبد المطلب رحمه الله صادفني في  
الطريق فصرفني عن ذلك الغرض وكانت حجته أنهم مبتدعون ، فضاعت بذلك فرصة  
ما أظنها تعود .

(٢) ص ٢٦٨ — ٢٧٤

(٣) كان ابن القيم في أغلب أحواله من خصوم الصوفية وقد أنكر عليهم حب الفناء ،  
وهو يسمى الفناء - ( قرآن الشيطان ) ويستشهد بقول ابن مسعود « الفناء ينبت الزناق في  
القلب كما ينبت الماء البقل » ويذكر أنه شاهد نقل القرآن على أهل الفناء والسماع ( مدارج  
السالكين ج ١ ص ٢٧٥ ) والحق أن رأى ابن القيم في هذه القضية لا يخلو من اعتساف ،  
خلاوة القرآن لا توجب أن تحف النفوس لسماعه في كل وقت ، لأن النفوس لا تستلذ للجد في  
كل حين ، فقد صاغها الله من ألوان مختلفات .

فالبياى فالصبا . وهنا تبدو مقدرة الرئيس فى نقل الذاكرين من نعمة إلى نعمة  
كما تبدو مقدرة المنشدين فى متابعتهم للأتغام والإنشاد . والغالب فى الإنشاد على  
الأرضية أن يكون من كلام الصوفية كقولهم :

إلهى نوسلنا بجاه محمد نبيك وهو السيد المتواضع

أتلنا مع الأحباب رؤيتك التى إليها قلوب الأولياء تسارع

إلى آخر القصيدة ، ثم ينفرد رئيس المنشدين بعد الوصول إلى نعمة  
الرصد أو إلى النعمة التى ينتهى عندها إنشاد القصيدة بالاستغاثة ( أغثنا  
أدركننا يا رسول الله ) ثم يقول الموال من نفس النعمة ، فالأبيات التى  
سينشدها عند قيام المجلس من نفس النعمة أيضاً ينشدها على الأرض مقطعة  
وعند قيام الذاكرين يكرر الأبيات بالطريقة المألوفة ، ثم ينفرد بعد ذلك  
بالمقطعات والقصائد والرقائق وما إليها من كلام الصوفية . وقد يستبجح  
بعضهم أن ينشد الأدوار الموسيقية بمذاهبها وورودها المروفة على مجلس الذكر ،  
ولكن هذه الطريقة قاهرة محضة ، ويكاد لا يتبعها إلا رجال الطريقة الليثية  
أصحاب الفضل على هذا الفن وأساتذة مبرزيه وحلة ألوته فى القاهرة منذ  
مائتى عام . »

٨ - وقد لاحظت أن مجالس الصوفية كانت تنقلب أحياناً إلى مجالس  
فنية ، فعلى مجالس تقعد ظاهراً لذكر الله ، ولكن الغرض منها الفناء . فقد  
كان فى حق الحسين منزل تقام فيه حضرة كل ليلة ثلاثاء . وكان ذكر الله  
فى الصورة الشكلية يتولاه طائفة من المعجزة معجزة الدراويش ، أما نظام  
المجلس فيقوم على فن الشيخ حسن الحويجى ، وكان منشداً حلو الصوت ،

عذب الأداء ، خفيف الروح ، وكان ينشد في الحضرة أبياتاً من شعر ابن الفارض ، مثل :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتييل بلا إثم ولا حرج

ثم يندفع فيغنى « آنست يأنور الوجود ، شرفت ياروح المهجة ، بعد البعاد أنا قلبي عليك » أو « الكمال في الملاح صُدَف » إلى آخر الأغاني الطريفة التي كانت تغنى في الليالي الملاح .

وكنت ألاحظ أن أهل ذلك المنزل يحملون ليلة الحضرة ليلة قصف فيجمعون خلاصهم حول الموائد ويتنشدون بأغايب الأحاديث .

وكان المستمعون يقترحون « الأدوار » على نحو ما كانوا يفعلون في حفلات الطرب والأنس . وقد اقترح بعضهم دور « حود من هنا وتعال عندنا » فمضب الشيخ الحويجي وقال : نحن لسنا في الأذربكية . . . أما أنا فكنت أفهم من شواهد الحال أن الأذربكية ليست منهم يبعيد !

وكان الشيخ الحويجي ريحانة عصره ، فلما انتقل إلى جوار ربه تمطلت تلك الحضرة ، فما استطاع منشد آخر أن يجذب القلوب إلى ذلك المكان<sup>(١)</sup>

---

(١) هو بيت الصواف ، وكان له فناء واسع تنوم فيه عدة نخلات ، وفي ذلك الفناء تقوم الحضرة على الحصير ، وفي الأثناء يجلس المدعوون المخصوصيون على الأرائك . وبالقرب منه كان بيت الشيخ مصلح ، وكان صوفياً متأخراً يمشي عيش المترفين ، وكانت الحضرة تنام في بيته ليلة الاثنين ، وما كان فيها ذكر ولا أناشيد ، وإنما كان يجتمع القراء المصهورون لقراءة القرآن بالألحان . وكان القراء يجيدون القرصة لتكون سمعهم بين الجماهير ، قبل أن تخلق الإذاعة اللاسلكية بأعوام طوان . والشيخ مصلح مدفون بقرية الشيخ عبيد بجوار المطرية . وقد حدثني الأستاذ محمد لطفي رحمه أن بيته لا يزال مصوراً بمريديه القدماء .

٩ - وكانت مجالس الذكر مدونة لتخرج الفنانين ففها ظهرت تبشير النبوغ للرحومين عبده الحامولى ومحمد عثمان وسلامة حجازى ويوسف النىلاوى وسيد درويش . وفى القرى المصرية مئات من قراء الموالد هم فى الأصل من أتباع الصوفية .

١٠ - واهتمام الصوفية بالفناء عاد على الأدب بكثير من النفع : فهناك مجموعات شعرية وضمت لحفظ الأناشيد الصوفية ، منها سفينة النجاة ، وهى مجموعة صنف منذ عشرين عاما ، صنفها الأديب محمود نسيم ، وقد عاينته على ترتيبها يوم كنت موصول المعهد بالسادة الشاذلية .

وقد انتقل فريق من تلك الأناشيد إلى الأغاني الحسية ، أغاني الرح والطرب فى عالم الحس الذى يتأخم عالم الروح . ومنذ ليال كان صالح عبد الحى يغنى فى قاعة الدنيا :

إن شكوت الهوى فما أنت منا إحمل الصد والجفا يا معننى  
وهى قصيدة صوفية يتلقاها أكثر الناس بالقبول ، وهى فى أنفسهم صورة من الوجد الحسى المشبوب .

١١ - وأكثر الأغاني الصوفية رمزيات وفيها مايفصح عن أغراضهم كالذى نراه فى هذه الحائية :

أبدأ تحنّ إليكم الأرواح	ووصالكم ربحانها والراح
وقلوب أهل وداكم تشاؤكم	وإلى لذيذ لقائكم تراح
وارحنا للعاشقين نكلّوا	ستر المحبة والهوى فضا
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم	وكذا دماء البائمين تباح

يا صاح ليس على المحب ملامة  
سمحوا بأنفسهم وما بخلوا بها  
ودعاهم داعي الحقائق دعوة  
ركبوا على سنن الوفا ، ودهوهم  
والله ما طلبوا الوقوف بـبابه  
لا يطربون لفير ذكر حبيبهم  
حضرُوا فتابوا عن شهود ذواتهم  
أفنامهم عنهم وقد كشفت لهم  
قتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم  
١٢ - وفي الصوفية من اهتم بتحديد المعاني المفقولة من الحسيات إلى  
الذوقيات ، فقد حدث ابن عربي أن من سماعهم قول ابن حيوس .

أُسْكَنَ نَمانَ الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سـكان

(١) من الوفاء لبحث أن نذكر مرة ثانية أن ابن القيم يرتاب في الفناء وينكره على الصوفية ، وهو يراه أفضح من شرب الخمر ، ويقول : وأي نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة المشق التي لا يستفيق الدهر صاحبها إلا في عسكر المالكين سلباً حريماً أسيراً قتيلاً ؟ وهل تقاس سكرة الغراب إلى سكرة الأرواح بالسماع ، وهل يظن بحكيم أن يحرم سكرًا لمفسدة فيه مطومة وبيع سكرًا مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة انشرب ؟ فإن نازعوا في سكر السماع وتأثيره في العقول والأرواح خرجوا من الذوق والحس ، وظهرت مكابرة القوم ، فكيف يحسن الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته ، وبيع له ما فيه أعظم السقم ، والنصف يعلم أنه لا نسبة بين سقم الأرواح بسكر الغراب ، وسقمها بسكر السماع ( مدارج السالكين ج ١ ص ٢٧٩ ) وما يراه ابن القيم عن الفساد يراه الصوفية عين الصلاح ، لأنهم يدعون إلى كل ما يهيج الدلوى وبوقظ النفوس إذ كانت طريقتهم قائمة على تنبيه ما غفا من الأذواق والأحاسيس ، وفهم من لا يفرق بين الحلال والحرام ويرى أن العاصي والمطيع أمام الحق سواء . ويظهر من كل ما سلف أن أهل الطريقة وأهل الحقيقة يختلفون في الأساس الذي يقوم عليه صرح الأخلاق .

وَدُّومُوا عَلَى حِفْظِ الْوَدَادِ فَطَالَمَا بُلِّيتُ بِأَقْوَامٍ إِذَا اسْتَحَفُّوْا خَانُوا  
سَلُّوا اللَّيْلَ عَنِّي مَذَتْتَاهُ دِيَارَكُمْ هَلْ اكْتَحَلْتُ بِالنَّوْمِ لِي فِيهِ أَجْفَانُ  
ثُمَّ قَالَ السَّمَاعُ الرُّوحَانِي فِي ذَلِكَ : « سَكَانُ نَهْمَانِ الْأَرَاكِ هُمُ الْمَارْفُونُ  
فِي نَعِيمِ حَضْرَةِ الشَّاهِدَةِ وَمَحَلُّهَا قُلُوبُهُمْ . يَقُولُ لَطِيفَتُهُ الرَّبَّانِيَّةُ لِهَذِهِ الْمَهْمِ :  
دَاوَمُوا فَإِنِّي دَفَعْتُ إِلَى نَفُوسٍ أَخَذَ عَلَيْهَا الْعَهْدَ الْإِلَهِي فِي الْمِيثَاقِ الْأَوَّلِ  
نَفَخَانُوا ، ثُمَّ أَخَذَ يَصِفُ نَفْسَهُ بِالْقِيُومِيَّةِ تَخَلُّقًا إِلَهِيًّا ، أَيْ عَلَى قَدَرِ التَّجَرُّدِ مِنْ  
عَالَمِ التَّرَكِيبِ الَّذِي هُوَ عَمَلُ النَّوْمِ إِلَى الْعَالَمِ الْأَنْزَهَةِ الْأَقْدَسِ الَّذِي لَا نَوْمَ فِيهِ  
مِيرَاثًا نَبَوِيًّا مِنْ أَنَّهُ لَا يَنَامُ قَلْبُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ أَخَذَ يَخَاطِبُ الْمَهْمَ أَنَّ  
لِعَالَمِ سَيُوفِهَا إِذَا بَرَقَتْ مِنْ مَنَازِلِهَا مَنَازِلُ الْأَحْيَةِ فَنَمُدُّ هَاتِيكَ السَّيُوفَ أَجْفَانِي ،  
أَي لَا أَنَامُ ، يَكَادُ سَنَا بَرَقَهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ <sup>(١)</sup> .

وهذه العبارة فيها حيرة ، حيرة ابن عربي بين مقام الله ومقام الرسول ،  
وسبب ذلك يرجع إلى قوله بالحقيقة المحمدية ، فالنبي مألوه من جانب وإله  
من جانب ، فهو رب ومربوب ، هو رب حين تراه صاحب الفضل على جميع  
الوجودات ، وهو مربوب حين تتصور تبعيته لواجب الوجود ، وقد فصلنا هذه  
القضية في الجزء الأول تمام التفصيل .

ثم حدثنا أن من سماع الصوفية قول مهبّار :

مَنْ نَظَرَ لِي بَيْنَ سَلْعٍ وَقُبَا <sup>(٢)</sup> كَيْفَ أَضَاءَ الْبَرْقُ أَمْ كَيْفَ خَبَا  
نَهْنَى وَمِيشُهُ وَلَمْ تَسْمَعْ عَيْنِي وَلَكِنْ رَدَّ قَلْبًا عَزْبَا  
بَرَقَ لَهُ قَدْ صَارَ قَلْبِي خَافِقًا <sup>(٣)</sup> وَاسْتَبْرَدَتْهُ أَضْلَعِي مَلْتَبَا

(٢) سلع وقبا : موضعان

(١) محاضرة الأبرار ص ٢١٤ ج ١

(٣) رواية الديوان : قرت له بنات قلبي خافقاً .

بالبعيد من مَنى دنا به - يوهمنى الصدق - بريق كذبا  
ولنسيم سحر بحاجر ردت به عهد الصباريح الصبا  
ألية ما فتح المطار عن أعقب منها نفساً وأطيبا  
سل من يدل الناشدين بالنضا على الطريد ورد السلبا  
أراجع لى - والمنى تعة - وطالع نجم زمان غربا  
وطوفة بين القباب بنى لا خائفاً عيناً ولا مرتقبا

ثم قال : « السماع الروحاني للعارف فى ذلك : من ناظر لى بين المقامات  
المحمدية كيف لمع برق المعرفة ، أم كيف خبا مطويا فى غيم الكون ، أيقظنى  
لمعانه على أن عيني ما نامت عنه ، ولكن كان العقل منصرفاً إلى عالم التدبير  
فردّه إلى العالم المدبر ، فسكنت له هم القلوب بعد طيرانها خضعاً كسلسلة على  
صفوان ، واستبردت برد السرور ما كان حامياً بشور التنزلات الإلهية ، فلما  
لاح له الممين من خلق خلقة الرصد مثال النور المنزل ليقبله منه عرفه بالحفظ  
الإلهى فقال : يوهمنى الصدق بريق كذب . ثم رجع ينادى أيضاً بالبعد من  
عالم الأنفاس فى البرزخ المشترك بين النور والظلمة دلّ عليه وعلى عصر شبابه  
ريح الصبا وشروق نفس التنفس من نفس الرحمن بما هو أطيب من المسك  
عرفنا ونشراً ، ثم قال : سل من يدل الناشدين قلوبهم بمقام الاشتياق على  
الطريق عن البناء الأعز ، ويرد قلباً أخذ منه على غرة ثم قال : أراجع لى  
ذلك السلب ، والمنى قد تكون أمانى ، وهل يطلع نجم سعد غرب ؟ أى صار  
فى الحجاب . وهل أرانى طائفاً متردداً بين القباب الساترة شمساً لا خائفاً

بقول : لم ؟ ولا مترقباً وعد حصول الاتصال وانتظام الشمل بالأحباب<sup>(١)</sup> .

وهذا الكلام على ركا كته واضح الدلول ، فهو يعنى أن الصوفية قد يتفنون بأشعار حسية ، ولكنهم يفتقلونها إلى آفاق روحانية .

وما احتاج ابن عربى إلى هذا الشرح إلا لأنه كان مشغولاً بتعميد التصوف ، أى إقامته على قواعد وأصول .

وكان الأفضل أن يترك هذه المعانى بلا شرح ، فللأرواح آفاق أوسع وأرحب مما يظن ، والصوفى الوصول القلب والروح بعالم المعانى قد يفهم من الغناء أشياء لا يصل إليها شرح ولا تفسير ولا تأويل .

وشعراء الحواس أنفسهم لا تفننهم « ليلي » من حيث هى امرأة . وإنما يتمثلون بها معانى كثيرة جداً ، منها الهجر والوصل والعذاب والنعيم .

والصوفى يمجز حقاً وصدقاً عن شرح أسباب هُيامه حين يسمع الغناء ، ومثله مثل الموسيقىار الحساس الذى يطرب من حيث لا يعرف بالضبط كيف طرب .

والصوفى الحق لا ينكر المحسوسات ، فهو قد يحب « ليلي » الحقيقية . بجانب « ليلي » المجازية ، لأن ليلي الحقيقية سطر جميل فى لوح الوجود .

الصوفى الحق لا يحتاج إلى التبرؤ من جميع المحسوسات كما يتبرأ أمثال ابن عربى ، لأن المحسوسات هى التصوير للمعقولات ، وهى المفتاح الذى تدخل به فردوس المعانى .

---

(١) انظر محاضرة الأبرار ص ٢١٥ ج ١ وتذكر ما أشرنا إليه فى الجزء الأول من تأويل قصائد (ترجمان الأشواق) .



الصوفي الحق يرتاح لكل قول ، ولكل صوت ، ولكل منظر ، ولكل  
نخبر ، وهذه المرئيات ليست من الأوهام ، وإنما هي شواهد تشير إلى حقائق ،  
كما تشير الألفاظ إلى المعاني .

الصوفي الحق يمتدح جميع المضللين وجميع المفتونين لأنهم في رأيه من  
السالكين وإن جهلوا الطريق .

الصوفي الحق يطرب لكل شيء ، ويأنس بكل شيء ، ويتناقل عن  
الشروح لأنها تفسد النفحات الوجدانية التي تأخذ عبيرها من الإيهام والغموض .  
الصوفي الحق لا يعرف ماذا يريد ، وهل كان مجنون ليلي يعرف بالضبط  
ماذا يريد ؟ .

الصوفي الحق يرتاح إلى الحيرة كما يرتاح الجاهلون إلى اليقين .

\*\*\*

اللهم ضللي في هواك ، واجملي وحدى أسير الضلال في هواك ، فبفضلك  
ورحمتك ذاق العارفون طعم الضلال .  
وهل كانت الهداية الصريحة إلا نصيب الأغبياء ! .

## الأدب الصوفي عند الشمراني

مولد الشمراني ونشأته - زوجته وأخوه - رضاه عن نفسه -  
اعتقاده في الكرامات - انطباع الشعب المصري على الإيمان بكل  
مجهول - التصوف من سمات الضعف - دهاء الصوفية - حرص  
الشمراني على رضا جميع الطبقات - شواهد من أخلاقه العالية -  
ذهاب الحزم من مصر باتتصاف القرن العاشر - رأى الشمراني في  
الطبيعة الإنسانية - الإسناد والإيجاد - الترفق في معاملة الفاسقين -  
الرفق بالأعداء - كيف تعامل من يظلمنا - غض البصر عن عيوب  
الناس - كيف تعامل النصارى واليهود - كيف تعامل الفرق  
الإسلامية - كيف تعامل المحكام - الشخصية الخلفية للمريد -  
تربية المريد من الوجهة الخفية - تأثر الشمراني بالبيئة المصرية -  
الشمراني والمحواس

١ - رأينا من الخير أن ندرس بعض الشخصيات الصوفية التي اهتمت  
بنشر محاسن الأخلاق ، فبدا لنا أن نكتب فصلاً من النزالي ، ثم تذكرنا  
أننا نشرنا عنه كتاباً في أكثر من أربعمائة صفحة هو « الأخلاق عند النزالي »  
الذي قدمناه إلى الجامعة المصرية في سنة ١٩٢٤ وتذكرنا أيضاً أن مؤلفات  
النزالي كانت من أهم مراجع هذا الكتاب ، فنحن ما نسيناه حتى نفرد  
ببحث خاص .

وبعد التأمل رأينا أن ندرس إحدى الشخصيات المصرية التي أثرت أبلغ  
التأثير في ذبوع الثقافة الصوفية بين المصريين ، فرأينا الشمراني أكبر شخصية  
أثرت في الأدواق المصرية ، وسيطرت على الجماهير زمناً غير قليل .

وقد يكون من أسباب ميلى إلى درس هذه الشخصية أن الشمراني عرف  
سنتريس - وفي ألفاظه وتعاييره أخيلة لا تزال حية في سنتريس - فقد نشأ

في ساقية أبي شعرة وهي بلدة تجاور بلدنا ولنا فيها أقارب وأصدقاء . ومن أجل نشأته في ساقية أبي شعرة سمي الشعرائي ، وهو عند نفسه يسمى الشعراوى ، وهو اسم كثير الذبوع في البلاد المصرية كان يسمى به الناس أبناءهم تيمنا بذلك الإمام الجليل .

ويظهر أن شخصية الشعرائي غرست في ساقية أبي شعرة حب التصوف فلا تزال عامرة بذكرات الأولياء ، ولا يزال أهلها يقيمون الموالد وينشرون آداب الطريق ، وقد بلغ بهم الأمر أن اخترعوا شخصية جديدة هي شخصية الشيخ خالد ، وقد زعموا أنه خالد بن الوليد ، فغذبوا به الناس إلى بلدهم عدداً من السنين .

وفي ساقية أبي شعرة ضريح لرجل من الصالحين اسمه الشعراوى وهم يؤكدون أنه والد عبد الوهاب الشعراوى الذى نكتب عنه هذا الفصل<sup>(١)</sup> وهو كلام لا نعرف مبلغة من الصواب .

٢ - ولد الشعرائي في قلقشندة في بيت جده لأمه سنة ٨٩٨ هـ وبعد أربعين يوماً من مولده انتقل إلى بلدة أبيه ساقية أبي شعرة فنشأ بها وأقام فيها إلى الثانية عشرة وظل موصول المهذب بالبلد الذى نشأ فيه لأننا نراه يكثر من التحدث عن أولياء المنوفية<sup>(٢)</sup> ثم انتقل إلى القاهرة ف تلقى العلم على كبار الشيوخ في عصره ، ثم ارتفع شأنه فصار شيخ زاوية ، وكان هذا المنصب من المناصب المرموقة في ذلك الحين<sup>(٣)</sup> ، وأقبل على التأليف فترك روة فقهية وصوفية لم يترك مثلها من العلماء إلا الأقلون .

(١) حدثنا بذلك الدكتور محمد حلى عيد .

(٢) كالتى وقع منه وهو يسرد ما عرف من كرامات إمام جامع سعادون .

(٣) جاء في بعض كلامه « إذا رفعت نصرت عالماً أو شيخ زاوية » .

ولسنا في حاجة إلى ترجمة الشعراني فكتبه هي ترجمة نفسه لأنه يتحدث عن أحواله وأعماله في جميع المناسبات حتى أخبار بيته وأهله يراها القارىء في كتبه مفصلة أتم تفصيل<sup>(١)</sup> .

(١) ترجم الشعراني نفسه ترجمة كاملة في مقدمة كتابه ( لطائف المثنى ) فذكر أنه من ذرية الإمام محمد بن الحنفية وأن جده السابع كان سلطان تلسان ، وأنه حفظ القرآن وهو في سن التمييز ، وأنه واطب على الصلاة منذ كان عمره ثمانى سنين ، وأن الله عصمه من الآفات مع أنه نشأ يتيم الأبوين وأن الله سخر التماسيح له حين غرق في النيل وأنه حفظ مثنى أبى شجاع ومثنى الأجرومية ودرسهما على أخيه في الريف قبل أن يهاجر إلى القاهرة . فلما هاجر إلى القاهرة حفظ من التلون ما لم يحفظه أحد من أهل عصره ، ثم صحب الأشياخ وكان له من علومهم أوفى نصيب .

وفي نهاية كتاب ( البحر المورود ) رسالة صغيرة كتبها الشعراني عن المؤلفات التي قرأها ، وهي تمثل مراجع الثقافة في ذلك العصر ، وكذلك صنع في ( لطائف المثنى ) فذكر طائفة عظيمة من المؤلفات التي درسها وقدم لنا أمتع صورة من أساندة القاهرة في القرن العاشر . وكان إخوة الشعراني من أهل العلم : نعرف منهم هيد القادر الذي درس عليه في الريف مبادئ النحو والفقه ، ونعرف منهم أفضل الدين الذي تحدث عنه في جميع مؤلفاته . ويظهر أن أباه كان أيضاً من أهل العلم ، فقد جاء في لطائف المثنى ج ١ ص ٢٥٦ ما نصه : « وقد أنشد الوالد رحمه الله تعالى :

الناس داء دفين لا دواء له	العقل قد حار منهم فهو منذهل
إن كنت منبسطاً سميت مسخرة	أو كنت متقبضاً قالوا به ثقل
وإن تخالطهموا قالوا به طمع	وإن تجانبهموا قالوا به ملل
وإن تهوّر يلقوه بمنقصة	وإن تزهد قالوا زهده حيل

إلى آخر ما قاله رحمه الله تعالى الرحمة الواسعة آمين » .

ولكن من المؤكد أن أباه كان من الفقهاء بدليل أنه حين هاجر إلى القاهرة عاش في كنف شيخ جامع القمري فكان بين أولاده كونه واحد منهم يأكل مما يأكلون ويلبس مما يلبسون ، وقد شكر هذا الشيخ وأولاده بقوله في أدب وعطف « فلا يجزيهم عنى إلا الله تعالى » أنظر لطائف المثنى ج ١ ص ٣٢ .

ويظهر مما نقل على مبارك باشا عن كتاب ( الدرر المنظمة ) أن أولاد القمري حمدوه بعد ذلك واتبعوا عليه فكر جامعهم وانتقل إلى مدرسة خوند - وعلى كثرة ما نظرت في كتب الشعراني لا أذكر أنه أشار إلى ما وقع من أولاد القمري ، فإن كان سكت سكوتاً تاماً عن مضايقتهم له حين عظم أثره فإنما كان ذلك لأنه راعى ما قدموا إليه في صباه من حسن الصنيع .

والذى يتذكر أن العرب والمسلمين قلما يتحدثون عن نسائهم في الأَشعار<sup>(١)</sup> والمصنفات يدهش حين يرى الشعرائى يقول : وما رأت عيني من نساء عصرى أكثر مواظبة على قيام الليل من زوجتى أم عبد الرحمن فربما صلت خلفى وهى حبل على وجه الولادة بنصف القرآن ، وهذا عزيز جداً<sup>(٢)</sup> أو يقول : وأما أم ولدى عبد الرحمن رضى الله عنها فلها الآن معى تسع عشرة سنة فإ رأيتها قط وهى تقضى حاجتها فى خلاء البيت إلى وقتى هذا<sup>(٣)</sup> أو يقول : ومن اطلعت عليها من النساء تخاف على رؤية شخصها وهى فى الإزار وتستحي أن يراها أحد وهى خارجة من الخلاء زوجتى فاطمة أم عبد الرحمن رضى الله عنها . سافرت بها إلى الحجاز ثلاث مرات فما أظن أن المكام رأى لها حجماً قط من حين خرجت من بيتها إلى أن دخلت مكة المشرفة ثم رجعت إلى بيتها ، وكانت تركب فى مثل العقبات فوق ظهر القتب داخل الحمل المغطى ، ونزل نساء الأكابر كلهم فى نزول العقبه وطلوعها وهى لم تنزل وما شعرت قط بقضاء حاجتها ، لا فى المحطات ولا فى حال السير . رضى الله عنها . ولم تركب قط حاراً ، وقالت : لا أستطيع أن يراى أحد ، حتى الكحال عجزت فيها أنه يرى عينها فلم أفدر عليها . ورضيت بالوجع وصبرت حتى زال الرمد وضاف مبق عينها اليسرى عن العين اليمنى إلى الآن ، فهذا أمر رأيت منه ، ولم يبلغنى وقوع ذلك لأحد من عيال

(١) لم يكن من المقبول عند شعراء العرب أن يتحدثوا عن نسائهم ، وإن تحدثوا عن معشوقاتهم ، وكان من العيب أن يروى الرجل شعراً قيل فى أمه وإن كان من شعر أبيه . وقل من شعراء العرب من رثى زوجته ، وأشهر من عرف بهذه الحلة من الوفاء الطغرائى وابن الزيات .

(٢) لوائح الأنوار ص ٤٣

(٣) الاوافق ص ٢٨٧

إخواننا . فالحمد لله رب العالمين على ذلك<sup>(١)</sup> .

وهذه الفقرات تدل على أمرين : الأول أنه كان سعيداً في حياته الدنوية ولذلك أثر في فهمه لقواعد الأخلاق ، والثاني أنه كان يتمثل الكمال الخلقى في المرأة على وجه لا يخلو من تعسف ، بدليل أنه رأى من موجبات الحمد أن ترحب زوجته بألم الرمد في سبيل التحرز من رؤية الكحال ، أى طبيب العميون .

٣ - وبجانب اطمئنان الشعرائى على أخبار بيته كان له جانب آخر من الطمأنينة هو الأنىس بمودة أخيه أفضل الدين : فقد كان أخوه هذا من أهل الصلاح ، وكان به حفيظاً ، فهو يذكره في مناسبات كثيرة بلسان رطب ويضفى عليه خلل الثناء<sup>(٢)</sup> .

ويظهر أيضاً من حديثه أنه كان راضياً عن أصدقائه فهو يطوف بأخبارهم من حين إلى حين ، ويتحدث عنهم حديث الفرح الجذلان .

ويضاف إلى ذلك كله رضاه عن نفسه فقد كان يرى مسلكه في دنياه من أشرف المسالك ، ولذلك نراه يكتر من الحديث عن « من » الله عليه كأن يقول « عرضوا على نحو أربعة آلاف دينار أوصى بها لى قاضى اسكندرية فرددها احتياطاً لنفسى من أكل مال القضاء والشبهات التى لم تقسم لى وخوفاً عليها من ميلها إلى جمع مال الدنيا ، فالحمد لله على ذلك » وكأن يقول فى مقدمة كتابه تنبيه المغترين « شيدت أخلاقه بأفعال السلف الصالح من

(١) م ٢٥٩ - ٢٦٠ وكلمة « عيال » هنا معناها المرأة ، وأهل مصر اليوم يسمون المرأة « عائلة » فيقول أحدهم : خرجت مع العائلة . يعنى زوجته .

(٢) انظر مثلاً م ١١٥ و ٢٥٤ من لواقح الأنوار . وراجع إن شئت كتاب لطائف المتنجد الشعرائى ذكر أخاه بالحير فى أكثر من مائة موضع .

المصحابة والتابعين ، والعلماء الماملين ، وبما منّ الله علىّ بالتخلق به أوائل دخولى فى طريق محبة القوم ، خوفاً أن يقول بعض المعتنقين : كيف يأمرنا فلان بالتخلق بأخلاق القوم وهو لم يقدر على هذه الأخلاق . فلكذلك صرحت بكثير من الأخلاق التى منّ الله بها علىّ هون أقرانى « وكذلك قال فى مقدمة كتاب لطائف المنن ، وهو كتاب مملوء بالزهو والخيلاء ، وكله شواهد بأن الشعرانى كان عند نفسه أفضل الناس .

وهذا الرضا المطلق عن النفس والأهل يفسر لنا جانباً مهماً من شخصية الشعرانى ، فهو سر ما اتصف به من الجرأة فى نقد ما رآه من الزيف والانحراف فى أخلاق معاصريه . والرجل حين يتخلص من آفات نفسه يفرغ للناس ، كذلك كان الشعرانى قوى الجنان وهو يحارب طغيان الولاة وإسفاف العلماء .

والرضا عن النفس ليس من الشوائب المقبولة عند الصوفية ، ولكن هذه خصيصة من خصائص النفس الشعرانية ، ونحن ننص عليها من أجل ذلك ، فإنا نملك خلق النفوس من جديد لنسلكها فى سبط واحد ، وإنا نسجل ما عرفناه من ألوان النفوس .

وربما كان من العدل أن نقيّد هذا المترع من الخيلاء ، فالشعرانى كان يستبج الحديث عن فضائل النفس حين تخلص النية ، وحين يكون لذلك غرض مقبول ، كالتأثير على المريدين وجذبهم إلى الاعتقاد فى شيخهم ليقبلوا على تعاليمه بنفوس معمورة بالحب والإجلال<sup>(١)</sup> .

---

(١) انظر البحر المورود ص ٢٦٩ .

٤ - وكما حدثنا الشمراني عن أهله وعن نفسه حدثنا كذلك عن عقليته .  
فهو رجل يؤمن بالكرامات إيماناً مطلقاً ويرى الأولياء يقدرون على كل  
شيء . وليس من المستبعد عنده أن يعرف الولي أخبار البيوت ، ومن الممكن  
في رأيه أن يبيع الرجل الحشيش وهو في حقيقة أمره من الأولياء ، ويجوز  
في تصويره أن ينقل الرجل من مكة إلى مصر في مثل لمح البصر إذا دفعه أحد  
الواصلين . وحدثنا أن أستاذه الخواص كان يرسل أصحاب الحوائج إلى رجل  
كان يبيع الفجل على باب الأزهر فيقضيها لهم في الحال ، وأن هذا الرجل  
كان لا يأكل أحد من فجله ويبدنه مرض من جذام أو برص أو غيرها  
إلا شفى لساعته ، وحدث عن الشوني أن أحد الحمارين في قطرة الموسكى  
كان معروف البركة فلا تركب حماره مومس إلا تاب ، ولا تمود للزنا  
أبداً ، وأن أحد باعة الحشيش كان لا يشتري أحد منه قطعة إلا تاب عن  
الحشيش<sup>(١)</sup> وحدثنا أنه اجتمع بابليس على ساحل النيل وجادله وسمع منه أن  
الإنسان ككفتي الميزان وقلبه كلسان الميزان<sup>(٢)</sup> .

ومؤلفات الشمراني تفيض بالآفاسيص عما صنع المجاذيب ، ولهذا  
الجانب أهمية في فهمه لقواعد الأخلاق ، فالشخصية الخلقية في نظر الشمراني  
هي شخصية تصدق كل شيء ، وإن أحالته العقول ، ما لم يعارض النصوص  
الشرعية ، فن حدثنا أنه قرأ القرآن كله خمس مرات من المغرب إلى المشاء  
فهو صادق ، ومن حدثنا أنه قرأ القرآن كله بالحروف<sup>(٣)</sup> ثلاثمائة ألف مرة

(١) انظر تفاصيل هذه الاشارات في لوائح الأنوار ص ٩٩ - ١٠١ .

(٢) اللوائح ص ٢٠٦ . (٣) الحروف : هي القراءات .



في يوم وليلة فهو صادق ، لأنه « إذا تجردت الروح عن هذا الجسم الكثيف فمات ذلك <sup>(١)</sup> » .

ويظهر من النقول المبثوثة في كتب الشمراني أن الصوفية المصريين لعمدته كانوا جميعاً يقولون بالكرامات ، ويظهر كذلك أنه كان في مضر لذلك المهد طوائف من الفقهاء تنكر الكرامات : لأنه شغل نفسه بحاجة من ينكرون ما اختص به الأولياء .

والتعليل نفسه يدل على سذاجة عقلية : فهو ينقل عن أستاذه محمد الرصني أن الأولياء يتفق لهم أن يقضوا في يوم واحد ما لا يمكن قضاءه إلا في سنين : لأن أعمار هذه الأمة قصيرة فأقدر الله الخواص على إنجاز الأعمال بسرعة البرق ليرجعوا على عباد الأمم الساقية الذين عاشوا نحو الخمسمائة سنة <sup>(٢)</sup> .

وليس يعنينا أن نناقش صحة الكرامات : لأننا لم نصل في فهمها إلى حكم مقبول . وإنما يعنينا أن نسجل أن الشمراني كان يرى الشخصية الخلقية شخصية لا يؤذيها أن تعق العقل ، ولا يضرها أن تسوء الظواهر في بعض الأحوال . وما كتبه عن الخواص يشهد بأنه كان يؤمن بالكرامات إيمان المجاذيب <sup>(٣)</sup> وما كتبه عن نفسه يدل على حق : فقد حدث أنه سمع تسبيح الجادات والحيوانات وسمع من يتكلم في أطراف مصر بل في سائر أقاليم الأرض وسمع تسبيح السمك في البحر المحيط <sup>(٤)</sup> ويهمننا أيضاً أن نسجل أثر الشمراني وأمثاله في تلوين العقيلة المصرية : فقد انقطع هذا الشعب على

(٢) أنظر لطائف المتن من ٢٦ و ٢٧ ج ١

(١) البحر المورود من ٢٦٨

(٣) أنظر لطائف المتن ج ٢ من ١٧٩

الإيمان بكل مجهول . وقد رأيت من كبار العلماء من يدافع عن الكرامات في دروسه بالأزهر الشريف ، وللشيخ الدجوى في ذلك مباحث طوال . ورجاني أحد الأدباء الممتازين أن أكتب فصلاً في هذا الكتاب أشرح به وجه الحق في الكرامات . ورأيت رجلاً من أهل الفضل يتحدث عن القطب وكرامات الأقطاب . وما أحسبه كان من المازحين . ومنذ أيام تلقيت رسالة من أحد قراء البلاغ حدثني كاتبها عن رجل من علماء الأزهر يزعم أنه رأى النبي في المنام وأن النبي قضى بأن يكون إمام الأولياء .

وما أدعى أن الاعتقاد في الكرامات خاص بأهل مصر : فقد عقد لها الغزالي باباً في الإحياء . وإنما أحكم بأن الشعراي كان أكبر من غرسوا هذه العقيدة في البيئات المصرية ، وإليه يرجع الفضل في توجيه الناس إلى ما في الكرامات من حدائق الخيال !

والاعتقاد في الكرامات عزاء كبير للفقراء : فهم يخلقون لأنفسهم دنيا من المجد الموهوم يعوضون بها ما ضاع عليهم من حظوظ الحياة . ومن المؤكد أن هذه الوسواس لا تسود إلا في عصور الضعف السياسي والاقتصادي : حين تصبح الأمة وهي فارغة الأيدي من سلطان الجاه والمال . ومن ذلك رأينا المسلمين في عصور قوتهم لا يعرفون غير الواقع ، مع أن الصلاح كان من أغلب الصفات عليهم ، ثم رأينا في عصور الانحطاط يصدقون كل شيء ويلقون زمامهم إلى كل مخلوق ، عسا هم ينسون ما هم فيه من شظف العيش ونكد الشقاء .

٦ - والتصوف نفسه من مظاهر الضعف ، والرجل لا يتصوف إلا

حين يئأس ، لأنه بفطرته حيوان مفترس لا ينتظر المجهول من حظوظ النفس ، وإنما يصاول ويفتك ليظفر بحظوظ الأمراء والملوك .

وقد جاء في كلية ودمنة أن ذا المروءة لا ينبغي له إلا إحدى اثنتين : أن يكون بين الملوك مكرماً ، أو بين النساك متبتلاً . وهذه الكلمة هي الفیصل : فالرجل يطلب المنزلة المالية في جميع الأحوال ، فإن فاتته بين الملوك لم تفته بين النساك . ومعنى ذلك أن التبعيد نفسه لا يخلو من كبرياء .

وقد استطاع الصوفية بدعائهم المصقول وكبريائهم المكبوت أن يجعلوا كلمة الحرمان هي العليا : فما زالوا يغمزون أهل الدنيا ويلمزونها ويسوئون سمعتهم ويرمونهم بالبهتان حتى صبح عند السواد أن الفقراء هم الملوك حقاً ، وأن الملوك المتوجين لا يملكون غير « الدنيا » وهي متاع الفتونين !

والذي يراجع سير الأنبياء يرى الفقراء كانوا أسرع الناس إلى إجابة الدعوة « إن نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا » وإنما كان ذلك لأن الأنبياء يعدون أتباعهم السلطان المطلق في عالم السماء . والفقراء بفطرتهم الحيوانية يتشوفون إلى السيطرة ، فإن فاتتهم هنا أدركوها هناك .

٧ - وخلاصة القول أن الشمراني وأصحابه وجدوا في مصر تربة خصبة فأنبثوا فيها ما شاءوا من صنوف الخيال ، وكان شيوع الشعوذة الصوفية في هذه البلاد يسيرجنباً لجنب مع ما اصطفاه نصارى مصر من النحلة الأرثوذكسية ، فإن اصطفاه نصارى مصر للمذهب الأرثوذكسى لم يقع إلا بفضل ما هم عليه من الضعف : لأنه مذهب مشبع بالخرافات ، والخرافات هي السند لكل مخلوق ضعيف .

والذى يتأمل أحوال مصر فى العشرين سنة الماضية يؤكد صدق ما أقول  
فى أيام الحرب العالمية كان لشايخ الطرق سلطان عظيم ، لأن الناس كانوا يثسوا  
من المجد السياسى ، فلما هبت الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ شغل الجمهور بشاغل  
جديد ، وانقطع الخلاف بين الشاذلية والخلوتية ، وحل محله الخلاف بين السعديين  
والوطنيين والدستوريين .

ولأمر ما كان التصوف يسمى الفقر ، وكان الصوفية يسمون الفقراء .

أرونى بهذا أغص من تلك النزعة الروحية ؟

هيهات ، وإنما أردتها إلى أصل صحيح من ضمائر الناس .

ألم تسمعوا أن أحد الرؤساء هدد مرءوسه فقال : إن لم تستقم أقتك من غد  
فى الصف الأول ؟

والصف الأول هو صف المبكرين إلى الصلاة : صف من يسبقون الإمام  
إلى رؤية المحراب !

ولا يعرف الناس لزوم المحارب إلا بعد أن تخلو أيديهم من أدوات الحرب  
فى سبيل المجد أو فى سبيل المماش .

مالى ولهذا الاستطراء ؟ يكفى أن أسجل أن القاهرة لم تحتلء بالزوايا ولم يكن  
للشعرانى فيها حظ مرموق إلا لأن أهلها كانوا غلبوا على أمورهم الدنيوية ففضوا  
يلتمسون الأسباب إلى فتح أبواب السماء .

وما كان الشعرانى بالأحق ، وكيف وهو الذى أحصيت عليه أنه قال فى  
مؤلفاته أكثر من خمسين مرة :

### « العاقل من عرف زمانه »

إي والله ، فقد عرف الرجل زمانه فساس أهله بما ينبغي أن يساسوا به فلم يمت إلا وهو ( القطب الرباني ، والمحقق الصمداني ) وذلك متاع ليس بالقليل .

٨ - أترانا نتجنى على الشعراني حين نصفه بالترفق في مداراة الناس ليظفر

بالسمعة وبمد الصيت ؟

انظر في مقدمة « اليواقيت والجواهر » ومقدمة « البحر المورود » فإن فعلت فستعرف أنه كان يحرص أشد الحرص على الظفر بالزعامة في التصوف والدين : أي أنه كان يريد أن يكون مرضياً عنه من أهل الحقيقة وأنصار الشريعة ، وإلى هاتين الجبهتين كانت ترجع أصول الصدارة بين الناس .

كان الشعراني يؤلف الكتاب في التصوف ثم يعرض إلى العلماء فيستكتبهم بالقبول ليصح له القول بأن كتبه ليس فيها ما يخالف الشرع ، وكان الناس يعرفون عنه ذلك فيعمدون إلى كتبه فيضيفون إليها زيادات تدخله في الخطيئة الخطيرة : خطيئة الصوفية المتفلسفين الذين يتطلعون إلى الخروج على المؤلف من مقبول الآراء<sup>(١)</sup>

---

(١) كان الشعراني شديد الحرص على حسن السمعة بين رجال الشريعة لتصح له السيادة الروحية والدينية . وفي نهاية كتاب البحر المورود شاهد لذلك فقد دون إجازات أربعة من أعلام عصره أحدهم حنبلي ، وثانيهم حنفي ، وثالثهم مالكي ، ورابعهم شافعي ؛ ليكون مرضياً عنه من الجميع .

٩ - ولكن مهلا - فهذا الرجل الذى نضيفه إلى أصحاب المطامع كان من نواذر الرجال فى كرم الأخلاق ، وفى كتبه صحائف تُكتب بماء الذهب ، ولو شئت لقلت بمداد من دماء القلوب ، فقد حدثنا هذا الرجل - وهو صادق - أنه كان يزجر من يراه من أصحابه يتجسس على عيوب الناس<sup>(١)</sup> وهذا أدب نبيل .

وحدثنا - وهو صادق - أن من منن الله عليه كثرة ستره لمورات المسلمين الذين لم يتجاهروا بالمعاصى ، وأنه يرى ذلك من جملة الواجبات . وهو الذى يقول :

« إن من جملة سترنا للمسلم أن نطلق عليه بابه إذا رأيناه خارجاً وهو سكران ، ونأمر الأجنيبة التى معه فى الخلوة المحرمة أن تنزل من حائط الجار إن خفنا أن أحداً ينظرها إذا خرجت من المحل الذى هى فيه . كل ذلك حتى لا يعلم أحد بمصيان ذلك الرجل . لا سيما إن كان جاراً لنا . وكما يترتب على كشف السوءات مفسدة . فإياك يا أخى أن تفشى سر أخيك المسلم ولو لأعز أصدقائك ، فإنه يحكى ذلك لكل الناس إن كان ساذجاً ، وإن كان حاذقاً فيحكى ذلك لبعض الناس ويأمرهم بالكتمان فيصير كل واحد يخبر صاحبه ويأمره بالكتمان حتى تمتلئ البلد<sup>(٢)</sup> وأحدهم يحسب أنه كتم ما رأى والحال أنه هتك أخاه بين الناس<sup>(٣)</sup> » .

ولا يكتفى بذلك ، بل يذكر أن من نعم الله عليه انشراح صدره

---

(١) لطائف المنن ج ٢ ص ٧

(٢) البلد فى كلام الشعراء مؤنثة وهى لغة أهل النوبة ، وقد ورد مذكراً فى القرآن .

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠١ .

ومطابقة نفسه في محبة ستر عدوه وكراهته لكشفها مع أن الغالب على الناس إظهار الشمة بالمدو وإظهار عورته<sup>(١)</sup> .

وهذا الأدب دعا إليه الشعرائى فى جميع مؤلفاته ، وهو يرى العصاة من أصحاب الجود الموائر ، وينظر إليهم بيمين المطف والإشفاق ، ويترفق فى هدايتهم إلى الله ، وهذا من أخلاق الأنبياء<sup>(٢)</sup> .

والذى يلفت النظر فى هذا الموطن هو التغاضى عن عيوب الأعداء : لأنه يفرض قوة عظيمة فى ضبط النفس ، فهو من أخلاق الأقوياء من الرجال . وفى أسدقائى رجل ابتلاه الله بلؤم الحاقدين وامتحنه بكيد السفهاء ، ومع ذلك لا أذكر أن لسانه أو قلمه خاض فى عرض أحد ممن يتقولون عليه الأقاويل ، وقد يتفق له فى أحيان كثيرة أن يحارب خصومه أعنف الحرب ، ولكنه لا يحاربهم إلا فى العلانية ، ولا يتعرض أبداً لمقاتلتهم الأخلاقية . وإنما يثير فى وجوههم الدخان فيتوهم من لا يعرف أنه يقذفهم بالنار ، مع أنه يصرف الناس عامداً عن دخالهم الأثيمة ويشغل الجمهور عن مساوئهم بأمور صغيرة هى الكلام عن العلم والجهل . وأعداء هذا الرجل يعرفون فيه ذلك الخلق ويفهمون فى أن زوال الجبل من مكانه أقرب إلى الإمكان من خوض قلمه أو لسانه فى الأعراض . ولذلك يهجمون عليه مستبسلين . وهو لو شاء لزلزل بهم الأرض ولكن نعمة الله عليه فى هذا الأدب أحب إليه من قهر الأعداء .

١٠ - وبما يجب النص عليه من أحوال الشعرائى أنه كان يعتقد أن الخير فى مصر ينتهى بانتصاف القرن العاشر ، ثم تصبح دنيا المصريين مسبعة

(١) لطائف المنن ج ١ ص ٢٠٢ .

(٢) سترى بعد قليل شواهد أخرى من نبل الشعرائى فى معاملة الناس

لأمن فيها ولا سلام . وانظر ما يقول في البحر المورود<sup>(١)</sup> :

« أخذ علينا العهد أن لا تصدر للشفاعة في الناس عند الحكام إذا دخل النصف الثاني من القرن العاشر ، إلا إن كانت عندنا حال وتصريف في الحكام بالولاية والعزل ، فإن من لا كشف عنده ربما أغلظ على الحاكم فقال له الحاكم : إن كنت صالحا فافتحنى فلا يقدر على نفحه فيفتضح عند الحاكم . وسمعت سيدي عليا الخواص يقول :

« كان عند الحكام بقية خوف من الله تعالى يمتنعون به عن ظلم العباد فرفع الله ذلك خامس عشر صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة . قال : وعن قريب يصير حاشية الحاكم يأخذون من الإنسان الجمالة ولا يقضون له حاجة ويطلب فلوسه مثلاً فلا يصل إليها ، والله غفور رحيم » .

والخواص الذي نقل الشعراني عنه أن الحياء ذهب من الحكام في الخامس عشر من صفر سنة ثمان وثلاثين وتسعمائة هو نفسه الذي قال :

« كان قد بقى في الناس بعض سترة لبعضهم بعضاً فرفع الله تعالى حكمها في سنة سبع وأربعين وتسعمائة وما بقى أحد يقدر على كشف عورة أخيه ويستترها إلا قليل من الناس ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم<sup>(٢)</sup> » .

وقد طاف حول هذه المسألة في كتاب آخر هو لواقح الأنوار ، فذكر مرة أنه لم يبق في مصر من يصلح للأستاذية في الطريق ، لأن الأشياخ فقدوا وكان آخرهم علي الرصفي<sup>(٣)</sup> وذكر مرة ثانية أنه أدرك طريق الفقراء ولها حرمة عند الناس

(٢) البحر المورود ص ٢٧٥ .

(١) ص ٢٧١ .

(٣) اللواقح ص ٢٠٤ .



وعلى أصحابها الخير والهيبة فرفع الله تعالى ذلك بموت السادة : على الرصيفي  
وعلى الخواص ومحمد الشناوى<sup>(١)</sup> .

ويظهر أن الشعرا في لم يكفه أن يذهب الخير من مصر بانتصاف القرن العاشر ،  
بل ترقى في سوء الظن فحكم بأنه أخذ يذهب من الدنيا منذ انقضى الثلث الأول  
من القرن السادس ، وقال في ذلك :

« أخذ علينا المهد العام من رسول الله أن لا تتمنى الموت إلا إن خفنا على  
أنفسنا من فتنة في ديننا في هذا الزمان الذي يرى الإنسان دينه في كل يوم  
ينقص عن اليوم الذي قبله ، وهذا الأمر قد وقع من حين انتهى كمال الدين  
وهو سنة سبع وثلاثين وخمسمائة ، كما رأيت ذلك في لوح نزل من السماء في واقعة  
في المنام ، وقد أخذت الأمور كلها يا أخى في النقص وصار دين المؤمن ينقص  
كل يوم عن الحال الذي قبله ، وصار يتصعب على الإنسان القبض على دينه  
كما يتصعب عليك القبض على جرة في كفه ليلاً ونهاراً ، فكما ضعف عن  
دوام القبض على الجرة كذلك ضعف عن دوام القبض على الدين على حد سواء ،  
فلا يموت الإنسان يوم يموت إلا على أنقص الأحوال . وأول أخذ الدين  
في النقص من سنة سبع وخمسمائة حين بلغ أهل العلم حدم ، وأهل الطريق  
حدم . هذا ما رأيته مكتوباً في لوح تجاء مدرسة الشيخ إبراهيم المواهي  
الشاذلى بباب الخرق<sup>(٢)</sup> من مصر المحروسة ، وكان في سلسلة فضة ،  
وقد أشار إلى ذلك الشيخ عبد العزيز الدريني في منظومته وكان في سنة  
سبعين وخمسمائة يقول :

---

(١) الواقع من ٣٣٢

(٢) هو باب الخلق .

وقد بدأ النقص في الأحوال أجمعها وبدلت صفوة الأوقات بالكدر<sup>(١)</sup> وهذه الفقرة تشهد بأنه رأى التاريخ مرتين ، مرة في لوح نزل من السماء ، ومرة في لوح مكتوب تجاه مدرسة بياب الخلق ، ومع ذلك نراه في مكان آخر يحكم بأن الدين أخذ في النقص في منتصف القرن السابع<sup>(٢)</sup> ويقول :

« وقد مضى الأئمة والعلماء والقوامون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأظلمت الدنيا لفقدانهم ، وكانت أنفاسهم تهميمهم من الظلمة حتى يقوموا بالمرتبة حين كان الدين في زيادة ، فلما أخذ الدين في النقص في سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ضمعت قلوب العلماء وعجزت عن إزالة المنكرات لكثرتها ، وقلة من يساعد عليها ، وقلة الولاة الذين يسمعون للعلماء<sup>(٣)</sup> » .

وما ندرى كيف وقع الشعرا في هذه الورطة فأخذ يؤرخ نقص الدين ويعترب في التاريخ .

وما ندرى أيضاً كيف صح عنده أن الدين لم يلحقه نقص إلا في القرن السادس ، أو السابع ، أو العاشر ، مع أنه هو نفسه روى أن سفيان الثوري كان يخرج إلى السوق فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فما مات حتى صار يرى المنكر فلا ينكره ، فقليل له في ذلك فقال : كان قد انفتح في الإسلام ثلثة فأردنا أن نسدها فانفتح فيه ذروة وانهدمت من أركانه أركان ، ثم صار

(١) الواضع ص ٢٦٣

(٢) يحسن أن نعيد أن ما وقع في القرن السادس أو السابع هو بداية النقص في الدين ، أما رفع العدل والخير دفعة واحدة من قلوب الحكام والناس فقد وقع في القرن العاشر . هذا هو تحرير كلام الشعرا في بعض النظر عما فيه من خطأ واضطراب .

(٣) الواضع ص ٣٤٤

يبول الدم من الحزن إلى أن مات<sup>(١)</sup> .

ولسنا في حاجة إلى النص على أن من عادة الناس أن يشكوا زمانهم وأن يترحموا على الأزمان السوالف ، وإنما المهم أن ننص على أن الشعرا في فصل بين عهود الخير وعهود الشر بتاريخ محدود ، ويستند تارة إلى لوح نزل من السماء ، ويعتمد تارة أخرى على كلام الخواص .

ولهذه النظرة أثر في أحكامه الأخلاقية : فهو من المتشائمين ، بل من اليائسين . والمصلح اليائس لا يرجي له نجاح .

١١ — على أن للشعرا في كلمات أخرى تمثل رأيه في الطبيعة الإنسانية وتصرفه عن الاعتماد على مثل ماتوم من رفع الخير من قلوب الناس في تاريخ محدود ، فقد اتفق له مرة أن يحكم بأن الخير هو الأصل وأن الشر عارض ، ولم يحدد ذلك بزمان واتفق له مرة أخرى أن يحكم بأن « طينة الآدمية واحدة » وأن الجائر وقوعه من أفسق الفاسقين جائز وقوعه من أصلح الصالحين<sup>(٢)</sup> ولم يخرج عن هذه « الطينة » في رأيه سوى الأنبياء لمصمتهم ، وبعض الكمّل لحفظهم<sup>(٣)</sup> وتنتهى هاتان الفسكرتان إلى غاية واحدة هي أن الإنسان صالح للتخير وهو أصل ، وصالح للشر وهو عارض ، وأنه حين يصلح لا يصلح أبداً ، وحين يسوء لا يسوء أبداً . بل يجوز للفاسق أن يعمل ما يعمل الصالح ، ويجوز أن يقع الصالح فيما يقع فيه الفاسق .

ومعنى ذلك أن التسامى إلى الهداية ليس له زمان ، بل هو مطلوب في كل زمان .

---

(١) الواقع ص ٣٤٤

(٢) الواقع ص ٢٤٨

١٢ - ويتصل بهذا رأيه في الذات الإنسانية ، فالذات صنعة الله تعالى وصنمته كلها حسنة ، والقبیح إنما هو عارض عرض من حيث الصفات لا الذوات ، وجميع ما أمرنا الله بمعاداته إنما هو من حيث الصفات ، فلو أسلم اليهودى وحسن إسلامه أمرنا بحبته فما زالت منه إلا صفة الكفر وذاته لم تتغير<sup>(١)</sup> .

فالذات الإنسانية حسنة في جميع الأحوال من حيث هي ذات ، ولا تقبح إلا بقبیح الصفات .

ولعله أخذ هذا المعنى من ابن عربى حين حكم بأن الطهارة من الحدث غير معقولة المعنى لأن الحدث وصف نفسى للعبد فكيف يمكن أن يتطهر الشيء من حقيقته ، فإنه لو تطهر من حقيقته انتفت عينه ، وإذا انتفت عينه فن يكون مكلفاً بالعبادة<sup>(٢)</sup> ؟ .

ولهذا الملحظ قيمة في توجيه النظر الأخلاقى : فكل إنسان له قيمة ذاتية وإن أضمن في الكفر والفسوق ، وعلى رجال الأخلاق أن ينظروا إلى الملحدین والآئمين نظرة إشفاق لأنهم في حقيقة الوجود جواهر علاها الصدا فبذت كالمدن الحسیس ، ولو أمكن جلاء تلك الجواهر لنصبت لها سوق في عالم النفائس ، ونسابق إليها عشاق اللؤلؤ المكنون .

١٣ - ويزید في قيمة هذه النظرة الخلقية أنها موصولة عنده بأدب آخر هو التفكير في الإسناد والإيجاد ، فن الأدب الذى اختاره الشعرا أن نضيف كل محمود في الوجود إلى الله إسناداً وإيجاداً ، وأن نضيف كل

مذموم في الوجود إلى النفس والشيطان إسناداً لا إيجاباً . وعلى ذلك ينزل قوله تعالى : ( ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ) وإن كان الكل من عند الله ، وينزل قول الرسول ( الخير كله بيدك والشر ليس إليك ) أى لا يضاف إليك أدباً كما لا يقال ( سبحانه خالق الخنازير ) وإن كان هو الخالق بإجماع الناس في جميع الديانات<sup>(١)</sup> .

وهذه المسألة من المشكلات ، وقد عرض لها في لوائح الأنوار بكلام متموج لا يحل ولا يربط<sup>(٢)</sup> إذ قال :

« أخذ علينا المهدي العام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ندفع غضبنا ونكظم غيظنا ، ونأمر بذلك جميع إخواننا ، وإذا غضب أحدنا وهو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع ، فإن لم يزل فليتوضأ . ويحتاج من يريد العمل بهذا المهدي إلى السلوك على يد شيخ صادق يدخله إلى حضرة الرضا بكل واقع في الوجود وبطريقه الشرعي فلا يبقى عنده شيء ينضبه لأنه حكيم عليم ، وما ترك الناس ينضبون إلى حجابهم عن شهود أن الله هو الفاعل لكل ما برز في الوجود وشهودهم الفعل من جنسهم ، فلذلك غضبوا على غضبهم ، ولو أنهم سلكوا الطريق لوجدوا الفعل لله تعالى يبادى الرأي فلم يجدوا من يرسلون عليه غضبهم ووجدوا كل شيء وقع في الوجود هو عين الحكمة فذهب اعتراضهم . . . . . فلم أن الكامل لا ينضب لنفسه قط ، وإنما ينضب إذا انتهكت حرمت الله تعالى . وكأن الحق يقول للكامل : إذا رأيت عملاً برز على يد أحد من عبيدي مخالفاً لشرعة نبي فاغضب ، ولو

(١) انظر البحر المورود ص ٢٧٢

(٢) آثرنا هذه العبارة البلدية لأن لها دلالة دقيقة في هذا الوطن .

شهدت أنى أنا الفاعل ، لكنى لا « أمرك أن تغضب على فعلى ، وإنما أمرك أن تغضب على وجه نسبة الفعل إلى عبدى<sup>(١)</sup> » .

وهذا كلام متهافت ، لأنه لا يعرف أحد كيف يفعل الله الفعل ثم يغضب ويأمرنا أن نغضب . وكيف يغضب أو نغضب وكل شيء وقع في الوجود هو عين الحكمة والصواب ؟

إن الشمرانى هنا متهافت ، ولكن المهم أن نسجل أنه ينهى عن الغضب ويدعو إلى كظم الغيظ ، وروض المريد على الرضا بكل واقع في الوجود .

ومسألة « النسبة » مسألة هينة : لأننا لا نذنب حين نذنب إلا كما تفعل السيارة حين تدوس طفلا في الطريق . فالسيارة هي التي قتلت على طريق النسبة ، والقاتل الحق هو السائق ، وهو وحده المسئول « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وما قتل السيف إذ قتل وإنما قتل السيف .

١٤ - وهذا الاتجاه في فهم الإيجاد والإسناد جمل الشمرانى يترفق في معاملة الفاسقين : فهو ينهى عن صحبتهم ولكنه يراها متعينة حين تقصد بها تهديد بساط التوبة لهم ، كما عليه الدعاة إلى الله « فإنهم لا يبعدون عن مستقيم ولا أعوج : فإن المستقيم لا يجوز هجره ، والأعوج محتاج إلى من يقوّم عوجه وقد أغفل هذا الأمر خلق كثير من طلبه العلم فبعدوا عن خلطة الموجين من الظلمة فخرموا بركة هدايتهم ، ولو أنهم قربوا منهم مع العفة عما بأيديهم من الدنيا<sup>(٢)</sup> وسارقوم بالوعظ لربما أثرت فيهم مواعظهم<sup>(٣)</sup> » .

(١) لوائح الأنوار ص ٢٠٦ وانظر أيضا ما كتبه من الإسناد والإيجاد في لطائف المنن ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٦

(٢) تحفظ جميل .

(٣) اللوائح ص ٣٤٧

والشمراني ينهى عن اغتياب الفساق ، ويرى أنه لا يجوز لك أن تستغيب فاسقا أو تؤذيه أو تشق عليه ، ويستأنس بحديث ( لا غيبة في فاسق ) ويقول إن بمضهم قال في تأويله « احفظوا لسانكم في حقه ولا تفتابوه ، فجعل لفظ ( لا ) ناهية »<sup>(١)</sup> وهو يعيل إلى قبول هذا التأويل .

وصرح في البحر المورود أن العهد أخذ علينا أن نرفق بالمسيئين وأن نكون أرحم بهم من أنفسهم ، بحكم الإرث لرسول الله الذي قال : ( ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء ) وقد قالوا : من نظر إلى الخلق بعين الحقيقة رحيمهم ، ومن نظر إليهم بعين الشريعة مقتهم . ثم قال في تفسير هذه الكلمة « وعين الحقيقة أن تشهد أن الحق تعالى ما دام يخلق فيهم المعاصي لا يمكنهم الرجوع عن الوقوع فيها ، قال تعالى : ( ثم تاب عليهم ليتوبوا ) ، فإذا انتهى خلق المعصية فيهم تابوا لا محالة »<sup>(٢)</sup>

وهذه المسألة لا تبعد كثيراً عن رأيه الذي عرضناه آنفاً في الإسناد والإيجاد

١٥ — والشمراني لا يبيح أن ندعو على من ظلمنا فلا نقول قط « اللهم من كادنا فكده ، ومن بنى علينا نخذه » ونحو ذلك ، والرأى عنده أن نرجع إلى نفوسنا فننظر السبب الذي تحكم فينا ذلك الظالم بسببه فنتوب منه ونستغفر ونرجع إلى الله ، فإن لم تيسر لنا توبة صبرنا واحتسبنا ، وقد دعا رسول الله على قريش بالهلاك فأنزله الله تعالى عليه ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) فاستحيا من الله ، وترك الدعاء عليهم وصار يدعو لهم بالهداية .

وهنا يبلغ الشمراني ذروة التصوف إذ يقول في تلطف وترفق :

(١) الواقي ص ٣٤٣

(٢) البحر المورود ص ٢٨٠

« واعلم يا أخى أن من شأن كل عارف أن يرى نفسه قد استحققت الخسف به لولا عفو الله ، وأن جميع ما يقع عليه من البلايا والحن دون ما كان يستحق ، ويرى جميع الظلمة فى هذه الدار كزبانية جهنم ، إلا أنهم خالفوا الزبانية فإنهم هناك تحت الأمر . ومعلوم عند كل عارف أن حكم الإرادة لا مردّ له ، لأنه لا يصح قط لأحد أن يخالف إرادة الله ، بخلاف أمره فيصح مخالفته لقوة سلطان الإرادة فافهم<sup>(١)</sup> ومن هذا الشهد قلّ تكدير المارفين لن ظلمهم وآذام ، فإن الظالم حكمه حكم السوط الذى يضرب به ، فالنيط حقيقة إنما يكون من الضارب الظالم لا من السوط . فمن اغتاظ من السوط فهو محبوب عن تمام العقل<sup>(٢)</sup> » .

ومعنى هذا أن ما يقع علينا من الظلم إنما هو تأديب من الله ، والظالمون هم أدوات التأديب ، ونحن حين نثور عليهم يكون مثلنا مثل من يثور على السوط الذى يضرب به ، والأولى أن يثور على حامل السوط ، ولكن حامل السوط فى هذه المرة هو الله الذى لا يظلم أحداً من المالمين .

١٦ — وعضى الشعراى فى الترفق فيذكر أن المهد أخذ علينا أن لا نطلق أبصارنا فى عيوب الناس ولا نسأل قط عن تحقيق ما سمعناه فى حقهم من التهم ، ونحفظ أسماعنا وأبصارنا عن مثل ذلك ، فمن شق جيب الناس شقوا جيوبه ، ومن كان عليه دين قديم قضاء لا عمالة<sup>(٣)</sup> وهو يحرص على توكيد

(١) هل فهمت ؟

(٢) البحر المورود ص ٢٧٩

(٣) لواقح الأنوار ص ٢٤٥



هذا الأدب الجليل ، ويتقل أن الحسن البصرى كان يقول : والله لقد أدركنا قوماً كانت عيوبهم مستورة فبحثوا عن عيوب الناس فأظهر الله عيوبهم ، ورأينا أقواماً ليس لهم عيوب فبحثوا عن عيوب الناس فأحدث الله لهم عيوباً .

ولا يقف الشعراني عند هذا الحد من أدب النفس ، بل يرى من حسن الخلق أن تنفر لمن آذاك من الناس<sup>(١)</sup> ويوصى بأن يكون الإنسان نفاعاً لمن يذمونه ويقعون في عرضه ممن لا يعرفون أدب الرجال<sup>(٢)</sup> ويرجو أن نموّد أنفسنا طلاقة الوجه لكل مسلم من عدو وصديق<sup>(٣)</sup> .

١٧ - ولا يكفي عنده أن تترفق بالمسلمين وحدهم فإن الترفق واجب في معاملة جميع الناس ، ويقول في ذلك :

« وكثيراً ما كتبت اليهود والنصارى أصحاب الكوس في تخفيف المظالم عن المسلمين<sup>(٤)</sup> وأقول في كتابي لهم : أسأل الله للمعلم فلان أن يرضى عنه ويدخله الجنة مع الصديقين والشهداء والصالحين ، وأضمر له سؤال التوبة من الكفر ليصح دخوله الجنة ، وربما أنكر ذلك من لا علم له بطرق السياسة فإني أعلم أني لو قلت له : أسأل الله للمعلم فلان أن يتوفاه على الإسلام لنفر خاطره مني ولم يقبل شفاعتي ، كما ينفر المسلم من قول أحد له : أسأل الله أن يميت البعيد على غير الإسلام . قال تعالى ( وكذلك زيننا لكل أمة عملهم ) فاعرف يا أخي طرق السياسة ، وعود نفسك طيب

---

(١) لوائح الأنوار ص ٢٠٠

(٢) ص ٢٠٢

(٣) هذه الفقرة تفهيد بأن موظفي الكوس كانوا في ذلك العهد من النصارى واليهود .

الكلام ، فإنه أحسن سواء كان المخاطب صالحاً أو طالحاً والله عليم حكيم (١) .

وما نحب أن تفوت هذه المناسبة بدون أن نقيد أن الشعراني يذكر في مواطن مختلفة أن كثيراً من اليهود أسلموا على يديه بفضل الرفق و (الكلام الحلو) على حد تعبيره . واليهود في كلامه هم مثال الكفر الموبق وهو يضرب بهم المثل حين يتكلم عن أهل الزيغ ، وهذا يدل على أن يهود مصر بمهده لم تكن لهم منزلة اجتماعية (٢) .

١٨ - ولم يفت الشعراني أن يضع للمريد دستوراً يسير عليه في معاملة الفرق الإسلامية ، وعنده أنه لا ينبغي التجرد للرد على أمثال المعتزة والجبرية إلا إن عارض كلامهم نصاً قاطعاً أو إجماعاً عاماً « لأن دين الإسلام يشملهم ويمهم » لا ينساق شعاع نوره على قلوب جميع المسلمين . والخطأ من كل وجه لا يكون إلا للكفار ، فإذا سمعنا الجبري مثلاً يقول ( لا فعل إلا لله ) لا يجوز لنا الانكار عليه بمجرد هذا القول وإنما ننكر عليه قوله بعدم إسناد الأفعال إلى العباد فقط لكون الحق تعالى أضاف أفعاله إليهم فننفي إسنادها فقد أخطأ لقصور نظره . وإذا سمعنا المعتزلي يقول ( الفعل للعبد ) لا ننكر ذلك بل بعدم إضافتها إلى الله جملة واحدة ، فكل من الجبري والمعتزلي مخطئ من وجه ، والكامل من نظر بعين الحقيقة وبعين الشريعة فرأى الفعل

---

(١) الواقع ص ٢٠٢ .

(٢) جاء في ص ٧٦ من لواقع الأنوار أن أحد الصالحين طلب منه الدعاء فقال : لا تعد من فضلك تقول لي ذلك تؤذي نفسي فإني واقع لما قلت لي أدع لي رأيت نفسي كيهودي قال له شيخ الإسلام أدع لي . فجعل اليهودي مثلاً في الكفر مع أنه من أهل التوحيد ، ولم يضرب المثل بالنصراني وهو من أهل التثليث لأن النصراني كانت لهم منزلة اجتماعية وكانت لهم مصالح ظاهرة في هذه البلاد . والمال يرفع أصحابه وإن لم يكونوا مؤمنين .

لله إيجاداً وللعبد إسناداً . . . وقس على الجبرية والمعتزلة غيرها من الفرق الإسلامية<sup>(١)</sup> .

وهذه اللفتة تدل على اهتمام الشعرائى بتصفية البيئة الإسلامية وحمايتها من الجدل المؤذى الذى يفسد ما بين الناس من صلات الإخاء .

١٩ - والشعرائى ينصح بمداراة الحكام ويقول « أخذ علينا العهد بأن نأمر إخواننا أن يدوروا مع الزمان وأهله كيف داروا ، ولا يزدرون قط من رفعه الله عليهم ولو فى أمور الدنيا وولايتها ، كل ذلك أدباً مع الله عز وجل الذى رفعهم : فإنه ما يرفع أحداً إلا لحكمة . ثم أى فائدة لازدراؤهم من ارتفع عليهم ، مع أن أحداً لا يسمع لهم ؟ وهذا العهد قل من يعمل به من الناس فيقولون عن المحتسب أو الوزير أو غيرهما : من أين لهؤلاء السفلى الضخامة علينا ونحن نعرف آباءهم ، وفلان كان أبوه زبالاً ، وفلان كان أبوه نوتياً ، وفلان كان أبوه فلاحاً . ونحو ذلك من الهذيان ، ومن أقام هذا الميزان اليوم على الناس حرم بركة أهل زمانه<sup>(٢)</sup> » .

وظاهر من هذا الكلام أن المصريين الذين عرفهم الشعرائى فى القرن العاشر كانوا كالمصريين الذين نعرفهم اليوم فى القرن الرابع عشر : فالنوتية عمل حقير ، والفلاحة عمل حقير ، والمرء لا يصح له أن يكون وزيراً إلا إن كان من بيت له ماض فى ولاية أمور الناس .

والهم هو أن نسجل هذه النظرة الخلقية : فالذى يمدى الحكام ويفكر فى لزهم وغمزهم هو رجل حرم بركة أهل زمانه . وهذا رأى حق وصدق

فالحكام يملكون ما لا تملك ، ويبدون تصريف الأمور . والظن في آرائهم وأجسادهم هذر سخي لا يحسنه غير السخفاء .

وهذا الأدب له غور أعمق من ذلك : لأن انتقاص الحكام يززع الوحدة القومية ، ويقسم الأمة إلى شطرين : رعية حاكمة ، وحكام مبعوضين . وسلامة الأمة لا تكون إلا بالألفة بين الحاكمين والمحكومين .

والشعراني يكرر هذا المعنى كلما لاحت فرصة . ومن رأيه أنه ينبغي لنا إذا اجتمعنا بسلطان أو أمير أو كبير في قومه أن نسأله أن يدعو لنا . ولو كان غير صالح ، فإن الله تعالى يستحي أن يرد دعاء هؤلاء الأكابر بين قومهم ورعيته ويخجلهم . ويضرب التل بما وقع لفرعون حين طلب منه قومه أن يطاع لهم نيل مصر لما توقف ، فإنه قال : يارب لا تخجلني بين عبادك فأجابه . ثم يقول الشعراني :

« وهذا سر قلّ من يتنبه له من الناس . . . ولما طلعت للبasha داود نائب مصر في هذا الزمان في قضية أوجبت ذلك في سنة خمس وأربعين وتسعمائة سأله الدعاء بأمور كانت متوقفة على شهوراً فنزلت من القلعة فوجدتها كلها قد قضيت ، فاعلم ذلك واعمل عليه<sup>(١)</sup> » .

٢٠ — والظاهر أن الشعراني كان رجلاً أزرق الناب ، فإنه قدر في كظم الغيظ على ما لم يقدر عليه أحد من الصوفية ، هو رجل سياسي حنكته الأيام فاصطنع المجاملة والمداراة . وذلك أدب لا يعاب ، ولكن لا يمكن القول بأن مقامه يساوي مقام المخاطرين من أرباب الشجاعة الأدبية الذين أسموا

(١) البحر المورود (س ٢٩٣) .

كبار الخلفاء ما لا يحبون .

إن أدب الشعرائى فى هذه الشؤون أدب عيسوى ، فهو لا يبعد كثيراً عن أدب المسيح إذ قال : دعوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله .

فالمرید الذى يؤدبه الشعرائى هو رجل يقبل كل شىء ، ليس له أن يثور على الحكماء وإن كانوا ظلمة ، لأن الله لا يرفع أحداً إلا لحكمة ، وقد يكون الحاكم الظالم سوطاً سلطه الله على المذنبين !

المرید الذى يؤدبه الشعرائى رجل ترائى ، هو كأكثر من نعرف من أهل هذا العصر ، فى الناس من يؤيدون كل حكومة ، ويسیرون فى كل ركاب ، ويكادون يقولون حين یسمعون كلام أى وزير : صدق الله العظيم !

وهذا أدب جميل إذا قيس بما فيه من سلامة العواقب ، وبما يجلب من الحظوظ الدنيوية . ولكنه أدب منحط إذا تذكرنا أن من واجب أهل الرأى أن يقفوا وقفة الآساد فى وجوه الظالمين .

وعند الشعرائى يبدو مقبولاً ، لأن الواعظین لا یسمع لهم حين يقاومون الحكماء ، وفاته أن الرأى العام يتكون من تلك الكلمات الصغيرة التى ينقلها المفكرون من مكان إلى مكان ، وأعنف الحكماء وأصلبهم لا يقدر على الوقوف فى وجوه الناس حين ينفضون ، وهل تقدر وأنت سيد على تدمر الخدم فى بيتك ! إن الذين يصانعون الحكماء الظالمين باسم السياسة وتدبر العواقب هم قوم جبناء يسترون جبنهم بتصنع الحكمة وبعد النظر ومرونة العقل ، وهذه الشائىل المصقولة لا تثبت إلا فى قلوب الضعفاء .

وقد صرح الشراني عن جينته<sup>(١)</sup> حين قال :

« أخذ علينا المهد أن لا نتصدر لإزالة منكرات الولاية إلا إن كان معنا تصريف فيهم ، وإلا آذونا ونفونا من بلادنا وأحوجونا إلى الاستخفاء زماناً طويلاً<sup>(٢)</sup> » .

ومعنى هذا أن إزالة منكرات الولاية لا تكون إلا عند ضمان السلامة . والسلامة مطلب وضيع في نظر كبار الرجال .

٢١ - تنتقل من هذا إلى رأيه في تربية المريد من الوجهة العقلية : وهو ينهاه عن قراءة كتب التصوف والتوحيد المطلق . فلا يقرأ كتب ابن عربي أو غيره من غلاة الصوفية » وذلك لعدم الفائدة وشدة الإنكار على من تفوه بما ذكره فيها مما يخالف عقول غالب الناس ؛ وما كل ما يعلم يقال . وربما فهموا منها أموراً تخالف صريح السنة فيموتون على اعتقادها فيخسرون مع الخاسرين . وما رأينا قط مريداً بلغ مبلغ الرجال بمطالعة كتاب<sup>(٣)</sup> » .

ولا ينافي هذا ما جاء في مقدمة البواقيت والجواهر من الدعوة إلى قراءة كتب ابن عربي فإنه هناك احتسب حين أقنع المريد بأن ما جاء في كتب ابن عربي مخالفاً للشرع إنما هو من وضع الدسائسين .

(١) كلمة « جين » لا تنطبق تماماً على حال الشراني ، فقد تبين لنا أنه كان يصانع المحكام سياسة ، لأنه كان ارتبط مع حكام عصره بكثير من الصلات ، وقد زاد ذلك في جاهه فكان أكثر الناس لا يصلون إلى الوظيفة إلا عن طريقه ، وكان المحكام يزورونه في زاويته فيلقاهم بالترحيب ويخلو بهم خلوات خاصة يدبر فيها معهم ما يشاء ، وهذا هو السر في أنه كان ينهى عن مقاومة المحكام ويسأل الله مع فقراته أن يرفع عنهم « الحملات » .

(٢) البحر المورود ص ٢٧١

(٣) البحر المورود ص ٢٧٤ وانظر أيضاً لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢

ونخلص من هذا إلى أن التصوف عنده يجب أن يقيد بالشرع وأن المرید يجب عليه أن يحترس من مزالق العقول .

٢٢ - ونهيه عن قراءة كتب التصوف لم يمنعه من أن يملأ كتبه بأقوال الصوفية في الرمزيات ، فقد نقل كلمة أبي الحسن الشاذلي في تفسير آية ( وما تلك بيمينك يا موسى ) على الطريقة الصوفية :

« يقال للولى : وما تلك بيمينك أيها الولى ؟ فيقول : هي دنياى أنفق منها على نفسى وأهلى وإخوانى ، فيقال له : ألقها ، فيلقها فيجدها حية تسمى في هلاك قابضها فيأخذ حذره منها ، فإذا حذر منها يقال له : خذها ولا تحف . فكما ألقاها أولاً بإذن حال بدايته فكذلك أخذها بإذن حال نهايته <sup>(١)</sup> » .

والواقع أن الشعرائى سلك مسالك الصوفية في أكثر مؤلفاته ، فتجوز في الألفاظ والمعانى ، ودخل إلى قلوب القراء بأساليب لا تخلو من فتون ، ولكن الخطر عند الشعرائى يخالف الخطر عند ابن عربى . فالذى يؤمن بكل ما أشار به الشعرائى يخرج وهو مخبول ، والذى يؤمن بكل ما أشار به ابن عربى يخرج وهو زنديق ، والفرق بعيد بين الزندقة وبين الخبال .

فسداجة الشعرائى هي أصل ما يقع فيه من انحراف ، ومكر ابن عربى هو أصل ما يقع فيه من ضلال .

٢٣ - بقيت مسألة يجب النص عليها : وهي أن الشعرائى لا يكاد يعرف غير البيئة المصرية ، فهو يضع الآداب لمواطنيه من أهل مصر ولا يفكر فيمن

---

(١) الاوافق ص ٣٠٥ .

عدام من المسلمين ، وهو حين يتحدث عن نقص الدين أو رفع الرأفة من قلوب الناس لا يعنى أحداً غير المصريين ، وقد مضت النصوص التي تعين هذا المعنى ، ويؤيدها قوله في البحر المورود :

« أخذ علينا العهد إذا كان لنا جار ساكن على الخليج أيام قطعه ، أو نزع الخمرات منه ، وعلما عجزه عن نزع ما تحت بيته إما لفقر أو بخل أن نؤم جماعة الوالى أن تلك الخمرات نشأت من بيتنا دون بيته ، ثم نترحها نيابة عن جارنا ، ولا ندع جماعة الوالى يرعبوه مع قدرتنا على ذلك ، ولا سيما إن كان عنده ضعيف أو نفساء أو فرح أو غرماء يطالبونه وهو عاجز عن الوفاء ومستخفٍ بالبيت . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه<sup>(١)</sup> » .

وهذا النص يدل دلالة قاطعة على أن الضمير « نا » في قوله ( أخذ علينا العهد ) يراد به الصوفية المصريون : فأداب الشعرائى هى آداب عملية أوحاها ظرف المكان .

والأصل فى كل دعوة أدبية أو اجتماعية أو دينية أن تصطبغ بالموطن الذى نشأت فيه ، وكذلك يجب أن تغلب الألوان المحلية فى كل أثر أدبى أو اجتماعى أو دينى ، ولكننا لا نجد هذا الشرط يتحقق عند أى مؤلف على نحو ما تحقق عند الشعرائى : فالبيئة المصرية تطل من كل سطر بل من كل حرف . وهو فى اتجاهاته الذهنية ، وأخيلته الأدبية ، مصرى صميم عرف أخلاق الفلاحين ، وأخلاق أهل القاهرة التى يسميها « مصر المحروسة » . ومعرفته

---

(١) الوقائع ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .



لأهل مصر في مسالكهم الخلقية والمعيشية يملأ كتيبه منزلة عظيمة هي تاريخ المجتمع المصرى في ذلك الحين .

وقد شرحنا ذلك بالتفصيل في القسم الأول من هذا الكتاب فليرجع إليه القارئ هناك<sup>(١)</sup> .

٢٤ - وفي ختام هذا الفصل ينبغي أن ننص على أن مصادر الشعرانى في كتيبه الأخلاقية ترجع إلى أصلين : الأول كتب الفقه والتصوف والحديث ، والثانى ماتلقاء شفويًا عن أشياخه في الطريق ، وهنا نذكر بالذات عليًا الخواص وكان من مشاهير الأولياء وله ضريح يزار بالحسينية ، فقد أكثر الشعرانى من نقل أقواله والاستشهاد بآرائه في كثير من الشؤون .

وإذا صدق الشعرانى فيما نقل عنه - وهو عندنا صادق - فإن الخواص يعدُّ بما نقل عنه من أئمة التصوف ورجال الأخلاق ومن أعيان مصر في القرن العاشر ، وإذا كان الخواص لم يترك شيئًا يستحق الذكر من المؤلفات فإن الشعرانى صنع معه ماصنع أفلاطون مع سقراط .

ما هذا ؟ أيصح في الأذهان أن يقرن اسم الشعرانى إلى اسم أفلاطون واسم الخواص إلى اسم سقراط ؟

وهل يقدم هذا الكلام إلى الجامعة المصرية ؟

---

(١) يجب أن نذكر بهذه المناسبة أن الشعرانى يأخذ مدده دائمًا من العلماء المصريين فيجعلهم دائمًا في صدر الكلام ولا يذكر مصادره من القرآن والحديث وكلام المتقدمين إلا بعد أن يستوفى ما يهيمه من النقول عن العلماء المصريين ، وهو في هذا قليل الأمثال ، فالباحثون يبدأون بكلام المتقدمين ، وهو من بينهم يبدأ بكلام من عاصروه ثم ينتقل إلى الاستئناس بكلام القدماء .

إي والله ! هذا من موجبات العجب ، ولكنه حق : فإن شطحات  
الشعراني وحدها تضمه في الصف الأول بين رجال الخيال ، وإحاطاته  
بالعلوم الإسلامية والعربية وصدق رأيه في معرفة أهل زمانه تضيقه إلى صفوف  
العلماء والحكماء . ولا أنكر أن له أحيانا جرأة تثير النفوس ولكن مجموعة  
ما ألف هذا الرجل تشهد بأنه كان من العظماء ، وليس من الحتم أن يكون جوهر  
علمه من جوهر العلم الذي أذاعه أفلاطون ، فإن الفرق بين العقليين عظيم ،  
ولكن مجهود الشعراني في نشر الثقافة الشرعية والصوفية لا يقل خطراً  
عن مجهود أفلاطون في نشر ثقافة اليونان .

إننا ننظر إلى الشعراني بعيون جلتها حقائق العلم الحديث . ومن أجل ذلك  
ننكره ونقسو عليه ، ولو أننا تمثلنا المصير الذي نشأ فيه ، ونظرنا فيما ترك  
من المصنفات وما سطر من أخبار الحقائق والأضاليل ، وتذكرنا ما رعى  
من الفقراء وما هدى من الطلاب ، وما تسامى إليه حين تطلع إلى أسرار  
الوجود ، لو نظرنا هذه النظرة لأحسبنا بتيارات من العطف تجرف ما أخذنا  
عليه من الوسواس والهفوات .

وأما الخواص فاذا نقول فيه ؟

لنبرّ من شاء بشارع الحسينية ، فإن فعل فسيري ضريحاً لا يعرفه غير العوام ،  
وهم لا يذكرون إلا أنه كان رجلاً صالحاً يمشي من جدل الخوص ، فهل في الناس  
اليوم من يعرف أن هذا الرجل المجهول هو الذي قال :

« من أراد أن يعرف مرتبته في العلم الذي يزعم أنه من أهله فليردّ كل  
قول إلى قائله ، وكل علم إلى عالمه ، وكل شيء استفاده من أمر دنياه وآخرته

إلى من استفاده منه ، وينظر نفسه بعد ذلك<sup>(١)</sup> » .

أزرون عمق الفكر فى هذا الكلام البسيط ؟

إن الخواص الذى عرفناه فى كتب الشعراى لا يقل عظمة عن سقراط الذى عرفناه فى كتب أفلاطون . والفرق بين الرجلين أن سقراط أولع بمخاطبة المقول ، والخواص أغرم بمخاطبة القلوب . والعقل أبقي من القلب وله فى كل زمان أنصار وأشباع .

إن أفلاطون عاش لأنه وقف عند حدود الأرض . ومات الشعراى لأنه تطلع إلى السماء . عاش أفلاطون لأنه تحدث عن شؤون يفهمها الأصحاء ومات الشعراى لأنه خاض فى شؤون لا يدركها غير من انقطع عن دنياه . والانعطاع عن الدنيا من أعراض الموت . ولكن من ينكر أن رأى المحتضر قد يكون أصدق رأى ، وحديثه أبلغ حديث ؟

وهل من القليل أن تعيش شطحات الشعراى أربعة قرون ؟

ذلك ضرب من الحياة لو تعلمون .

## المهلكات والمنجيات

تحديد الشخصية الخلقية — مزايا النظرة الصوفية — آفات الشبع وفوائد الجوع — حل نطق حين نبتلى بالعصوات — رذائل المرائين — شهوة الفرج — آداب الزواج — مدافعة الشهوات — آفات اللسان — آفات الأقلام — مزايا الصمت — حقارة الفضول آفة المراء والجدال — قبح الحسومة — ميانة اللسان عن الفحش واللغو — خطر المزاج — التهي عن السخرية والاستهزاء — شناعة الكذب — مآثم الاغتياب — قبح التهمة والسماية — كلمة ختامية في الفرق بين الصوفية وبين غيرهم من رجال الأخلاق .

١ — طال الطواف بآراء الصوفية في الأخلاق ، ورأينا ألواناً مختلفات من مذاهبهم في العيش ومناحيهم في السلوك ، ولكن الشخصية الخلقية للصوفي الحق لا تزال خافية بعض الخفاء ، وأخشى أن نكون أطلنا في بيان النواحي الفلسفية من التصوف ، وأخشى أيضاً أن نكون أسرفنا في نقد المذاهب الصوفية إسرافاً يضلل القارىء ويصرفه عن تنوُّر ما في الشخصية الصوفية من سماحة وصفاء .

ولكن ما اصطنعناه من العنف في نقد المذاهب الصوفية ، وما آثرنا من التعمق في عرض التصوف من الناحية الفلسفية ، كان أمراً يوجب البحث كل الوجوب ، لأن هذا الكتاب لم يؤلف لشرح التصوف ، ولالتأريخ التصوف ، وإنما ألف لفساية صريحة : هي بيان تأثير التصوف في الأدب والأخلاق ، وقد وصلنا من ذلك إلى بعض ما نريد .

ثم نظرنا فرأينا منهج البحث يسمح بتصوير الشخصية الخلقية للصوفي الحق ، وزيد الناحية العملية في حياة المريد ، الناحية التي تصوّر ما يخاف وما يرجو في حياة الأخلاق .

٢ - قد يقال : وما الفرق بين الصوفى وبين غيره من أرباب السلوك السليم إذا غصضنا النظر عن الناحية الفلسفية ؟

ونجيب بأن الناحية الفلسفية هى فى الأصل عماد الناحية العملية ، فالصوفى يتفلسف فى جميع أعماله ولا يتقدم أو يتأخر إلا بموازين .

والصوفى ميزة ليست لسواه من رجال الأخلاق ، فهو « يحسُّ » المواعظ و « يذوق » الأمثال ، والحكمة على لسان الصوفى متوقدة ملتهبة تأخذ وقودها من الضمائر والقلوب .

وهناك ميزة ثانية هى الإلحاح ، الإلحاح ، ولو شئت لكررتها ألف مرة ، فالصوفى يحب أن ينقل جميع ما أثر من أقوال الأنبياء والحكماء والصالحين فى تأكيد المعنى الذى يدعو إليه ، وربما كان الصوفية هم الذين تفردوا بالإطناب فى شرح أدواء النفوس ، وأمراض القلوب ، وبكوا على مصاير العاصين والغافلين أحر البكاء .

وهناك ميزة ثالثة هى شعور الصوفى بأثقال الأوزار والذنوب ، فهو رجل تواب أو اب لا يذنب حين يذنب إلا وهو فى غاية من الحجل والاستحياء .

وهناك ميزة رابعة هى الإيمان ، فالصوفى وإن تفلسف لا يعتقد أن الأخلاق وسيلة نغمية تُطلب للمعاش وحسن الصلات مع الناس ، وإنما يعتقد أن الأخلاق صلة بينه وبين الله ، والله صورة جميلة فى أنفس الخالصين من أهل التصوف ، وهم يحبونه كل الحب ، ويستحيونه كل الاستحياء ، وهم من أجل ذلك لا يبالغون فى الشرائع ولا القوانين ، وإنما يفكرون فى صلاحهم الحقيقية بذلك المحبوب المعبود .

وما أنكر أن الصوفية قد يصلون إلى الوسوسة الخلقية في أكثر الأحيان ،  
ولكن عذرم في ذلك مقبول . فهم يتسامون إلى الظفر بالرضوان عند محبوب  
لا تناله الأوهام ولا الطنون ، ورضوانه غرض عزيز النال .

٣ - ولنفصل شمائل الصوفى من الناحية الخلقية فنقول :

يخاف الصوفى شهوة الطعام والشراب ، وهو على حق ، فكل الرذائل تصدر  
عن الطعام والشراب ، وما آمن إنسان غوائل ما يأكل وما يشرب إلا انقلب إلى  
خلوق سفيه ممقوت .

وهل ذل من ذل ، وضاع من ضاع ، إلا بسبب الحرص على الطعام  
أو الشراب ؟

والصوفى لا يجزع حين يجوع ، وإنما يلتفت إلى نفسه فيقول : أى شئ  
تخافين ؟ أتخافين أن تجوعى ؟ لا تخافى ذلك ، أنت أهون على الله من ذلك ، إنما  
يجوع محمد وأصحابه <sup>(١)</sup> .

أو يقول : إلهى أجمتنى وأعريتنى ، وفى ظلم الليالى بلا مصباح أجلستنى ،  
فبأى وسيلة بلغتنى ما بلغتنى <sup>(١)</sup> .

أو يقول : إلهى ، ابتليتنى بالمرض والجوع ، وكذلك تفعل بأوليائك ، فبأى  
عمل أودى شكر ما أنعمت به على <sup>(١)</sup> .

الصوفى يرى الشبع من الهلكات ويرى فى الجوع فوائد :

الأولى - صفاء القلب ، وإيقاد القريحة ، ونفاذ البصيرة ، فإن الشبع يورث

---

(١) الإحباط ج ٣ ص ٨٨

البلادة ، ويعمى القلب ، ويكثر البخار على الدماغ .

الثانية — رقة القلب وصفاءه ليتها لإدراك لذة المناجاة .

الثالثة — الانكسار والذل وزوال البطر والفرح والأثر الذى هو الطغیان والمفلة عن الله .

الرابعة — أن لا ينسى بلاء الله وعذابه ولا ينسى أهل البلاء .

الخامسة — كسر شهوة المعاصى والاستيلاء على النفس الأمانة بالسوء .

السادسة — دفع النوم وسهولة السهر .

السابعة — تيسير المواظبة على العبادة ، فإن الاهتمام بالأكل قد يضع على العابد أطيب الأوقات .

الثامنة — صحة البدن ودفع الأمراض .

التاسعة — خفة المؤونة ، فإن من تمود قلة الأكل كفاه اليسير من المال .

العاشرة — التمكن من الإيثار والصدقة بما فضل من الأطعمة على التامى والمساكين<sup>(١)</sup> .

وللصوفية كلام كثير فى النهى عن الشبع والتشويق إلى الجوع ، وقد نقدنا هذه النظرة حين تكلمنا على آداب الطعام ، ولكن لا مفر من الاعتراف بأن لإيثار الجوع مزية أساسية هى التخلص من شهوة البطن والسلامة من أمراض الأبدان والأخلاق ، فأخطر الأمراض الجسمانية مصدرها الأكل ، وأخطر الأمراض الأخلاقية مصدرها الأكل ، ولا تسهل

---

(١) انظر تعليل هذه الفوائد فى الإحياء ج ٣ ص ٩٠ — ٩٤

المعاصي إلا على من يسرفون في الطعام والشراب .

٤ - ولم يفت الصوفية أن ينصوا على أن الجوع قد يتطرق إليه الرياء ، كأن يأكل الرجل في الخلوة مالا يأكل مع الجماعة ، وهذا هو الشرك الخفي<sup>(١)</sup> .

ومن رأيهم أن حق العبد إذا ابتلى بشهوات وأحبها أن يظهرها ، وهذا عندهم صدق الحال ، فإن إخفاء النقص وإظهار ضده من السكالم هو نقصان متضاعفان ، والكذب مع الإخفاء كذبان ، فيكون مستحقاً لمقتين ، ولا يرضى عنه إلا بتوبتين صادقتين ، ولذلك شدد الله أمر المنافقين فقال : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، لأن الكافر كفر وأظهر ، والمنافق كفر وستر ، فكان ستره لكفره كفراً آخر ، لأنه استخف بنظر الله إلى قلبه وعظم نظر المخلوقين فحاشا الكفر عن ظاهره ، والعارفون يُبتلون بالشهوات بل بالمعاصي ولا يُبتلون بالرياء والفش والإخفاء » .

ذلك كلام الفزالي في الإحياء<sup>(١)</sup> وهو كلام نفيس وهو يصور صدق الشخصية الخلقية أجل تصوير ، فالصوفي الحق قد يقع في المعصية ، ولكنه لا يرأى ولا ينافق ، لأنه يختار بين حالين : الاستخفاف بنظر الناس ، والاستخفاف بنظر الله .

الصوفي يرى الناس أحقر من أن يتهيبهم ويتق لنفوسهم وفضولهم وسفاهتهم ، ويرى الحياء لا يكون إلا من الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .



الصوفي يؤذيه أن يكون كبعض الأراذل الذين يستبيحون جميع المنكرات في الخفاء ، ثم يلقون الناس بوجوه الصالحين الزاهدين المتبتلين وما عرفوا الصلاح ولا الزهد ولا التبتل ، وإنما هم لصوص سفلة يسرقون السمعة الحسنة من المجتمع المغفل الذي يعيش عيش القروء فلا يصدق غير ما ترى عيناه المفتوحتان بلا وعى ولا إحساس .

الصوفي يؤذيه أن يُعرف بالصدق حين يكون من الصادقين ، لأن في الشهرة بالصدق فتنة تجره إلى الرياء .

والصوفي لا يستهويه أن يرى المنافقين والمخادعين في نجاح ورفاهية ونعيم ، لأنه يعرف أن حظوظهم في دنياهم ليست إلا حراماً في حرام ، ولا فرق بين انتهاب السمعة وانتهاب المال ، وإن خفي ذلك على الغافلين .

ومن المنافقين من لا يكفيه أن يستر الله عورته الخفية فيجهره الشره في انتهاب السمعة الحسنة إلى الوقوع في أعراض الناس ليصح عند الجمهور المغفل أنه من أهل الفيرة على الأخلاق ، وبهذه الأساليب تسير بين الجماهير أباطيل وأضاليل تنصب لها موازين فيشقى بها ناس ويسعد ناس .

الصوفي يقف موقف المتفرج على الضلالات الاجتماعية ، ويرى الرذيلة المكشوفة أهون من الرذيلة المستورة ، لأن الرذيلة المكشوفة تعصم صاحبها من موبقات كثيرة أهونها الصلاح المزيف ، والأدب المكذوب .

أما الرذيلة المستورة فتخلق لصاحبها موبقات مهلكة ماحقة أيسرها الشعور بأن الكذب على الله وعلى الناس أمر تجيزه العقول ، عقول السفلة المهوكين أمام الله والمستورين أمام الناس .

وقد بدا لأهل أمريكا منذ أعوام أن يحرموا شرب الخمر فوقموا في خطر  
ماحق هو الرياء والنفاق ، واشتبهت المسالك في تمييز الفاضل من المفضول ،  
ولو أصرت أمريكا على هذه النزعة «الإعلانية» لفقدت ميزتها الأصلية وهى صراحة  
القلوب والأعمال .

والأمم التى تحرص على سلامة الظواهر هى الأمم المهددة بالاستعباد  
والزوال .

وشاهد ذلك يؤخذ من حياة الشعوب فى هذه الأيام ، فالأمم التى تكثر  
من الكلام على التحليل والتحرير هى الأمم التى تعانى آلام الاستعباد ،  
لأن انشغالها بالنفاق والرياء والخداع لم يترك لها من فراغ البال ما تستعدُّ به  
لمقاومة المكاره والخطوب . ولا كذلك الأمم التى جمعت حسابها مع الله  
لامع الناس .

وحسب المرء من السفالة والضعمة والحطة أن لا يكون له رقيب غير طوائف من  
المخلوقات تستبجح فى السر ما تنسكح فى العلانية .

وحسب الأخلاق من الضعف أن لا تماسك إلا بأسباب واهية  
من الرياء .

وقد حار الباحثون فى فهم السر الذى قضى بأن تخلد الكتب التى بلغها  
الأنبياء والمرسلون .

فليفهموا ، إن شاءوا ، أن مرجع ذلك السر إلى الصدق ، فالأنبياء  
والمرسلون لم يكن فيهم رجل كاذب ، وإنما كانوا جميعاً صادقين ، فقد سجلوا  
عيوبهم ومساوئهم تسجيلاً صريحاً لا مواربة فيه ولا تضليل ، وهل كانت

الكتب التى بطنها الأنبياء والمرسلون إلا تسجيلاً للمآسى الإنسانية المثلة فى أخطاء  
الأنبياء والمرسلين ؟

سيفنى كل شئ . وتبقى خطيئة داود .

سيفنى كل شئ . ويبقى العتاب الموجه إلى الرسول فى القرآن .

سيفنى كل شئ ، وتبقى صور البكاء على الآثام والذنوب ، بكاء الأنبياء  
والمرسلين .

وسيق كل شئ ، إلا الصلاح الزيف الذى ظفر به الأوباش من أدياء  
الاستقامة والمدالة والصلاحية لتربية العقول والقلوب .

وأشقى الأمم هى التى يكون مملوها ومربوها مخادعين ومنافقين .

أشقى الأمم هى التى تمشى بمقول الأطفال ، فلا ترى غير الظواهر  
والعناوين .

أشقى الأمم هى التى تحاسب على الرعيف السروق ولا تحاسب على المجد  
السروق .

أشقى الأمم هى التى ينصب فيها للظاهر ميزان ولا ينصب فيها للباطن  
ميزان .

وإنما فرض عليها هذا الشقاء لأنها حرمت حقاً وصدقاً من جواهر  
الأخلاق .

وهل تظفر أمة بجهال الخلق حين يسرها أن تحمل الوجوه وإن قبُحت  
القلوب ؟ .

إن المصدر الأصيل للخلق الجليل هو القلب ، فإن غفلت الأمم عن هذا الجوهر

فهى أم مضیعة مفتونة لا تصلح لغير الرق والاستعباد .  
لن تغلح أمة إلا حين تتخلق بأخلاق الله ، وهو عز شأنه لا ينظر إلى الصور  
ولا إلى الأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب .  
تباركت ياربى وتعاليت ، وبك يستمرّ ويستنصر كل من شامت رحمتك أن  
لا يكون له نصير غيرك .

وما أسعد من تفضلت عليه فكتبت أن لا يعرف نصيراً سواك

٥ — وكما يخاف الصوفية شهوة البطن يخافون شهوة الفرج ، وينكرون أن  
يتناول الرجل من الأدوية ما يقوئ شهوته على الاستكثار من الوقاع كما يتناول  
بعض الناس أدوية تقوئ المعدة لتعظم شهوة الطعام . ومثال ذلك عندهم مثال من  
ابتلى بسباع ضارية ، وحيات عادية ، فتنام عنه فى بعض الأوقات فيحتال  
لإثارتها وتهيجها<sup>(١)</sup> .

وهم فى أغلب أحوالهم يؤثرون العزوبة على الزواج ، ولكنهم يدعون إلى  
الزواج عند خوف الفتنة ، ويتحرزون من كل ما يثير الشهوات ، ويستقبحون  
أن تمر صورة الشهوة المحرمة على خيال المريد ، ولذلك تفاصيل مرت فى الكلام  
على الحب .

ومن علامة صدق المريد أن يتزوج فقيرة متدينة ولا يطلب الغنية ، فإن  
لزواج الغنية آفات ، منها الغلالة فى الصداق ، وتسويق الزفاف ، وفوت الخدمة ،  
وكثرة النفقة ، وإذا أراد طلاق الغنية لسبب مقبول فقد يمنعه الحرص على مالها ،  
والفقيرة بخلاف ذلك<sup>(٢)</sup> .

(١) الإحياء ، ج ٣ ، ص ١٠٧

(٢) الإحياء ، ج ٣ ، ص ١١٠

ويستحب الصوفية أن تكون المرأة دون الرجل بأربع : السن والطول  
والمال والحسب .

وأن تكون فوقه بأربع : الجمال والورع والخلق والأدب .  
ويوجب الصوفية أن يصبر الرجل على امرأته ، وحدثوا أن أحدهم خطب امرأة  
ذات جمال ، فلما قرب زفافها أصابها الجدري ، فاشتد حزن أهلها لذلك خوفاً من  
أن يستبجها ، فأراهم الرجل أن عينيه أصابها رمد وأن بصره ذهب ، وزفت  
إليه وذهب عن أهلها الحزن ، فبقيت عنده عشرين سنة ثم توفيت ، ففتح عينيه ،  
فسأله إخوانه عن سر ذلك فقال : تعمدته لأجل أهلها حتى لا يحزنوا ، فقبل له :  
سبقت إخوانك بهذا الخلق .

وتزوج بعض الصوفية امرأة سيئة الخلق فكان يصبر عليها ، فقبل له لم  
لا تطلقها ؟ فقال : أخشى أن يتزوجها من لا يصبر عليها فيتأذى بها .  
وللصوفية أحاديث في الزواج يضيق عن سردها الجمال ، وللقارىء أن يرجع  
إلى قصة سعيد بن المسيب في الإحياء فهي صورة من الأدب الرفيع .  
ولهم في مدافعة الشهوات آيات :

حدث أحمد بن سعيد عن أبيه قال : كان عندنا بالكوفة شاب متعبد ،  
ملازم للمسجد الجامع لا يكاد يفارقه ، وكان حسن الوجه ، حسن القامة ،  
حسن السمات ، فنظرت إليه امرأة ذات جمال وعقل فشغفت به ، وطال  
عليها ذلك ، فلما كان ذات يوم وقفت له على الطريق وهو يريد المسجد  
فقال له : يا فتى ، اسمع مني كلمات أكلك بها ثم اعمل ما شئت ، فضى ولم  
يكلمها ، ثم وقفت له بعد ذلك على طريقه وهو يريد منزله فقالت له : يا فتى

اسمع منى كلمات أكلّمك بها ، فأطرق ملياً وقال لها : هذا موقف تهمة ، وأنا أكره أن أكون للتهمة موضعاً . فقالت له : والله ما وقفت موقفى هذا جهالة منى بأمرى . ولكن معاذ الله أن يتشوف العباد إلى مثل هذا منى ، والذى حملنى على أن لقيتك فى هذا الأمر بنفسى معرفتى أن القليل من هذا عند الناس كثير ، وأنتم معاشر العباد على مثال القوارير أدنى شىء يعيها ، وجملة ما أقول لك أن جوارحى كلها مشغولة بك ، فالله الله فى أمرى وأمرى .

فمضى الشاب إلى منزلة وأراد أن يصلى فلم يعقل كيف يصلى . فأخذ قرطاساً وكتب كتاباً ثم خرج من منزله وإذا بالمرأة واقفة فى موضعها فالتقى إليها الكتاب ورجع إلى منزله . وكان فى الكتاب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

اعلمى أيتها المرأة أن الله عز وجل إذا عصاه العبد حلم ، فإذا عاد إلى المصيبة مرة أخرى ستره ، فإذا لبس لها ملابسها غضب الله تعالى لنفسه غضبة تضيق منها السموات والأرض والجبال والشجر والدواب ، فمن ذا يطبق غضبه ؟ فإن كان ما ذكرت باطلاً فإنى أذكرك يوماً تكون فيه السماء كالمهل ، والجبال كالصخر ، وتجتو الأمم لصولة الجبار العظيم ، وإنى والله قد ضعفت عن إصلاح نفسى ، فكيف إصلاح غيرى ، وإن كان ما ذكرت حقاً فإنى أدلك على طبيب هدى يداوى السكوم الممرضة ، والأوجاع الممرضة ، ذلك الله رب العالمين ، فاقصديه بصدق المسألة فإنى مشغول عنك بقوله تعالى : وأنذرهم يوم الآزفة ، إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ،

ما للظالمين من حليم ولا شفيح يطاع ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . فأين المهرب من هذه الآية ؟ » .

ثم إنها جاءت بعد ذلك بأيام فوقفت له على الطريق فلما رآها من بعيد أراد الرجوع لمنزله كيلا يراها فقالت : يا فتى ، لا ترجع ، فلا كان الملتقى بعد هذا اليوم أبداً إلا غداً بين يدي الله تعالى . ثم بكت بكاء شديداً وقالت : أسأل الله الذى بيده مفاتيح قلبك أن يسهل ما قد عَسُرَ من أمرك !  
ثم إنها تبتمته وقالت : أمنن على جموعة أحملها عنك .

فقال : أوصيك بحفظ نفسك من نفسك ، واذكرى قوله تعالى : وهو الذى يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار .

فأطرقت وبكت بكاء أشد من بكائها الأول ، ثم أفاقت ولزمت بيتها وأخذت فى العبادة ولم تزل على ذلك حتى ماتت كدأ<sup>(١)</sup> .

ولما ذكرت هذا الشاهد لمذوبته من الوجهة الأدبية ، وهناك شواهد تعد بالآلاف ، وهى تصور جوانب من حلاوة الأدب وطهارة الأخلاق .

والمهم أن نسجل أن الصوفى يخاف ربه أشد الخوف ، ويكره الشهوة أشد الكره ، ولا يتقدم ولا يتأخر إلا وهو فى حيلة وحذر من أحابيل المفاتن والصبوات .

والصوفية يعرفون مزالق النفوس والأهواء فيتحرزون من النساء ومن الوجوه الصباح ، ويجاهدون أهواءهم بالعزلة فى بيوتهم وبالظماً والجوع وبمصاحبة الأتقياء .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٤ .

وقد أشرنا غير مرة إلى أن الشهوات هي الأصل في عمارة الوجود ،  
ولكن من ذا الذى يرضى أن تذهب مروءة ليعمر الوجود ؟  
من ذا الذى يرضى أن يكون وقوداً في أتون العمران ؟  
من ذا الذى يرضى أن يكون عضواً في الجمعية الأثيمة التى تعمّر الوجود  
بأسباب الشهوات ؟

وما قيمة الوجود كله إذا خرجنا من ربحه خاسرين ؟  
ما غنيمة الرجل الذى يجاهد لإغناء الحياة الأدبية بالصور الحسية والاجتماعية  
على نحو ما فعل ميسيه ولا مرتين إذا خرج من جهاده بمحصول سخيف هو  
قد كرامته بين الناس ؟

وهل يستطيع أطرف الأدباء أن يكون أخلد من إبليس ؟ إن بعض  
الأدباء - وأنا منهم - يتوهمون أن وصف الشهوات والمآثم يرفع الأدب  
ويحييه ، وذلك ضلال مبين .

فما ظفرت ولا ظفر أشألى بغير عصارة مريرة الطعم والمذاق .

إن الصوفية أعقل من الأدباء وأشرف .

سيلقى الصوفية ربهم راضين مبتسمين ، أما نحن فسندهب إلى النار في  
ركاب امرئ القيس الذى أُنذره الرسول .

لقد فقدنا كل شيء ، حتى الطمع في عفو الله ، وهل ينفو الله على من  
خلدوا آثار المآثم والشهوات باسم الأدب الرفيع ؟

إن من أشنع الأضاليل أن تظن أن من الأدب أن تصف كل مآثر العيون .

إن من أشنع الأضاليل أن تحسب أن من واجبك أن تصور كل مآثر الوجود .



إن من أسخف الأباطيل أن تخال أنك جندى من جنود الحب والهيام  
والفتون .

تلك دنيا من الوهم السخيف طفنا بملاهيها ونحن سفهاء ، ثم رجعنا نادمين .  
وأين نحن من الصوفية ؟

أين مكان المسود من مكان السيد ؟  
أين يقع حال اللاهين اللاعبين الذين لا تغنيهم الحلائل عن الخليلات من حال  
الصوفية الذين لا يعرفون اللذات إلا فى حدود الحلال ؟  
قولوا فى الصوفية ما شئتم ، ولكن تذكروا أنهم أشرف متصونون  
يكرهون مواطن التهم ومواضع الشبهات .

وهل فى الدنيا حال أشرف من حال من يقطع السبيل على اللادين والمتقولين  
فلا يمكن السفلة من الوقوع فى عرضه كلما شاء لهم هوام أن يلزوه فى الأندية  
والمجتمعات ؟

إن أصغر مزية للتصون هى رد الأعداء خائبين ، الأعداء اللثام الذين يعرفون  
صدق سريرتك ، ثم يتوكلون على قصيدة تقولها فى منظر جميل ليستبيحوا عرضك  
عند من تعرف ومن لا تعرف .

إن أهون فضيلة من فضائل التصون هى إجابة الأوباش الذين لا يجدون  
وسيلة لإشباع بطونهم غير الوقوع فى أعراض الرجال .

فإن قلت إن الصوفية على طهارتهم لم يسلموا من ألسنة الأندال ،  
فإنى أجيبك بأن حالهم أفضل من حال الأديب الوصاف الذى يمكن  
الأندال من اتهامه بالإثم والفتون ، فلا يجدون من يصرفهم عن غيهم

باسم العقل والوجدان .

إن الصوفية أفضل من الأدباء وأشرف .

فليكن من ههنا أن نحاول اللحاق بأولئك القوم .

ولكن أين العوائم وأين القلوب ! .

٦ - وكما يحترس الصوفية من شهوات البطن والفرج يحترسون من

آفات اللسان .

والصوفية هم أكثر الناس كلاماً في التحذير من الكذب والفيية والنيمة

والفضول .

وما اتفق لرجل من الصوفية أن يؤلف كتاباً إلا تكلم على آفات اللسان .

فقد علمتهم التجارب أن اللسان يضر كما ينفع ، وهدتهم عظات الأيام إلى أن

اللسان قد يجر صاحبه إلى المخاطر والماعط .

وما تقدم إنسان أو تخلف إلا كان لسانه من أسباب ما غم من تقدم أو

رُزى من تخلف .

وشواهد الحال في كل مجتمع تشهد بأن الألسنة لها أثر فعال

في مراكز الرجال .

فالرجل العاقل يلقي الناس بما يحبون ، ويأبى عليه أدبه أن يواجههم بما

يكرهون .

وقد يسوء حظ الرجل ويحانه التوفيق فيتوهم أن من واجبه أن يصارح

الناس بعيوبهم ومساوئهم ، وهو يحسب ذلك من الشجاعة الأدبية ، ولو عقل

لعرف أن الشجاعة الصحيحة هي ضبط اللسان وحجسه عن إيذاء الناس .

وقد يتفق في بعض الأحيان أن تُقهر على الجهر بكلمة الحق ، ولكن تلك الحال هي الشاهد على العجز الموبق ، فالرجل الحكيم يستطيع دائماً أن يكون عفيف القول رطب اللسان ، ولا تصدر الكلمة السفهية عن لسان الرجل إلا وهو مقهور مغلوب ، وما قهره ولا غلبه إلا ضعف عزيمته عن مقاومة ما في صدره من أهواء وشهوات .

٧ - اهتم الصوفية بالكلام على آفات الألسنة ، وكادوا يسكتون عن آفات الأقلام ، وإنما كان الأمر كذلك لأن الأقلام في الأزمان الخالية لم يكن لها مجال .

أما اليوم فالقلم بأسو ويجرح ، وهو صديق من أصدقاء السوء والبهتان .  
كان القدماء يقولون :

جراحات السنان لها التثامُ ولا يلتام ما جرح اللسانُ  
وكان اللسان يجرح في بيئات ضيقة محصورة يمد أصحابها بالمشرات  
أو بالثبات  
أما اليوم فالقلم يجرح في بيئات يمد أصحابها بالألوف أو بالملايين .

والكلمة الجارحة في جريدة أو في مجلة تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن قطر إلى قطر ، ومن قارة إلى قارة ، وتحدث من الآثار السيئة ما تعجز عن غسله الأنهار والبحار .

كانت الغيبة باللسان توجه إلى فرد من الأفراد ، أما الغيبة بالقلم فقد تؤذى حكومة من الحكومات أو شعباً من الشعوب .

وما بنا أن ننهي عن نقد الحكومات والشعوب ، ولكننا نوازن بين

حالين : حال من يفتاب فرداً وحال من يفتاب حكومة أو أمة .

فالذى يفتاب فرداً يطل مصلحة فردية ، أما الذى يفتاب حكومة فهو يحرض عليها جماهير كثيرة فيسوق الشعب إلى التمرد والعصيان ، ولذلك عواقب تهدد مصالح الألوف والملايين ، والذى يفتاب أمة قد يعرضها لأخطار من الوجهة الاقتصادية أو الوجهة الدولية . والناس يقومون فى هذه المآثم كل يوم ولا يتنبهون لخطر ما يصنعون .

ومن تقاليد هذا العصر أن ننشئ الجرائد والمجلات لمحاربة الحكومات والأحزاب ، ومن حقنا أن نفعل ذلك ، والحجة فى أيدينا وهى الفيرة على المصلحة القومية ، ولكن ينبغى عنا أن الأهواء قد تكون لها مسالك فى تزيين ما تتورط فيه أحياناً من الجور والاعتساف .

فالذى يهجم على رئيس حكومة أو رئيس حزب لا يعرف فى الأغلب خطر ما يصنع من الوجهة الأخلاقية ، لأن التمهيد فى الحياة السياسية قد يحول صاحبه إلى طاغية يستبيح كل شئ فى تأييد المذهب الذى انحاز إليه ، وفى السياسيين رجال عُرِفوا بالأدب والذوق ، ولكن فى الجدل السياسى يخرجون على ما عرِفوا به من التجمل وضبط النفس ، حتى لتحسب للرجل منهم شخصيتين مختلفتين أشد الاختلاف .

وإنما كان ذلك لأن مذاهب السلوك فى العصر الحديث لا تعرف مآثم الاغتياب فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، كما تعرفها فى الحياة الفردية ، فـرئيس الحكومة أو رئيس الحزب لا يجوز اغتيابه من حيث هو فرد ، ولكن يجوز اغتيابه من حيث هو رئيس حكومة أو رئيس حزب ، والفية

الاجتماعية والسياسية أبشع أثراً من النية الفردية ، ولكن أين من يتنبه إلى دقائق الأخلاق ؟

يضاف إلى ذلك أن النية الاجتماعية والسياسية تنشر بطريقة علنية في الجرائد والمجلات ، وقراء الصحف فيهم من يصدق كل ما يقرأ ، وهنا وجه الخطر ، فلو كان الناس جميعاً قادرين على نقد ما يقرءون لخفت أضرار النية الاجتماعية والسياسية ، وبقيت مهابة رؤساء الحكومات ورؤساء الأحزاب في صدور الناس .

وإذا كان في الأحاديث النبوية ما ينذر بأن اللسان قد يهوى بصاحبه في النار سبعين خريفاً فنحن نؤكد أن القلم قد يهوى بصاحبه في النار سبعمائة ألف خريف .

والقلم في هذا الزمان أخطر الآفات ، وعلى حملة الأفلام أكبر الإثم في خلق الضغائن والحقود بين الأفراد والجماعات والشعوب ، وهم المسئولون أمام الله وأمام التاريخ عن تكدير السلام وسوق الناس إلى المجازر البشرية .

وكتاب السياسة لا تروج أسواقهم إلا إن عُرفوا بالقدرة والبراعة في تصوير مقاتل الحكومات والأحزاب ، والجريدة التي تؤثر العقل على الهوى يتلقاها الناس بفتور وعدم اكتراث ، لأن في بني آدم حيوانية مقهورة تطلب الغذاء من الأقاويل والأراجيف ، ولذلك يصفقون لمن يجترح المآثم باسم الفيرة على عمار الكون مع أنهم يمدفون أن ييته خراب .

وسياتى يوم تعادل فيه الموازين الذوقية والأدبية والاجتماعية والسياسية ، فيعرف من لم يكن يعرف أن العالم السياسي كان يتلون بألوان الشهوات والأهواء

وأن من أقطاب السياسة الدولية من يضرب الأمم بعضها ببعض في خطبة أو مقالة وهو معقول بمقال الشراب .

سيأتي يوم يعرف فيه المسلمون أن حضارتهم العظيمة لم تقوضها غير الأقلام الباغية ، أقلام الكتاب والمؤلفين الذين غفلوا عن أخطار النية الاجتماعية ، فحبروا الفصول الطوال في المفاضلات بين الأمم الإسلامية حتى شطروها إلى عناصر يبنى بعضها على بعض بلا تورع ولا استحياء .

وثورة الأمة الفارسية على اللغة العربية كانت لها أسباب من هذا النوع .

وثورة الأمة التركية على الحروف العربية كانت لها دواع من هذا القبيل .

ولن تزول آثار هذه النية القلبية إلا يوم يمن الله على المسلمين بكتّاب حكما يعرفون كيف يقتلمون جذور هذه الفتن من الأفتدة والقلوب .

ولكن متى يأتي ذلك اليوم ؟

إن الأقلام تقدم ما تشاء من الألوان ، وهي تبغى على العدل والسلام بلا حق ، وتأخذ الأجر على خدمة البغى والاثم والمعدوان .

متى يعرف الناس أن صراخ الأرامل وبكاء اليتامى في أعقاب ما تصنع الحرب من إهلاك الأزواج والآباء كان مرجعه إلى القلم الأثيم ؟

متى يعرف الناس أن « الدعايات » التي تنظمها الحكومات والأحزاب هي سموم خطيرة تقتك أشد القتتك بطمأنينة الأمم والشعوب .

متى يعرف الناس أن « الدعاية » يجب أن تكون بابا من الهداية ؟

متى يفهم بنو آدم قيمة الصدق في الوصف ؟

متى يحىء رجل صوفى ينبه أهل هذا الزمان إلى خطر القلم ، كما نبه

الصوفية إلى خطر اللسان في الأيام الخالية ؟

متى ؟ متى ؟ إن أهل هذا العصر لا يفهمون من الأخلاق إلا شيئاً واحداً ،  
هو أن يحسن المرء أساليب الرياء حتى يسلم من شر الجواسيس فلا تكون له  
صحيفة في سجلات السوابق . وذلك حظ خسيس لو يعلمون !

٧ - كان الصوفية يعرفون أن لا نجاة من خطر اللسان إلا بالصمت ،  
وهم يذكرون أن عقبة بن عامر سأل رسول الله عن النجاة فقال : أَمْسِكْ عَلَيْكَ  
لِسَانَكَ ، وَلِيَسْمَعْ بَيْتَكَ ، وَابْكْ عَلَى خَطِيئَتِكَ<sup>(١)</sup> .

وفي هذه الكلمات نظام الأخلاق .

لحفظ اللسان أصل عظيم من أصول السلامة ، وقرار المرء في بيته أدب  
نفيس لا يتأدب به غير أحرار الرجال ، وهل كان العطب والهوان إلا في الضجر  
من أمان البيت ؟

إن عورات المرء تنكشف حين يخرج من بيته ، وماذا يلقي حين تضيق عليه  
رحبة البيت ؟ يلقي اللاغين والآثمين من أكلة اللحوم ، لحوم الأعراض ، يلقي  
المتجرين من أهل الغواية والإثم والفسوق ، يلقي حطب جهنم من الأوباش  
الذين لا يعرفون كيف يقضون الوقت بالاستماع إلى موعظة حسنة أو الاطلاع  
على كتاب نفيس .

والناجحون في هذا الوجود هم الذين يعرفون كرامة البيوت .  
والصالحون هم الذين يجدون راحتهم في حجر بيوتهم ليمشوا من  
من فضلات السفهاء .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٦ .

وفى الدنيا ناس لا يجدون القوت ، ولكنهم يسترون فاقتهم بالقرار فى بيوتهم ، وهؤلاء هم حزب الله ، وهم المصطفون الأبرار يوم ينصب الميزان .

وأبشع هوان فى الدنيا هو الاعتماد على الناس ، وما مدّ مخلوق يده إلى صديق أو قريب إلا كان ذلك بداية الخذلان ، ولا استطاع المرء أن يعيش فى حماية أصدقائه ، أو رعاية أقربائه ، إلا وقد عرف أنه مخلوق ذليل مهين .

فمن أين جاء للرجل الذى اسمه محمد أن يقول فى وصية من استهداه « وليسمعك بيتك » ؟

تلك حكمة لا تخرج إلا من لسان رعا الله واصطفاه .

أما وصيته بالبكاء على الخطيئة فأمرها معروف . ولا يصلح الرجل للخير إلا أن عرف كيف يبكي على خطاياها .

إن الصوفية يخشون شر اللسان ، ويستأنسون بقصة معاذ بن جبل إذ قال : يا رسول الله ، أتؤاخذ بما نقول ؟ فقال الرسول : ثكلتك أمك يا ابن جبل ، وهل يكبّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم <sup>(١)</sup> .

ونحن نعرف جيداً أخطار اللسان : فصاحبنا عيسى بن عظام تكدر عيشه وساءت سيرته ، لأنه ابتلى بعدوّ سفيه لا يتقى الله فى الأعداء ولا الأصدقاء ، فأذاع عنه من الإفك ما أذاع ليسقط مكانه فى المجتمع ، وصديقنا الحارث بن همام كان رجلاً يصلح لأعظم الشؤون ، ثم ابتلته المقادير بصديق بنفس عليه مكانته العلمية والأدبية فأخذ يلزمه من حيث لا يحتسب ليسوء سمعته عند من يملكون منافع الدنيوية ، وأخونا العزيز هيان بن بيان



كان خليقاً بأن يشغل أعظم منصب في الدولة ، ثم شاء الحظ العاثر أن يكون له زميل ساقط الهمة والمروءة والشرف لا يعيش إلا بالتزلف إلى الكبراء ، ومن الكبراء من يسرهم أن تسوء سمعة الرجال ليتفردوا بالسيطرة والجبروت .

وكذلك صح عندنا بعد التجارب الأليمة أن السلامة لا تكون إلا لمن رحمه الله فكتب أن يعيش بلا أقرباء ولا أصدقاء ولا رفقاء .

والويل كل الويل لمن وثق بالأصدقاء وأمن غدر الزمان !  
ويعتقد الصوفية أن الأعضاء كلها تذكر اللسان بواجبه وتقول : اتق الله فينا فإنك إن استقممت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا<sup>(١)</sup> .

ويروون أن ابن مسعود كان على الصفا يلبي ويقول : يا لسان ، قل خيراً نغم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم .

ف قيل له : يا أبا عبد الرحمن ، أهذا شيء تقوله ؟ أو شيء سمعته ؟ فقال : لا ، بل سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه<sup>(٢)</sup> .

ويروون أن ابن عمر حدث أن رسول الله قال : من كف لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قبل الله عذره<sup>(٣)</sup> .  
وأن معاذ بن جبل قال : يا رسول الله أوصني ، فقال له الرسول : اعبد الله كأنك تراه ، وعد نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أملك من هذا كله ، وأشار بيده إلى لسانه<sup>(٤)</sup> .

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١١٧ .

وأن رسول الله قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت<sup>(١)</sup> .

وأن الحسن قال : ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : رحم الله عبداً قال خيراً ففهم ، أو سكت فسلم<sup>(٢)</sup> .

وأن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : دلتني على عمل يدخلني الجنة ، فقال الرسول : أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف ، وأنه عن الذكر ، فإن لم تستطع فكف لسانك إلا من خير<sup>(٣)</sup> .

وأن الرسول قال : الناس ثلاثة : غانم وسالم وشاجب ، فالغانم الذي يذكر الله تعالى ، والسالم الساكت ، والشاجب الذي يخوض في الباطل<sup>(٤)</sup> .  
ويؤكدون أن المنصور بن المعتمر لم يتكلم بكلمة بعد عشاء الآخرة أربعين سنة .

وأن الربيع بن خيثم ما تكلم بكلام الدنيا عشرين سنة ، وكان إذا أصبح وضع دواة وقرطاساً وقلماً ، فكل ما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء قال أستاذنا الغزالي طيب الله ثراه :

« فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والحصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهي

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٧ .

(٢) الشاجب : الهالك .

سبابة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب ، وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ، ويمسكه ويكفه عما لا يحب ، فإن ذلك من غوامض العلم ، ففي الخوض خطر ، وفي الصمت سلامة ، فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهمة ، ودوام الوقاء ، والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة فقد قال تعالى : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد<sup>(١)</sup> » .

ويعضى الغزالي فيقسم الكلام إلى أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة . أما الذي هو ضرر محض فتركه واجب ، وكذلك ما فيه منفعة لا تنفي بالضرر . وأما الكلام الذي لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول ، والاشتغال به تضییع زمان ، وهو عين الخسران<sup>(١)</sup> .

بقى القسم الرابع وهو ممرض لأخطار الرياء والتصنع والغيبة وتركبة النفس ولا يسلم من آفاته إلا من وقف على دقائق الأخلاق .

٨ - ويستتبع الصوفية أن يتكلم الرجل فيما لا يعنيه ، ويروون أن الرسول قال : أول من يدخل من هذا الباب رجل من أهل الجنة ، فدخل محمد بن سلام ، فقام إليه ناس من أصحاب الرسول وأخبروه بذلك وقالوا : أخبرنا بأوثق عمل في نفسك ترجو به ؟ فقال : إني لضعيف ، وإن أوثق ما أرجو به سلامة الصدر ، وترك ما لا يعنيني .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٨ .

وأن أبا ذر قال : قال لي رسول الله : ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ،  
ثقل في الميزان ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فقال : هو الصمت ، وحسن الخلق ،  
وترك ما لا يعنيك <sup>(١)</sup> .

وقال مجاهد : سمعت ابن عباس يقول : خمس هن أحب إلى من الدراهم  
الموقوفة : لا تسكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل — أى فضول — ولا آمن عليك  
الوزر ، ولا تسكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً ، فإنه رب متكلم في أمر يعنيه  
قد وضعه في غير موضعه ففنت ، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً . فإن الحليم يقلبك ،  
والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه  
مما تحب أن يعفبك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به . واعمل عمل رجل  
يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاجترام <sup>(١)</sup> .

وقال مؤرق العجلي : أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة لم أقدر عليه ، ولست  
بتارك طلبه . قالوا وما هو ؟ قال : السكوت عما لا يعني .

وقد شرح النزالي حدود هذه الآفة فقال : حد الكلام فيما لا يعنيك  
أن تسكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به في حال أو مآل .  
مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ،  
وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت  
منه من مشايخ البلاد ووقائهم ، فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر  
بالسكوت .

ومن جلتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فانت بالسؤال مضيع وقتك

وقد أجبأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الأمر مما لا يتطرق بالسؤال عنه آفة . وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن عبادته مثلاً فتقول له : هل أنت صائم ؟ فإن قال نعم ، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل الرياء عليه سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال : إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار . أو للتعب في حيلة الدفع . وكذلك سؤالك عن سائر عباداته وعن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه ، وكذلك سؤالك عما حدث به غيرك . وكأن ترى إنساناً في الطريق فتقول : من ابن ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت أنت السبب<sup>(١)</sup> .

وهذه الشواهد تمثل أشياء من صور المجتمع لعهد الغزالي ، ولو عاش في عصرنا لأضاف أشياء ، فمن الناس من يدخل بيتك فيسألك عن كل ما تقع عليه عيناه : يسأل عن تكاليف الأثاث ، وعدد الحجرات والفرقات . وقد يسأل عن البيت متى بنيته ، وكيف أقمته ، وربما سأل عن الجيران وجيران الجيران ، وقد يسألك عن أطفالك وعن أسنانهم ومدارسهم وما تنتظر لهم في المستقبل القريب أو البعيد ، وهو لا يسكت عن حالك في وظيفتك ، ويرى من حقه أن يعرف مكاسبك ومناعمك ، وقد يرى من حقه أيضاً أن

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٢٠

يعرف تكاليف أثوابك ، وأن يبدى ملاحظته السديدة على هندامك !  
واللغو والفضول من أظهر شمائل الناس في هذه الأيام ، ولا بد من صوفي  
جديد يضع للمجتمع الحاضر قواعد ينتهى إليها الناس . إن كانوا صالحين للتأدب  
بأدب الرجال .

وأغرب ما تراه العيون غرام بعض الصحفيين بالبحث عن مذاهب  
الناس ومسالكهم في الحياة ، وقد يطيب لهم أن يسألوك عن كل شيء ، كأن  
من حق الجمهور أن يعرف ما تأكل وما تشرب وما تلبس . وتلك شهوات  
سخيفة يعيش منها الفارغون والبطالون .

والصوفي يكره لنفسه ولريديه أن يقوموا في شيء من ذلك ، والأدب الحق  
أن لا تدخل في شؤون معارفك وأصدقائك ، بل الأدب كل الأدب أن تجهل من  
أمرهم كل شيء .

والرجل المهنذب هو الذى يدخل بيوت الناس وعينه عمياء ، وأذنه  
صماء ، فلا يرى ولا يسمع ، ثم يخرج وهو سليم القلب من أضرار الانتقاد  
والاعتراض .

٩ — والصوفية يكرهون لريديهم أن يقوموا في آفة المراء والجدال .

ويستأنسون بقول الرسول : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلا  
الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في ربض الجنة<sup>(١)</sup> .

فترك المراء من الحق أعلا منزلة لأن الحق يجد عُسراً وصعوبة في ترك الجدال ،  
ومن أجل ذلك كان انصرافه عن المجادلة أدل على قوة نفسه ، وشدة  
امتلاكه لهواه .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١١٩ والربض في الأصل هو الحظيرة وتكون بالأرض .

ويستأنسون أيضاً بقول الرسول : إن أول ما عهد إلى ربي ونهاني عنه بعد عبادة الأوثان وشرب الخمر ملاحاة الرجال<sup>(١)</sup> .

والرسول يرى الجدل من أسباب انحلال الشعوب ويقول : ما ضلّ قوم بعد أن هدام الله إلا أوتوا الجدال<sup>(٢)</sup> .

وشواهد الأحوال تؤيد هذه النظرية النبوية ، فالأمم التي تكثر فيها الخصامات والمجادلات هي الأمم المعرضة للانحلال ، وأقوى الأمم اليوم هي الأمة الإنجليزية وهي أقل الأمم غراماً بالمجادلات الصحفية والبرلمانية ، وستظل قوية إلى أن يتليها الله بجماعة من الصحفيين الطائشين الذين يقتلون بالجدل والمهارة أصول الهية والحب من قلوب الناس .

والسر في قبح الجدل يرجع إلى ما فيه من شهوة الاستعلاء ، ومن هنا كان خطره على الصداقات والمودات ، ولا يمكن أن تصح بينك وبين رجل مودة إذا ظننت أنك أفضل منه أو ظن أنه أفضل منك .

وكان سفيان يقول : صاف من شئت ، ثم أغضبه بالراء ، فليرمينك بداهية تمنعك العيش<sup>(٣)</sup> .

وهذا كلام يعرف صدقه من ابتلاهم الله بمجادلة الناس .

وقد شرح الغزالي حقيقة المراء فقال :

« حدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه : إما في اللفظ ، وإما في المعنى ، وإما في قصد التكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض .

---

(١) الإنباء ج ٣ ص ١٢٣ .

فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدق ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً  
بأمور الدين فاسكت عنه . والطمع في كلام الغير تارة يكون في لفظه بإظهار خلل  
فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة ، أو من جهة العربية ، أو من جهة النظم  
والترتيب بسوء تقديم أو تأخير ، وذلك يكون من قصور المعرفة ، وتارة يكون  
بطغيان اللسان ، وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله . وأما في المعنى فكأن يقول :  
ليس كما تقول وقد أخطأت فيه من وجه كذا وكذا . وأما في قصده فمثل أن  
يقول : هذا الكلام حق ، ولكن ليس قصدك منه الحق ، وإنما أنت فيه  
صاحب غرض . . . . وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية فربما خص باسم  
الجدل ، وهو أيضاً مذموم ، بل الواجب السكوت ، أو السؤال في معرض الاستفادة  
لا على وجه العناد . . . . وأما المجادلة فمباراة عن قصد إخماد الغير وتمجيذه وتنقيصه  
بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل<sup>(١)</sup> .

ومعنى هذا أن من أدب المرید أن يترك الاعتراض على الناس تركاً كلياً ،  
ومعناه أيضاً أن من سوء السلوك أن تتحدث عن خطب الخطباء ، ورسائل  
الكتاب ، وقصائد الشعراء ، وآثار المؤلفين ، فلا تصحح أغلاطهم ، ولا تنبه  
على الضعيف من أساليبهم ، والمبتذل من معانيهم ، لأن الباعث على ذلك هو  
الترفع بإظهار العلم والفضل ، والتهجم على الغير بإظهار الجهل والنقص . وهما  
شهوتان باطنيتان للنفس .

وقد هدتنا التجارب إلى صدق هذه النظرة الصوفية ، فكل ما يجترحه



باسم النقد الأدبي هو ضلال في ضلال ، وهو يخلق من العداوات والحزازات مانعجز عن دفعه في أكثر الأحيان .

وقد نهجم على ناس فنصح أغلاطهم علانية في الجرائد والمجلات ، وتكون الحجة أننا نخدم الحياة العلمية والأدبية ، وفي هذا ظل من الحق ، ولكن من نهجم عليهم يؤذون أنفسهم ويسودون صحائفهم بالظن فينا وتشويه سمعتنا عند من نعرف ومن لا نعرف ، وقد يكون فيمن نصح أغلاطهم ناس صغار يستبيحون خلق المآثم والعيوب ، وإشاعة الأقاويل والأراجيف .

وفيمن ابتلاهم الله بالصراحة في النقد الأدبي رجل خدم الحياة الأدبية نحو عشرين سنة فلم يخرج من ذلك الكفاح العنيف إلا بمفانم باطلة هي مارماه به أدياء العلم والأدب من أدناس الزور والبهتان .

أستغفر العقل ، ففيهم من يظفر من ذلك الكفاح بمحصول نفيس : هو اليأس من أدب الناس ، والثقة المتينة بعدل الله . وحسن الظن بالله هو أساس التصوف ، وهو لا يتم إلا إن اقترن بسوء الظن بالناس .

وإذا كان الصوفية يكرهون لمريديهم أن يجادلوا الناس ، فهناك رجال يكرهون للصوفية أن يعترفوا بوجود الناس ، وسيطول ندمهم على ما صنعت أيديهم حين أقاموا الموازين لمؤلفات ودواوين لا يصلح أهلها لشيء ، وإن كان الله تليظ فاباحهم الاستمتاع بنعمة الشمس والهواء .

وأى منظر أقبح من منظر مخلوق ترفع اسمه بقلمك فيكون جزاؤك أن يأكل لحك في الأندية والمجتمعات ؟ .

وأى ندم أوجع من ندم رجل يخلق بقلمه منازل أدبية لبعض المخلوقات ،  
ثم تعتمد تلك المخلوقات على ماغنمت بفضلها من الشهرة فتؤذيه أبلغ إيذاء باسم  
الاتصاف للحق والغيرة على ماسموه الأدب الرفيع ؟ .

وما قيمة الحياة الأدبية والعلمية إذا خرجنا من خدمتها مجرحين بأظافر  
الأوباش ؟ .

ولكن لعل الله حكمة فيما يبتلى به العلماء من تصحيح أغلاط الجهلاء .  
تباركت ياربى وتعاليت ، فلك الفضل فى كل حال ، وكنت أحكم الحاكمين  
فى خلق الشر والدمامة والقبيح ، فلك أصول قام على أساسها الوجود ، ولو رحمت  
من يرجون رضاك من شر خلقك لكان نصيبهم الضياع .

فيا أيها المريد ، جادل من شئت ، وناضل من شئت ، على شرط أن تكون  
لك نية حسنة فى الجدل والنضال .

ولا يضيرك بعد ذلك أن يأكل لحك السفهاء ، فأنت فى وجود لا يسلم فيه  
من أذى الناس إلا الخاملون والضعفاء ، وهل سلم الأنبياء والمرسلون من أذى  
الناس حتى تطلب السلامة من أذى الناس ؟ .

١٠ - ولكن تذكر أيها المريد مهما كان حالك وشأنك ما حدث ابن قتيبة  
إذ قال : مرّ بى بشر بن عبد الله فقال : ما يجلسك ههنا ؟ فقلت : خصومة بينى  
وبين ابن عم لى فقال : إن لأبيك عندى يداً ، وإنى أريد أن أجزيك بها ،  
وإنى والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ،  
ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال : ففقت لأنصرف فقال لى خصمى : مالك ؟  
قلت : لا أخاصمك ! فقال : إنك عرفت أن الحق لى ! فقلت : لا ، ولكنى

أكرم نفسى عن هذا<sup>(١)</sup> .

والصوفية لا ينكرون أن يخاصم الرجل فى سبيل حقوقه ، ولكنهم ينكرون اللدد فى الخصومة ، لما فى اللدد من التسلط والإيذاء ولا سيما إذا امتزج اللدد بكلمات لا يحتاج إليها فى تأييد الحق وإظهار الحق « فأما المظلوم الذى ينصر حجته بطريق الشرع من غير لد ولا زيادة لجأ على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام . ولكن الأولى تركه ما وجد إلى الترك سبيلا ، فإن ضبط اللسان فى الخصومة على قدر الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيج الغضب . وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرتة ، ويطلق اللسان فى عرضه ، فن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المخذورات<sup>(١)</sup> » .

والحق أن هذا الجانب من الأدب دقيق ، فالخصومة فى سبيل الحقوق واجبة ، ولكنها تجرّ أحيانا إلى ضيم وهوان . والوقوف أمام المحاكم يفض من أقدار الرجال ، وما ينبغي أن يعرف الرجل أبواب المحاكم إلا حين تضيق أمامه جميع المسالك . والذى يقف للدفاع عن حقه أمام المحكمة قد تسوقه الظروف إلى التريد ، والتريد قبيح ، وقد ينتهى إلى رمى الخصم بعبارات أو إشارات لا تصلح للصدور من رجل كريم . ومن هنا كره الصالحون أن يكون الرجل فصيح اللسان أمام القضاة . لأن فصاحة اللسان قد تحقق الباطل فى بعض الأحيان .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٢٥ .

١١ - والصوفية يكرهون للمريد أن يتقمر في الكلام بالتشدد وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيات والمقدمات وما جرت به عادة المتفاحين المدّعين للخطابة<sup>(١)</sup> ويذكرون أن عمر بن سعد بن أبي وقّاص جاء إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ، إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بالسنتهم كما تتخلل البقر الكلام بالسنتها<sup>(٢)</sup> .

ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن الغرض من الخطابة تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، ولرشاقة اللفظ تأثير في ذلك ، فأما المحاورات التي تجرى لقضاء المصالح فلا ينبغي أن يقع فيها أيّ تكلف .

ومعنى هذا أن الصوفية يرون التفصح من غير موجب يناق أدب الرجل المذهب .

١٢ - والصوفية يكرهون لمريديهم أن تقع أسنتهم في الفحش ، والفحش هو كلام « غليظ » بجانب سلامة الذوق ، وقد نهى الرسول عن أن تُسبّ قُتلى بدر من المشركين فقال : لا تسبوا هؤلاء ، فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون ، وتؤذون الأحياء ، ألا إن البذاء لؤم<sup>(٣)</sup> وقال : إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصيّاغ في الأسواق .

وقال إبراهيم بن ميسرة : يؤتى بالفاحش المتفحش يوم القيامة في صورة

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٢٦

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٢٧

كلب أو في جوف كلب<sup>(١)</sup> .

ويكره الصوفية أن يتكلم الرجل عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة « وأكثر ذلك يجرى في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكونون ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ... وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويُستعمل أكثرها في الشتم والتعير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أخش من بعض ، وربما اختلف ذلك بمادة البلاد ... والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء ، وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ، ومن عادتهم السب<sup>(١)</sup> .

والغزالي بهذه العبارة متنبه إلى تلون الألفاظ بألوان الأقاليم : فما يستقبح هنا قد لا يستقبح هناك ، والممول عليه هو البعد عن مخاطبة الناس بما لا يحبون .

وبسبب هذا التحرز أولع العرب بالتأليف في الكنايات ليرشدوا الجمهور إلى مواقع الخشونة في التعابير وينبهوه إلى المقبول من الألفاظ في مختلف الأحوال .

١٣ - ويكره الصوفية أن تجرى الألسنة بكلمات اللعن ، واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، بأن يقول : لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين . ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر ، لأن معرفة

البدعة غامضة ، ولم يرد فيه لفظ مأثور . والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً تجوز لعنته ، كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعُرف ذلك شرعاً . أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلاً ، فهذا فيه خطر ، فإنه ربما يسلم فيموت مقرباً عند الله ، فكيف يحكم بكونه ملعوناً<sup>(١)</sup> .

ونقل الفزالي أن نعمان شرب الخمر فحُدَّ مرات في مجلس رسول الله ، فقال بعض الصحابة : لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال الرسول : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك .

قال الفزالي : وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز .

ثم قال : فإن قيل : هل يجوز لعن يزيد لأنه قاتل الحسين أو أمر به ؟ قلنا : هذا لم يثبت أصلاً . فلا يجوز أن يقال إنه قتله أو أمر به ما لم يثبت . فضلاً عن اللعنة ، لأنه لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق . ولا يجوز أن يُرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق<sup>(٢)</sup> .

ونصَّ الفزالي على اسم يزيد له دلالة اجتماعية ، فهو يصور بعض عيوب المجتمع في القرن الخامس ، ولعلها من عيوبه إلى اليوم ، فقد كان وقوع الناس في أعراض الخلفاء والملوك والوزراء من العيوب الشائنة في الممالك الإسلامية ، وإليها يرجع أكبر الأسباب في زعزعة الأمن والثقة بين الناس ، والخصومة بين الأمويين والعلويين لها دخلٌ في ذلك ، وقد نهى الصالحون

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٢٩

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٣٠

عن مضغ حوادث التاريخ ، ولا سيما حين ينتهى ذلك إلى النزاع والشقاق وهذه الآفة على ما فيها من بشاعة كان لها فضل على الأدب يراه من اطلع على كتاب « المدائح النبوية في الأدب العربي » فقد بينّا هناك كيف أتى الكميت بالأعاجيب وهو يهجو الأمويين ، وكيف برع دعبل وهو يهجو العباسيين ، ولكن ذلك الهجوم على مافيه من روعة فنية وأدبية لا يليق بالمريد ، لأن هذه الخصومات أصبحت في ذمة التاريخ ، والإقبال عليها قد يولد في النفس أحقاداً جديدة يشقى بها الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون .

وقد بدأ الشيعة يتأثرون بمذهب أهل السنة في التغافل عن سيئات الماضي ، وفي رجال الشيعة لهذا العهد من يروض تلاميذه على دراسة التاريخ دراسة علمية لامذهبية ، وسيأتي يوم قريب جداً يتأدب فيه المسلمون جميعاً بأدب الصوفية الذين يستنكرون تكفير مسلم أو تفسيقه بلا بينة ولا برهان .

والتسامح أساس الحب ، ولا يعطف المسلمون بعضهم على بعض إلا إذا اقتربوا في فهم الأشياء ، وتناسوا مافى التاريخ من ضغائن وظلمات <sup>(١)</sup> .

---

(١) يحسن من باب الاستقصاء أن نذكر أن رأى الغزالي في النهى عن لعن يزيد خلق لأهل السنة تهمة هم منها أبرياء وهى التفتيع ليزيد ، وقد عرض اليماني لنفى هذه التهمة في كتاب الروض الباسم — ج ٢ ص ٤٠ — ٤٤ فبرأ الغزالي من القول بتصويب يزيد في قتل الحسين وبين أن الغزالي لم يخص يزيد بتحريم اللعن فهو مذهبه في كل فاسق وكافر كما رواه عنه النووي في الأذكار .

ثم ساق اليماني شواهد صريحة من كتب أهل السنة في التوجع لمصرع الحسين ونقل عن صحيح البخارى أن ابن عمر سأله رجل في دم البعوضة ، فقال : ممن أنت ؟ قال : من العراق فقال : انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوضة وقد قتلوا ابن بنت النبي صلى الله عليه وسلم ! وكان ابن حزم قد اتهم بالتعصب لى أمية ، فنفى ذلك اليماني وأورد نصوصاً من كلام ابن حزم تشهد بسخطه على سيرة يزيد ( انظر الروض الباسم ج ٢ ص ٣٦ و ٣٧ )

١٤ - والصوفية يفضون الإفراط في الزاح والمداومة عليه ، لأن ذلك يورث الضحك ، وكثرة الضحك تبت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال وتسقط المهابة والوقار<sup>(١)</sup> .

وقال يوسف بن أسباط : أقام الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وقيل أقام عطاء السلمي أربعين سنة لم يضحك . ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غُفِرَ لهم فإِذا فعل الشاكرين ، وإن كان لم يغفر لهم فإِذا فعل الخائفين<sup>(٢)</sup> .

وقال عمر بن عبد العزيز : اتقوا الله وإياكم والمزاح فإنه يورث الضغينة ويحجّر إلى القبيح ، تحدثوا بالقرآن وتجالسوا به ، فإن نقل عليكم حديث حسن من أحاديث الرجال .

وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح .

قال الغزالي فإن قلت : فقد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف يُنهى عنه ؟ فأقول : إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذى قلباً ولا تُفِرط فيه ، وتقتصر فيه أحياناً على النذور ، فلا حرج عليك فيه . ولكن من الغلط العظيم أن يتخذ الإنسان المزاح حرفة فيواظب عليه ويُفِرط فيه ثم يتمسك بفعل الرسول صلى الله عليه وسلم فيكون كمن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ويتمسك بأن الرسول أذن لعائشة في النظر

(١) ص ١٣٢

(٢) رويت هذه الكلمات في زهر الآداب منسوبة إلى الحسن البصري .



إلى رقص الزوج في يوم عيد ، وهو خطأ ، إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحات ما يصير صغيرة بالإصرار<sup>(١)</sup> .

ولا ريب في أن المزاح فيه أحياناً مطايات تشرح الصدور ، ولكن المهم هو أن لا يقع في المزاح ما يؤذى الرفيق والصديق والجلس ، فن الناس من يأمن جانبك فيما زحك بما لا تحب ، وأمثال هؤلاء قد حرّمهم الله نعمة الخلق الكريم ، وصحبتهم بلاء ، وأسوأ الناس حظاً في دنياه من ابتلى برفاق محرومين من نعمة الذوق لا يرعون حرمة المجلس ولا حق المجلس .

والمزاح في الأصل فيض من جدل النفس ، وقد يجب في بعض الأحيان ، ولكن الحيلة فيه قد تصعب ، وسياسة النفس عند الانشراح لا يقدر عليها إلا الأقلون ، فمن واجب من يهيمه أمر نفسه أن يترك المزاح جملة واحدة إلا إن صادف من يدركون قيمة المطايات ، وهم في هذا الزمن أقل من القليل .

يضاف إلى هذا أن الناس لا يدركون النكتة بطعم واحد ، فما يضحك له هذا قد يغضب منه ذاك ، وفي بني آدم مخلوقات لها أذواق غلاظ ، والهرب من صحبة هؤلاء واجب مفروض على الرجل الحصيف .

وقد أثر عن كبار الرجال كثير من المزاح والمطايات ، ولكن هؤلاء الرجال الكبار كانوا يعرفون كيف يمازحون ويطايبون ، وكان جلساؤهم في الأغلب من أهل الفطنة والذوق ، فما جاز لهم لا يجوز لك ، فقد تكون ممن ابتلاه الله بأن يعيشوا في عصر محروم من نعمة الفطنة والذوق .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٣٤ .

وما أحب أن أزيد ، وقاك الله من أهل زمانك وحماك !

١٥ - وهناك آفة أشنع من المزاح وهي السخرية والاستهزاء . وذلك محرم لما فيه من الإيذاء . قال الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً من » ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ... وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جدل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يُسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزح <sup>(١)</sup> .

١٦ - والصوفية يتهون عن الوعد الكاذب ، ولا ترى موجباً لشرح هذه الآفة فقد فشّت في هذا الزمان حتى صارت من قواعد السلوك . والله المستعان على أهل هذا الزمان !

١٧ - ويكره الصوفية لمريدتهم أن يكذبوا في القول واليمين « وهو من قبائح الذنوب ، وفواحش العيوب <sup>(٢)</sup> » فقد قال الحسن : كان يقال إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج . وقال رسول الله : ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، المنان بعمليته ، والنفاق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره . وقال ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بموضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة . وقال :

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٣٥ .

(٢) عبارة الغزالي في الإحياء ج ٣ ص ١٣٧ .

ثلاثة يحبهم الله ، رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فيصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظمن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية<sup>(١)</sup> فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا فتنحى يصلى حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البياع الخلاف والفقير المحتاج<sup>(٢)</sup> والبخيل المنان .

والصوفية يرون الكذب أقبح من الزنا ويستأنسون بما روى عن عبد الله ابن جراد قال : سألت رسول الله فقلت : يا رسول الله ، هل يزنى المؤمن ؟ قال : قد يكون ذلك . قلت : يا نبي الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا . ثم أتبعها صلى الله عليه وسلم بقول الله تعالى « إنما يقترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله » .

وسمع رسول الله يقول في دعائه : اللهم طهر قلبي من النفاق ، وفرجى من الزنا ، ولسانى من الكذب » .

فجعل الكذب في بشاعة الزنا والنفاق .

وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعابد مستكبر .

وقال : لو أفاء الله على عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلا ولا كذابا ولا جبانا . . . وقام رسول الله وكان متكئا فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشرāk بالله وعقوق الوالدين . ثم قعد وقال : ألا وقول الزور .

(١) السرية على وزن فعيلة القطعة من الجيش تسرى خفية .

(٢) لعل الصواب « المختال » .

وقال : إن العبد ليكذب الكذبة فيتباعد عنه الملك مسيرة ميل من نتن ما جاء به .

وقال : تقبلوا لي بست أتعبل لكم بالجنة . قالوا : وما هن ؟ قال : إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا أؤتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم .

وقال : كل خصلة يُطَبِّع أو يطوَى عليها المسلم إلا الخيانة والكذب .  
ومن أبلغ ما قيل في تبحيح الكذب قول ابن السَّمَّاك : ما أراني أوجرَ على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفة .

وهنا تظهر سماحة التصوف ، فالصوفي يكره الكذب لأنه يتنافى شرف النفس ، وهم مع ذلك فطنوا إلى ما في الكذب من الإضرار بالناس ، فنصوا على « أن الكذب ليس حراماً لئنه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره <sup>(١)</sup> » .

وقد تكلم الصوفية على ألوان من الأكاذيب ، وسكتوا عن أشياء لم تعرفها المصور الماضية إلا قليلاً ، سكتوا عن الأكاذيب التي يعرفها « المهذبون » من أهل هذا الجيل ، وعن الأخبار التي يخترعونها اختراعاً أثمياً لينضتوا من أقدار الرجال ، وهم في هذا يعتمدون على الفعلة الفاشية بين الناس ، فأكثر خلق الله يصدّقون كل ما يسمعون ، والخط من قيمة الرجل باختراع الأكاذيب أمر سهل ، لأنه يقوم على انعدام الضمير ، والضمير عند أكثر من تعرف لفظ بلا مدلول .

---

(١) عبارة الغزالي في الإحياء ج ٣ ص ١٣٩ .

والكذب لا يقف ضرره على المكذوب عليه ، بل ضرره بالكاذب أصبح وأشنع ، لأنه يحق شخصيته الخلقية . ويقفه أمام نفسه موقف الدليل المهن ، وأوقع الناس لا يستطيع الفرار من رؤية الأشياء على ما هي عليه ، فالكاذب يعرف جيداً أنه كاذب ، وهذه المعرفة تؤذيه أشد الإيذاء ، لأنها تقتل ثقته بشرف النفس ، وإذا انعدمت ثقة مخلوق بشرف نفسه فصيره إلى الانحلال .

والصدق ينفع الناس ، ولكن فضله على الصادق أعظم وأجزل ، لأنه يقدم إلى صاحبه ذخائر من الثقة والأمانة والشرف ، وثقة المرء بقدرته على كرم الحصول تسوقه إلى ميادين المجد ، وترفع رأسه في السر والعلانية ، وتؤهله للنزول الكريمة بين الرجال .

وأكثر من درسوا الأخلاق يتوهمون أنها ترجع إلى غايات نفعية هي الصلاحية للحياة السعيدة بين الناس . ولو تأملوا لعرفوا أن للأخلاق منفعة نفسية ، فهي ترسل الأشعة الكريمة على آفاق النفس ، وتحيط القلب الطيب بأرواح الفرائس .

ولا يعرف صدق هذه العبارة إلا من راض نفسه على التخلق بأخلاق الحكماء . وما في الأخلاق الصوالح من صعوبة وعُسْر هو أساس ما فيها من نشوة روحية ، لأنها تصورنا أمام أنفسنا بصورة القادرين المسيطرين على زيف الأهواء واليول .

١٧ — والصوفية يرون الكذب مما يُطلب في بعض الأحوال ، كأن يتوقف عليه الصلح بين الناس ، وكأن يكون وسيلة لتغطية الضغائن والحقوق .

ومعنى هذا أن الخلق يحسن أو يقبح تبعا لما يسوق من الغانم ، أو يجرد من الفاسد .

والذى يدل على استثناء بعض ضروب الكذب ما روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله يرخس فى شيء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها .

قال الغزالي : فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفى معناها ما عداها إذا ارتبط به غرض مقصود صحيح ، له أو لغيره ، أما ماله فثقل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك فيقول ما زنت وما مكرت . . . وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فالرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما ، وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا ، وإن كان عرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، أو يمتد إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به<sup>(١)</sup> .

والمهم من كل ذلك هو النص على أن الصوفية يبغضون الكذب أشد البغض حين يكون فيه إضرار وإيذاء ، ويتسامحون فيه حين يكون أقرب إلى الخير من الصدق .

١٨ - نتقل إلى رأى الصوفية فى الغيبة . قال الغزالي : « والنظر

فيها طويل » .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٤١ .

والواقع أن الصوفية جميعاً تكلموا على مآثم الاغتياب ، وكان في النية أن  
نمقد فصلاً للكلام على هذه الآفة الخبيثة التي يرجع إليها أكثر أسباب الفساد  
بين الناس ، وهي في حقيقة الأمر أفضع المهلكات ، وهي سلاح الضعفاء والمجازين  
والأوغاد ، وما سهلت الغيبة على لسان مخلوق إلا كان ذلك شاهداً على ترديه في  
بؤرة الانحطاط<sup>(١)</sup> .

والله عز شأنه ذم الغيبة في كتابه العزيز وشبه صاحبها بآكل لحمة الميتة فقال :  
« ولا يفتب بمرضكم بعضاً ، أيجب أحدكم أن يأكل لحمة أخيه ميتاً فكرهتموه »  
وقال عليه السلام : ( كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ) . وقال :  
( لا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تناجشوا<sup>(٢)</sup> ) ، ولا تدابروا ، ولا يفتب بمرضكم  
بعضاً ، وكونوا عباد الله إخواناً ) . وقال : ( إياكم والغيبة ، فإن الغيبة أشد من  
الزنا ، فإن الرجل قد يزني ويتوب فيتوب الله سبحانه عليه ، وإن صاحب الغيبة  
لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه ) . وقال : ( مررت ليلة أسرى بي على أقوام يخمشون  
وجوههم بأظافرهم فقلت : يا جبريل ، من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يفتابون  
الناس ويقعون في أعراضهم ) .

وقال البراء : خطبنا رسول الله حتى أسمع المواتق<sup>(٣)</sup> في بيوتهن فقال :

« يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه ، لا تفتابوا المسلمين ولا تتبعوا

---

(١) لم تخلق ألقاظ العثم إلا لتوجه إلى هذا الصنف الوضع من المخلوقات .  
(٢) التناجش هو أن تستام السلعة بأزيد من ثمنها ليراك الآخر فيقع فيها ، والنهي عن  
النجش والتناجش يشهد بأن المناورات التجارية مرض قديم عرفه الناس قبل عهد الرسول .  
(٣) المواتق جمع عاتق وهو الشاب أول ما أدركت .

عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته .

وقيل أوحى إلى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار .

وقال أنس : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الربا وعظم شأنه (١) فقال : إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم عند الله في الخطيئة من ست وثلاثين زنية يزنيها الرجل ، وأرأى الربا عرض الرجل المسلم .

ولما رجم رسول الله ماعراً في الزنا قال رجل لصاحبه : هذا أقمص كما يقمص الكلب ! فرّ صلى الله عليه وسلم وهاممه بجيفة فقال : أنهشها منها ! فقالا : يا رسول الله ، نهش جيفة ! فقال : ما أصبنا من أخيكما أنتن من هذه .

وقال الحسن : والله للغيبة أسرع في دين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد (٢) .

وقال بعضهم : أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ، ولا في الصلاة ، ولكن في السكف عن أعراض الناس .

وسمع على بن الحسين رجلاً يفتاب آخر فقال له : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .

وإنما أطلنا نقل هذه النصوص لغرضين : الأول دلالتها على اهتمام

---

(١) المراد من تعظيم شأن الربا تحجيم خطره وأذاه .

(٢) الأكلة بالضم والكسر وبوزن تبة هي الحكة ، وهي مرض وييل يفرغ الأجساد ، والأكلة هي الغيبة مجازاً .



الصوفية بتقبيح الاغتياب ، والثاني ما فيها من الصور الأدبية ، فهي جميعاً من الكلام النفيس . وإنا نرجو أن ينتفع بها أحد القارئین فتكون نعمة من الله على هذا الكتاب .

١٩ - والغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه ، سواء ذكرته بنقص في بدنه ، أو في نسبه ، أو في خلقه ، أو في فعله ، أو في قوله ، أو في دينه ، أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته<sup>(١)</sup> .

وهي لا تقتصر على اللسان ، بل يتحقق أذاها بالتعريض والإشارة والإيحاء والغمز والهمز والكتابة والحركة ، وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام .

والاغتياب بالكتابة هو في عصرنا أشنع أنواع الاغتياب ، لأنه ينشر في الكتب والجرائد والمجلات فيطير من أرض إلى أرض .

ومن الغيبة أن تقول ( بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ) إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ، فإذا لم يفهم عينه جاز ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كره من إنسان شيئاً قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا<sup>(٢)</sup> .

والتصديق بالغيبة غيبة ، بل الساكت شريك المقتاب ، قال صلى الله عليه وسلم : المستمع أحد المغتابين<sup>(٣)</sup> .

ولا يخرج المستمع من إثم الغيبة إلا أن ينكر بلسانه ، أو بقلبه إن خاف ، وإن قدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه إثم الغيبة . وإن

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٤٥

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٤٧

قال بلسانه اسكت وهو مشته لذلك بقلبه فذلك نفاق ، ولا يخرج من الإثم ما لم يكرهه بقلبه (١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أذلّ عنده مؤمن فلم ينصره وهو يقدر على نصره أذله الله يوم القيامة على رءوس الخلائق .

وقال : من ردّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة .

وقال أيضاً : من ذبّ عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يمتقه من النار .

وقد عرض الغزالي أسباباً للغبية تدل على بصره بأخلاق الناس ، وأنا أرجع أسباب الغيبة إلى سبب واحد هو شعور المفتاب بالانحطاط ، فهو يريد أن يحط من أقدار الناس ليصبح من المألوف أن الناس جميعاً منحطون فيتساوى الفاضل بالفضول .

والجهلاء يولعون باغتياب العلماء ليوهموا أنفسهم ويوهموا الجمهور أن العلم مزية صغيرة ، وأن المزايا كلها فيما يدعيه الجاهلون من متانة الأخلاق .

ومن هنا لم تسلم أعراض العلماء من السنة السفهاء ، فكل ذى نعمة محسود ، وما ظفر رجل بمنزلة علمية أو أدبية أو اجتماعية إلا ضاقت به صدور الجهلاء والمهازيل والمتخلفين .

وسينقضى الدهر قبل أن تصح أخلاق الناس فيشق أهل الفضل بأنهم في أمان من تقول المتقولين ، وإرجاف المرجفين ، ومكايد المنحطين .

ومن الصور التي لا تزال حية من عهد الغزالي إلى اليوم صورة الرفاق الذين لا تطيب مجالسهم إلا بأكل لحوم الناس ، وهي ما سماه « موافقة الأقران وبجاملة . الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه بجاملة في الصحبة وقد يغضب رفاقه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر الميوب والمساوي <sup>(١)</sup> » .

وقد أخذت هذه الصورة ألواناً جديدة في العصر الحاضر : العصر الدميم الذي لا يفوز فيه إلا أهل البذاءة والرقاعة والانحطاط ، وصار من تقاليد المجالس أن يكون فيها سفهاء يقدمون الفواكه المحرمة للأذان الشرهة التي لا يغذيها غير سماع الزور والبهتان .

والرجل الذي يصون لسانه عن الخوض في لغو الحديث لا يصلح اليوم للمجالس ، ولا سيما إذا كان أصحاب تلك المجالس من الذين رفهم الدهر المحبول فوصلوا بالدس والسكيد إلى ما يعجز عنه الأحرار والأشراف .

وقد نبه الغزالي على دقائق من الغيبة يقع فيها رجال الدين ، ورجال الدين في أغلب أحوالهم من أهل الغفلة والمعرفة ، ولا سيما في العصور التي يغلب فيها الرياء .

ولنعط الكلمة للغزالي فهو بأحوالهم أبصر وأعرف . قال :  
« وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة ، فهي أغمضها وأدقها ، لأنها

شروع عرضها<sup>(١)</sup> الشيطان في مرض الخيرات ، وفيها خير ، ولكن شاب الشيطان بها الشر : الأول أن تنبت من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين فيقول : ما أعجب ما رأيت من أمر فلان ! فإنه قد يكون صادقاً ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتمجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تمجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ، وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ! الثاني الرحمة وهو أن يتم بسبب ما ينتلي به فيقول : مسكين فلان قد غنى أمره وما ابتلى به ! فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويلهيه النعم عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً ، وكذا تعجبه ، ولكن ساقه إلى شر من حيث لا يدري . والترحم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجبه الشيطان على ذكر اسمه ليطل به ثواب اغتمامه وترحمه . الثالث الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء . فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى كان عذراً في ذكر الاسم ، وهو خطأ<sup>(٢)</sup> .

وما قاله الغزالي عن رجال الدين في القرن الخامس هو من آفاتهم في القرن الرابع عشر . ومن النادر جداً أن تتصل برجل من رجال الدين فيوحى إليك

(١) في الأصل ( عباها ) .

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٤٩

بأدبه ولطفه وروحه معانى الهداية ، وكيف يكون ذلك وهم لا يعرفون غير القعقعة والجمجمة فى خطبهم وأحاديثهم ومقالاتهم ! وقد يتفق لهم أن يؤلفوا الكتب وينشئوا المجلات فى الدعوة إلى الله ، ولكن تنقصهم البشاشة والروحانية فيعجزون عن نقل الناس من الظلمات إلى النور ، وقد ينقلونهم أحياناً من الهدى إلى الضلال .

وربما رجع ذلك إلى أزمة وجدانية وعقلية متصلة بالعصر الحديث ، فشيوخ التعاليم المدنية والأنظمة المدنية أو هم رجال الدين أنهم فى حرب مع الجيل الجديد ، وهم بالفعل فى حرب ، وهذا الروح المشبع بسوء الظن والخوف من الهزيمة يحملهم على الإسراف فى اتهام أبناء الجيل الجديد بالوقوع فى المآثم والخروج على أدب الدين الحنيف .

وبفضل هذا الإسراف صارت طلعة رجل الدين طلعة كريهة لا يلقاها الناس بالترحيب ، لأنه لا ينظر إلا إلى عيوبهم ، ولا يهتم إلا بالكشف عن مساوئهم ، ولا يطول لسانه إلا حين يجد مجالاً للتقريع والتأنيب ، ولو عقل لعرف أن من واجبه أن يدلهم على مبلغ صلاحيتهم للخير والهداية .

وإذا حُرِم رجال الدين نعمة الحب ، حب الناس لهم والتشوف إليهم ، فقد عجزوا عجزاً تاماً عن نصره الدين ، والخير لا ينتظر من الواعظ البغيض الذى لا يحدث الناس إلا بما يكرهون .

ومن المؤلم أن يعجز الأشياخ عما يقدر عليه القسيسون ، فالقسيس لا يزال رجلاً لطيفاً يداخل الناس ويسامرهم ويسامرهم ليعرف أهواءهم ويقتلها برفق . والترغيب على لسان القسيس أكثر من الترهيب . وقد كان

أشياخنا كذلك قبل أن تشيع الأحقاد بين الأحزاب المدنية والدينية ، يوم كان « شيخ الطريقة » يدخل البلد فيملؤها بالبشاشة والروحانية .

وفي مصر اليوم وعاظ يسرون في البلاد هادين ومرشدين ، والأمل كبير في أن يتخلقوا بأخلاق الصوفية فتكون فيهم الوداعة والبشاشة والرفق ليصلوا إلى قلوب الناس ويحييهم في الأعمال الصالحات ، وقد يوفقون إلى السياسة الرشيدة فيتصلون بمن في الأقاليم من معلمين وموظفين ويشوقونهم إلى التأدب بأدب الدين الحنيف ، ويومئذ يصل الواعظ إلى المنزلة التي كان يتمتع بها الشعرائي والرصفي والشناوي في القرن العاشر ، حين كان الصوفية يسيطرون بالأدب الحق على قلوب العوام والخواص .

٢٠ - وقد أفاض الغزالي في علاج الغيبة ، وله في ذلك صحائف بيض نودّ ليرجع إليها القارئ في الجزء الثالث من الإحياء ، فقد تنقله من حال إلى حال ، وهو يوصي بأن يتدبر المرء في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه ، وإذا لم يجد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوث نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب .

وقد تحدث عن مشترك في الغيبة مجاملة لإخوانه فقال . علاج ذلك أن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين ، فكيف رضى لنفسك أن توقر غيرك وتحتقر مولاك فتترك رضا لرضاهم ، إلا أن يكون غضبك لله تعالى ، وذلك لا يوجب أن تذكر الغضوب عليه بسوء ، بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقاءك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم

عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة<sup>(١)</sup> .

وتكلم على من يفتات غيره استهزاء به فقال : وأما الاستهزاء فقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حسرتك وجناتك وخجلك وخزيك يوم القيامة لأدهشك ذلك عن إخزاء صاحبك<sup>(١)</sup> .

٢١ - والصوفية يحرمون الغيبة بالقلب ، وهي سوء الظن .

وهذه غيبة هينة من حيث صلتها بالمجتمع لأنها قليلة الإيذاء ، ولكن ضررها راجع عليك ، لأنها تفسد قلبك ، وتشغل ضميرك ، وتزعزع وجدانك . وتضئع صفاء نفسك . والواجب أن يخلو قلبك خلواً تاماً من كل سوء فلا يكون فيه غير صور الخير والجمال .

٢٢ - وكفارة الغيبة هي الندم والتوبة والتأسف واستقالة من آذيتهم بالاغتياب .

٢٣ - والصوفية ينفضون النميعة ، وهي نقل آراء الناس بعضهم في بعض وهي آفة سيئة المواقب ، ولا يقتربها إلا المحرومون من نعمة الحب ، حب الخير للناس .

وإذا كانت النميعة إلى من يخاف جانبه سميت سعاية .

قال مصعب بن الزبير : نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية ، لأن السعاية دلالة والقبول إجازة ، فاتقوا الساعي فلو كان صادقاً في قوله لكان ثلماً في صدقه حيث لم يحفظ الحزمة ولم يستر العورة<sup>(٢)</sup> .

وقال رجل لعمر بن عبيد : إن الأسوارى ما يزال يذكر في قصصه

بشرًا ، فقال له عمرو : يا هذا ، مارعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حق حين أعلمتني عن أخى ما أكره ، ولكن أعلمه أن الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجممنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين (١) .

ورفع بعض السعاة إلى صاحب بن عباد رقعة نبه فيها على مال يتيم يحمله على أخذه لكثرتة . فوقّع على ظهر الرقعة :

« السعاية قبيحة ، وإن كانت صحيحة ، فإن كنت أجريتها مجرى النصيح تخسرانك فيها أكثر من الربح . ومعاذ الله أن تقبل مهتوكا فى مستور . ولولا أنك فى خفارة شيبك لقابلناك بما يقتضيه فعلك فى مثلك ، فتوقّ يا ملمون الميب . فالله أعلم بالغيب . الميت رحمه الله ، واليتيم جبره الله ، والساعي لمنه الله (٢) » .

وقال بعضهم : لو صح ما نقله النمام إليك ، لكان هو المجترئ بالشتم عليك ، والنقول عنه أولى بحملك لأنه لم يقابلك بشتمتك .

٢٤ — أما بعد فقد عرضنا ألواناً من المملكات ، وأشرنا لإشارات خفيفة إلى طرق الخلاص ، ومنهج البحث لا يوجب أن نطيل فى شرح المملكات والمنجيات ، فما أردنا إلا الوصول إلى غرض واحد : هو بيان الحرص الشديد من جانب الصوفية على تقوية الشخصية الخلقية .

قد يقال : إن الصوفية لم يأتوا بشيء جديد ، فهم يرضون ويفضون على

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٥٩ .

(٢) ارجع إلى شخصية صاحب بن عباد فى الجزء الثانى من كتاب ( النثر الفنى ) .



نحو ما يقع لسائر رجال الأخلاق . ونقول إن ما امتاز به الصوفية هو التحرز الشديد من آفات الأخلاق . والإلحاح الموصول في تعرف أهواء النفوس والقلوب ، وإنا نرجو أن يرجع القارئ إلى الجزء الثالث والرابع من كتاب الإحياء ، فقد شرح الغزالي ضروب المهلكات والمنجيات شرحاً وافياً وفصلها أوسع تفصيل ، وجمع بين المقول والمنقول بأسلوب شائق جذاب ، وما عرف إنسان مؤلفات الغزالي إلا أحس بوجوب الرجوع إلى درس نفسه من جديد .

---

## خاتمة الكتاب

١ - ما أحسبني أحتاج إلى التذكير بالأساس الذي قام عليه هذا الكتاب ،  
قد فصلت القول فيه كل التفصيل ، واعتذرت غير مرة بارتباط بعض أجزاء  
الكتاب ببعض ، ارتباطاً يجعل من المسير في بعض الأحيان أن يكون البحث  
الواحد في الأدب الصّرف أو الخلق البحث ، فلم يبق إلا أن يكون التقسيم مبنياً  
على غلبة الخصائص الأدبية أو الأخلاقية ، وكذلك صنعت في تبويب هذا الكتاب ،  
فجمعت الجزء الأول في الأدب والجزء الثاني في الأخلاق .

وقد امتدّ بنا الشوط في الدراسات والمراجعات ومهمنا بأن نجمل هذا  
الكتاب مرجعاً شاملاً لجميع الآراء الصوفية ، ولكن الوفاء لنهج البحث صرفنا  
عما مهمنا به من الاستطراد والاستقصاء ، فما كانت غابتنا إلا بيان تأثير  
التصوف في الأدب والأخلاق ، وفي مثل هذه الحال لا يطلب منا أن نقف عند  
كل باب وقفة الشارحين والمحققين ، فذلك يُطلب ممن يؤلف كتاباً في شرح  
الأخلاق الصوفية على نحو ما صنع المكيّ في قوت القلوب والغزالي في إحياء  
علوم الدين .

٢ - وقد شهد القارئ في الجزء الأول أننا حرصنا على بيان الخصائص  
الأساسية للأدب الصوفي ، وأسهبنا في الكلام على الأشعار والفقرات التي

حملت معاني التصوف عن طريق التصريح أو التلميح ، واهتممتنا بإظهار ما بين ذلك الأدب وبين المجتمع من صلات ، فاتخذناه وثيقة نعرف بها كيف كانت الروح الفكرية والاجتماعية في البيئات التي عاش فيها أولئك القوم .

ولم يفتننا أن ننصّ على مزالقهم الأدبية والعقلية ونحن نحلل تلك الأشعار والفقرات ، لأننا رأينا أن منهج البحث يوجب أن تكون في هذا الكتاب أحكام أدبية يهتدى بها من يراجع أدب الصوفية .

وقد جرى ذلك كله في حدود القصد والاعتدال فلم نخرج من الإطناب إلى التطويل ، ولم نسرف في عرض الشخصيات الأدبية والفلسفية ، وإنما وقفنا عند الشواهد التي تكفي لبيان المذهب الأدبي أو الفلسفي في ميدان التصوف ، فالحكم المطائية مثلاً لم تكن كل ما عرفه الأدب الصوفي من هذا النوع ، وأشواق ابن الفارض لها نظائر وأمثال ، والحلاج لم يكن أول وآخر من استشهدوا في سبيل القول بوحدة الوجود ، فهناك الشلمغاني الذي أحرقت جثته في بغداد ، فمن شاء أن يمتضي في درس الأنواع والشخصيات فليسر على بركة الله فقد مهدنا له الطريق .

وما أذكر أني ألححت في الشرح والتبيين إلحاحاً كاد يثقل منهج البحث إلا حين تكلمت على نظرية وحدة الوجود ، وحجتي في ذلك أن هذه النظرية ظلت غامضة على اختلاف الأجيال ، ولم يفهمها من الباحثين إلا الأقلون ، والذين فهموها جبنوا عن عرضها عرضاً واضحاً صريحاً ، وأكثر من فهموها كانوا يؤمنون بها إيماناً لا يخلو من جهل وسخف ، فرأيت أن أدرس ما لها وما عليها بحميدة تزييه ، واستطردت فبينت أثرها في المذاهب الصوفية

والشعبية ، وكنت أنطلق القارئ بالقول بأنها رجمة إلى المذاهب الوثنية : فالقول بوحدة الوجود يفرض أن نرى الألوهية في كثير من الأشياء ، وهذا عند التأمل ليس إلا صورة من الرجمة لأساطير اليونان .

وما أرى في ذلك شيئاً من الفضاضة على أقطاب التصوف والتشيع ، فالمذاهب الفلسفية يتسلسل بعضهم عن بعض وتنتقل إلى الناس بطرائق نجملها من طرائق الوجود فيقبلونها بلا وعى ولا احتساب ، لأن الإنسان في الواقع يرزح تحت أعباء ثقال من مواريث الأفكار والمقائد والمذاهب ، وقد شرحت ذلك في المقال الذى نشرته في جريدة البلاغ منذ سنين في الرد على الفيلسوف ليني برول ، وأنا أقرر بصراحة أن ما نظنه خصائص أصيلة لبعض البيانات هو عند التحقيق محصول قديم تضائل أثره حيناً من الزمان ثم رجعت إليه الحيوية والطرافة حين اقتضى ذلك نظام الكون ، والوثنية وإن استبجحها المؤمنون دين صحيح قام على الشعر والخيال والإيمان بوحدة الوجود .

٣ - رجونا القارئ مرات أن يكتفى منا بالإيجاز ، وعساه يفعل فلا يتهمنا بالتقصير . وقد أشرنا مرة إلى ما صنع أبو الحسن الشاذلى حين فسر بعض آيات القرآن على الطريقة الصوفية ، ولو كان المجال اتسع لأشرنا إلى جميع من فسر القرآن على ذلك الأسلوب كما صنع ملا سلطان على وغيره من الذين رأوا أن أكثر آيات القرآن رموز لمان روحية ، وهذا اعتساف بلا جدال ، ولكن النص عليه واجب .

وأشرنا كذلك إلى من وجّه أشتار الفجور وجهه روحية ، ولو اتسع

المجال لتكلمنا على كثير ممن صنعوا هذا الصنيع ، ونوهنا بمن عكسوا القضية فنقلوا الماني الروحية إلى أذواق حسية<sup>(١)</sup> .

#### ٤ - ليت وليت !

ليت الزمان كان أعفانا من الشواغل التي تقصم الظهر فضينا نشرح ما تمثلهنا وتصورناه ثم تحققناه من الثورة التي أحدثها التصوف في عالم الأدب والأخلاق .

لقد وضعنا القاعدة حين ألفنا كتاب ( الأخلاق عند الغزالي ) فتحدثنا قليلا عن أنصار الغزالي وخصومه ، وكان لذلك أثر ظاهر في تصوير مذاهب ذلك الفيلسوف ، ولو أننا عقدنا باباً في هذا الكتاب للكلام على أنصار التصوف وخصوم التصوف لاتضح هذا المذهب الفلسفي أكثر مما اتضح ولكن يعزينا أننا لم نغفل هذه الناحية كل الإغفال فقد بسطنا القول فيما بين رجال الحقيقة ورجال الشريعة من خلاف ، وبيننا ما للتصوف وما عليه بياناً شافياً .

ولكن لا مفر من تنبيه القارئ إلى أن هناك ثروة أدبية وفلسفية أثارها التصوف ، وهي الشاهد على تأثيره في الأدب والأخلاق ، وهذه الثروة تنتظر من يثيرها في كتاب غير هذا الكتاب ، فما كان في مقدورنا أن نتخطى منهج البحث ونحن مقيدون بسلاسل من حديد هي التقاليد الجامعية التي توجب الوقوف عند الأصول وتكره الإفاضة في الحديث عن الفروع ، لأن نظام الرسالة يفاير نظام الكتاب .

---

(١) من هذا الباب ما أولوا به شطحات ابن عربي ( انظر الغيث المنسجم ج ١ ص ١١ ) .

٥ - وكان في النية أن نقصد باباً للفرق بين تصوف أهل السنة وتصوف الشيعة ، ولكننا عند التأمل لم نر موجباً لهذه التفرقة ، فالصوفية لا يعيرون هذا الخلاف كبير التفات . والخلاف بين أهل السنة والشيعة ليس خلافاً دينياً كما يتوهم الأكثرون ، وإنما هو في أغلب صورته خلاف سياسي ، ومن قال بغير ذلك فهو غافل أو جهول ، والصوفية من الشيعة يرون الغزالي من أساتذتهم وهو سني ، والصوفية من أهل السنة يرون الحلاج من أساتذتهم وهو شيعي . وكتب التصوف تسكت عن هذه الفروق المذهبية لأن للتصوف غاية تفوق ذلك .

ولكن كانت هناك محاولة تنفع لو اتسع الوقت ، وهي طرح تأثر المذاهب الصوفية بالبيئات المحلية ، فمن المؤكد عندنا أن الصوفية متصالون بالأرض التي ينشئون فيها أتم اتصال ، ومثلهم في ذلك مثل الفقهاء ، فالفقيه المصري يعاني مشكلات لا يمانها الفقيه العراقي ، وقصة تحليل التبيذ في حياة أبي حنيفة هي الشاهد على ذلك فقد كان الخلاف حول الشراب مما يشغل أهل العراق<sup>(١)</sup> .

والحال كذلك في التصوف :

فالمعضلات التي اهتم بها الشعراي معضلات مصرية ، والأزمات التي عاناها صدر الدين الشيرازي هي أزمات فارسية ، فمعد الشيرازي ألوان من المشكلات الأخلاقية أنشأها البلد الذي عاش فيه ، وآداب المريدين عنده لها لون خاص يدرکه من يتعمق في درس كتاب « الأسفار » ولو اتسع المجال لتحدثنا عن هذا الفيلسوف في فصل خاص ، فله ذوق يشبه

---

(١) ولولا الأدب لقنا إن دفاع أبي حنيفة عن التبيذ له صلة بهيأته المرحية في صباه .

ذوق عمر الحيام في بعض مراميه مع حفظ الفارق بين التصون والمجون .

٦ - ليت ثم ليت ! وهل ينفع شيئاً ليت ؟ .

ليتنا استطعنا أن نتكلم على الصوفية في العصر الحاضر ، فلهم أذواق وأخلاق تستحق التسجيل ، ولكن عاقنا سوء الظن بمحصولهم الأدبي ، فليس فيهم رجل فيلسوف ، وإن أكثر فيهم المتحدلقون !

يضاف إلى ذلك أننا أقمنا هذا الكتاب على أصول يغلب فيها النقد والتجريح .  
والتعرض للأحياء بهذه الحرية قد يؤذيهم أشد الإيذاء .

وما رأيت في صوفية هذا العصر غير رجلين : رجل طيب القلب يرى الصوفية منزهين عن الملام ، ورجل جاهل يرى التصوف باباً من الانحلال .

وقد صنت قلمي عن التعرض لهذا وذاك .

ومع هذا نرى عقل العصر الحاضر يميل أشد الميل لدراسة التصوف ، وهي ظاهرة حسنة تبشر بإقبال الناس على المعاني الروحية ، وإن كان أغلب الباحثين في التصوف لهذا العهد لا ينظرون إليه إلا من الناحية الفلسفية أو الاجتماعية<sup>(١)</sup> .

٧ - ولا بد من النص على أن دراسة التصوف الإسلامي كانت توجب الطواف بما كتب عنه في اللغة الفارسية واللغة التركية ، ففي الفرس والترك صوفية لهم مقام عظيم في الأدب والأخلاق ، ولكن الله أغنانا عن ذلك

---

(١) ربما جاز القول بأن عناية المستشرقين بدراسة التصوف لها تأثير في توجيه الباحثين من الشرقيين لدراسة التصوف بعد أن سكنوا عنه حيناً من الزمان ، وأشهر من اهتموا بدراسة التصوف الإسلامي بين المستشرقين ماسينيون الفرنسي ونيكلسون الإنجليزي .

بعض الإغناء : فقد اعتمدنا على مؤلفات عربية كان مؤلفوها يمثلون القومية الإسلامية ، يوم كانت اللغة العربية هي لغة التأليف في أكثر الأقطار الإسلامية .

وكذلك يجد القارئ روح الصوفية ممثلة في هذا الكتاب أجل تمثيل وإن تباعدت بهم المنازل وانقسموا إلى قبائل وشعوب .

٨ - وقد رأى القارئ أننا في أغلب الأحوال عطفنا على الصوفية أشد العطف ، ولا غضاظة في ذلك ، فقد يتفق للباحث أن يتعقب الصوفية على نحو ما صنعنا في كتاب « الأخلاق عند الغزالي » ولكن تعقب الصوفية والنص على أغلاطهم وهفواتهم لا يصرف النصف عن الاعتراف بأخطارهم العالية بين رجال الأخلاق .

ودراسة مؤلفات الصوفية دراسة عميقة تدلنا على ألوان المعارف الفلسفية والنفسية التي عرفها الأسلاف ، فالصوفية هم علماء النفس عند المسلمين ، وهم الصلة بين القديم والحديث ، القديم الذي عرفه الفرس والروم والهنود والمصريون ، والحديث الذي ابتكره العرب والمسلمون .

والفرق بين باحث مثل أرسططاليس وباحث مثل الغزالي بعيد جداً ، فأرسططاليس يبحث أصول الأخلاق من الناحية النظرية ولا يهتم غير إقناع العقل ، وأما الغزالي فيهتم بإثارة القلب ، ويسوق الشواهد والأمثال بأسلوب خلاب يحرك القلوب ، وهو مع ذلك لا يفغل عن تحليل الأخلاق وتحليلها من الوجهة النظرية ، فقارئ كتاب أرسططاليس يخرج عالماً ، وقارئ كتاب الغزالي يخرج عالماً ومهتدياً .



ولو شئنا لغضضنا النظر عن المفاضلة بين أرسططاليس ، والفزالي وفاضلنا ،  
بين ابن مسكويه والفزالي ، فابن مسكويه معلّم ، والفزالي واعظ ، والفرق بين  
المذهبيين لا يحتاج إلى بيان .

وما نقول به قد تنبه إليه القدماء حين وازنوا بين كتاب المكي وكتاب  
الفزالي ، فقد قالوا : كتاب الأحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك  
النور .

وإنما كان الأمر كذلك لأن المكيّ في قوت القلوب غلبت عليه النزعة  
الروحية ، ولا كذلك الفزالي في الإحياء فقد غلبت عليه النزعة العلمية .

ومن الواضح أن الأخلاق لا يكفي في فهمها قبول العقل ، وإنما يجب أن  
تتغلغل إلى القلب بحيث يُصبح الحسُّ الخلقى جراحة وجدانية .

وعند هذه النقطة يظهر الفرق بين الصوفية وبين رجال الأخلاق ،  
فالفلاسفة يمللون ويحللون في حدود المنطق والعقل ، أما الصوفية فيزيدون  
على ذلك ربط الشخصية الخلقية بالشخصية الدينية : فالوازع عند الفلاسفة هو  
العقل ، والوازع عند الصوفية هو العقل والوجدان ومراعاة الأدب مع الله ذي  
القوة والجبروت والجلال والجمال .

قد يقال : إن في الصوفية ناسا يستهينون بالأخلاق العملية .  
وهذا حق ، ففي الصوفية قوم يحتقرون الظواهر ويحتقرون الأعمال .  
وهؤلاء على ضلالهم الظاهر لهم مكانة أخلاقية ، لأنهم لا يشعرون على الظواهر  
إلا وهم يعلمون أنهم عربات تجرها قاطرة الوجود ، فهم في ضلالهم وهدام  
تابعون أوفياء .

وليس المهم أن تتساق مع المأثور من نظام الأخلاق ، ولكن المهم أن لا تتقدم ولا تتأخر إلا وأنت شاعر بأنك على هدى أو على ضلال .

وزينغ بعض الصوفية زينج جميل لأنهم حولوا الوجود إلى قوة شمعية تموج بالمفاتيح وتزخر بالفرائب والأعاجيب .

وهؤلاء السرفون على أنفسهم قد استطاعوا أن يحفظوا الشخصية الخلقية نقية سليمة ، فهم تصوروا الشرور والآثام مقاصد أرادها علام الغيوب ، ولم يتصوروا أنفسهم نازين على العزة الربانية ، وبذلك بقيت ضمايرهم خالصة من شوائب العناد والمكابرة ، فماش أدبهم الأثيم ينفج بالمطر والطيب على اختلاف الأجيال .

ونخلص من ذلك كله إلى حقيقة واضحة : وهي أن الصوفية في ضلالهم وهدام كانوا قوماً يعرفون جواهر الأخلاق ، فللموام عندهم نظام ، وللخواص نظام ، وقد كرهوا أن نحدث الموام بما نحدث به الخواص ، فالأخلاق تتلون وتتشكل باختلاف الأشخاص ، وهذه نظرة لا تخلو من حصافة وسداد .

وفي الصوفية من ثار على الكتب المقدسة وثار على الأنبياء ، وهذا في رأى رجال الشرع كفرٌ موبق ، ولكنه عظيم جداً من الوجهة الأخلاقية ، لأنه يمنح الشخصية الخلقية قوة ساحقة تجتري جميع الموانع ، وتقف الرجل أمام الله وجهاً لوجه ، كما وقف الأنبياء والمرسلون . وإيس هذا بالقليل .

ولا تظهر قيمة هذه النظرة إلا إذا تدبرنا ما وقع فيه بعض النصارى وبعض المسلمين من الاستعباد للنصوص ، فالخضوع المطلق للنصوص عطل

المواهب في البيئات النصرانية والإسلامية ، وخضوع بعض المتصوفة أمام أشياء لم يكن إلا صورة من خضوع بعض النصارى أمام القسيسين والرهبان . وجراء الأحرار من الصوفية هي فيما أفترض أساس الثورة التي أقامها جمهور من النصارى على الكنيسة الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية ، فالبروتستانت من النصارى هم تلاميذ الصوفية من المسلمين ، لأنهم رفضوا أن يكون بينهم وبين الله وسيط ، كما رفض أحرار الصوفية أن يكون بينهم وبين الله وسيط .

وسيأتي يوم يتضح فيه أن ثورة بعض النصارى على عبادة الصور لم تكن إلا أثرًا لاطلاع بعض القسيسين على المذاهب الصوفية .

إن الصوفي المعتدل يقبل من شيخه كل شيء ، كما يقبل النصراني المعتدل من القسيس كل شيء ، والصوفي المعتدل يقدم كلام شيخه على القرآن والحديث ، كما يقدم النصراني المعتدل كلام الرهبان على كلام الإنجيل ، أما الصوفي الثائر فيرفض جميع النصوص ويتسأى إلى مخاطبة الله والفهم عنه بلا مرشد ولا دليل ، وهنا أقول بصراحة إن هذا أساس متين لبناء الشخصية الخلقية وإن غضب رجال الدين<sup>(١)</sup> .

١٠ — وهنا تعرض شبهة في غاية من الخطورة يصورها هذا السؤال :

(١) في كتاب الورع ص ١١٥ أن وابصة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلا أسأله عنه فجعلت أتخطى الناس فقالوا : إليك يا وابصة عن رسول الله فقلت دعوني أدنو منه فإنه من أحب الناس إلى ، فقال يا وابصة أخبرك بما شئت تسألني أو تسألني ؟ فقلت : أخبرني يا رسول الله . قال : جئت تسألني عن البر والإثم ، قلت : نعم . قال فجمع أصابعه وجعل يشكت بها صدرى ويقول : يا وابصة ، استفت قلبك ، استفت نفسك ، البر ما أطمان إليه القلب ، فاطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس وأفتوك . وهذه دعوة إلى استقلال الشخصية الخلقية

كيف يسلم المجتمع مع هذه الآراء ؟

ونجيب بأن هذه الآراء تمرّض المجتمع لأخطر أنواع الانحلال ، لأنها تفتح الباب للطغيالين والواغليين من أدعياء الأخلاق ، وستمضى دهور ودهور قبل أن تصلح هذه الآراء لأن تكون شريعة يعيش عليها جميع الناس .

إن الخلق الصحيح هو الذى يروضك على أن تعيش سليماً معافى من آفات الشطط والجوح ، وينظّمك فى سلك واحد مع من تسيرهم وتعاشرهم من خلق الله أو خلق الشيطان .

والعقل - أعنى صاحب الشخصية الخلقية - هو الذى يفهم أنه مسئول عن مراعاة منافعه الأدبية والاقتصادية بحيث يضمن الربح ويأمن الخسران .

ومن أجل هذا حرص جمهور الصوفية على رياضة مريدتهم رياضة سليمة تبعدهم عن المزالق ومواطن الشبهات ، كالذى صنع مؤلف القوت ومؤلف الإحياء .

ومن أجل هذا أيضاً قسّم الصوفية مريدتهم إلى عوام ، وخواص ، وخواص الخواص ، ولكل فرقة من هؤلاء الثلاثة آداب .

أليس الصوفية هم الذين قضوا بأن صوم خصوص الخصوص لا يقع فيه الفطر بالطعام والشراب ، وإنما يقع الفطر بارتكاب المآثم ونهش الأعراض .

ولكن هذا الذوق الرقيق لا ينفع ما دام فى الدنيا ناس لهم أذواق غلاظ ، والذوق الغليظ هو الغالب على بنى آدم فى كل زمان وفى كل مكان .

٧ - أما بعد - وقد تعبنا من أما بعد - فإن موقفنا من هذه الآراء موقف المؤرخ للنظريات الفلسفية ، ونحن نعرضها بقوة وعنف كأننا من أهلها ، وليس الأمر كذلك ، وإنما هي عدوى وصلتنا من أستاذنا الفزالي طيب الله ثراه ، فقد كان يسهب في شرح المردود من الآراء حتى أنهم بأنه من أنصار تلك الآراء ، فإن بدا لبعض الناس أن يهتمونا بتزيين مالا يقبله رجال الدين فليذكروا أننا لا نفكر في متابعة أحد من رجال الدين ، وإنما نجمل النظرية الفلسفية أساس هذه البحوث .

وما دامت المقادير شاءت أن يكون هذا الكتاب من محصول الجامعة المصرية فليكن صورة صحيحة من صور التفكير في الجامعة المصرية ، والتفكير في الجامعة المصرية يقوم على أساس متين : هو الصراحة التامة في عرض النظريات والأفكار والآراء .

ورحمة الله وسعت كل شيء ، فلن تضيق عن باحث يدرس أوهام القلوب ، وشهوات العقول .

« ربنا لا ترغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » .

زكى مبارك

## قوافي الجزء الأول

### حرف الهمزة

صفحة	
١٥٠	ولكن كساء الله ثوب غطاء
١٥١	وللنقص تنمو كل ذات نماء
٢١٤	ياسماء ما طاولتها سماء
٢٩١	سجّراً فأحيا ميت الأحياء

### حرف الباء

١٩	بذكر الك والمشي إليك قريبُ
٢٠	علىّ بظهر الغيب منك رقيب
٢٢	فأكرم أسباب الردى سبب الحب
٥٤	بحيث شاد البيعة الراهبُ
٩٢	خلوت ولكن قل علىّ رقيبُ
٩٨	وغصونه الخضر الرطاب
٩٩	فكلّكم يصير إلى تباب
١٠٠	فما كل موثوق به ناصح الجيب
١٠١	إن هي صحت أذى ولا نصبُ
١٠١	حب الحياة وغره نشبه

---

(١) اكتفينا بقوافي الجزء الأول لأنه خاص بالأدب الصوفي ، والأشعار فيه كثيرة . أما الجزء الثاني فأكثره دراسات أخلاقية والأشعار فيه قليلة لا تحتاج إلى فهرس .

صفحة	
١٠٦	روائح الجنة في الشباب
٢٠٤	كتبت إلى روعي بغير كتاب
٢١٥	سر سنا لاهوته الثاقب
٢٣٧	لهم صار مكشوفاً منحى حجابيه
٢٤٣	وقلبي بنار من قلاها مقلب
٢٥١	لا شيء كيف يساوى الشيء وأعجبي
٢٥٢	وهذا كل مطلوبي
٢٦٨	وإن رمت قرباً من حبيبي تقرباً
٢٢٩	يا عزيزاً أمسى ذليلاً كثيراً

#### حرف التاء

٧٩	مضلاً لأرباب العقول السخيفة
١٠٧	ما أكثر القوت لمن يموتُ
١٧٩	وذاتي بذاتي إذ تجلت تحلت
٢١٥	فلا بلغت ما أملت وتمنت
٢٣٧	وود حصان المدح لو كان مفلوتا
٣٠٨	ولا بالولا نفس صفا العيش ودت

#### حرف التاء

١٠٩	واعلم بأن الطالبين حثا
-----	------------------------

#### حرف الجيم

١٠٢	عادت مخيلته عجاجا
٣٠٢	في كل معنى لطيف رائق بهج
٣٠٩	أنا القليل بلا إثم ولا حرج

صفحة

### حرف الدال

١٠٤	أيها القلب الجوّحُ
٢٣٩	لقاء شيوخ للمريد لقاح
٢٣٩	سوى من لدى الأهوال بالنفس يسمع
٢٤٠	قصود وفرش بالطراز توشح
٢٥٢	والدمع طوفان هل منه نجا نوحى
٢٧٨	وكلهم باليم الشوق قد باحا
٣٠٩	طمع فينعم باله استرواحا

### حرف الحاء

٨٣	لكنت اليوم أشعر من لبید
٩١	فانظر بما ينقضى مجيء غده
٩١	لم تمس محتاجاً إلى أحد
١٧٠	تدل على أنه واحدٌ
١٧٤	كالذى نعلم أو نعتقد
١٧٧	فآه من طول شوق آه من كدى
١٨٩	ويعبدنى وأعبدهُ
٢٣٢	مع رأنح إن أتى وغادى
٢٣٨	بهم فى الهوى سكرٌ إلى حشرهم غداً
٢٤٤	كجسم وبل أولى جوازاً مؤكداً
٥١٩	بين أبدي حواسد وأعادى
٢٥١	ولا تقل الحق أحمد
٢٥١	تفن عن كل كائن موجود



صفحة

٣٦٤

عن علة والحظ عن بسط بدا

٣٩٧

تنفس شاك أو تألم ذو وجد

٣٢٣

معنبرة خضراء مثل الزبرجد

٣٢٧

أبخل ذاك منها أم صدود

### حرف الراء

٨٠

ولا أراه آخذاً

٢٩٣

وهواك قلبي صار منه جزاذا

### حرف الذال

٢٤

بهيبته أبوابه ومقاصره

٥٤

من تعمم بالقتير

٧٨

لله ما تصنع الخجور

٨٢

فإن أنت لم تفعل فأبلغ أبا بكر

٨٤

يمج الندى جثجاها وعراها

٨٥

مطهرة الأثواب والعرض وافر

٨٥

جناح غراب عنه قد نفص القطرا

٨٩

ليجزيه عن صبره الغد قادر

٩٠

وأفضت بنات السر منى إلى الجهر

٩٢

وبني الضعف والخور

٩٦

موجودة خير من الصبر

١٠١

إلى حاجة حتى تكون له أخرى

٢١٦

فلم أر لى بأرض مستقراً

٢٠٢

وشاهدوه بأسماع وأبصار

صفحة

٢٠٢

تكاد تأكله عيناي بالنظر

٢٣٠

يعلمهم أنه البشيرُ

٢٣٤

عسى خبر يلقا كما طيب النشر

٢٣٥

وكل جال في الوجود بها يفرى

٢٣٩

يخاطر بالروح الخطير فيظفرُ

٢٤٠

فقلت لها شيء لبيض الملا مهرُ

٢٤١

وحيدٌ لأصحاب القبور مجاورُ

٢٥٥

وبعضهم بوصف زهد فسرا

٢٥٦

بوصله المولى وفضله اشهر

٢٧٨

من فاته الخبر سره الخبرُ

٢٨٣

وياك إياك تبدى استتاراً

٢٩٧

بمدى ومن أضحى لأشجاني يرى

٢٩٩

فوق فرش السقام شيئاً يراه

٣٠١

كنت المسيء فأنت أعدل جائر

٣١٥

فأين المعظم والمحتقر

٣١٥

وبادوا جميعاً وباد الخبر

٣٢٣

ودعوات ابن أبي محذورة

٣٢٤

بعذراء زفت في ملاحفها الخضر

٣٢٧

وكفى بذلك نعمة وشروراً

٣٣٤

فواصل شرب ليلك بالنهار

٣٣٤

لما انتظرت لشرب الراح إفطاراً

صفحة

### حرف السين

٢٠	لمرّ يهوى سريعاً نحوكم راسي
٥٧	ويا عارياً من كل فضل ومن كيس
٧٨	وعليه منها لا عليها يوسى
٨٣	إن تصدق الطير نذ . . . ليسا
٩٥	دمية قس فتنت قسها
٢٥٠	أسسونا على أتم أساس
٢٨٥	وأبحت جسمي من أراد جلوسى
٣٢٤	لا ألتقيه قط غير معبس

### حرف الطاء

٢٦٩	في جميع الشؤون قبضاً وبسطاً
٢٧٠	لم توافي رهطاً وتهجر رهطاً

### حرف العين

١٠٠	فن احتاج إلى الناس خرع
٢٤٣	إذا عودت في كل شيء تطاوعُ
٢٤٧	قوموا اتركوا الفرق عنكم واقبلوا للجمع
٢٤٧	وتتبع يا جماعة ما أتى في الشرع
٢٤٩	ورعى ودادى يا رعى الله من رعى
٢٤٩	على الحق زكاتها صفات بوارع
٢٦٢	وأنت بها الماء الذى هو نابع

منحة

٣٢٨

٣٤٣

أشقى وغيرى بك يستمتع  
وعليه من نسج المسيح مرقع

### حرف الفاء

٥٤

٦٣

٦٤

٨١

٢١٦

٢٣٨

٢٤٢

٢٩٩

٣٠٥

فكأنما لبس الزمان الصوفا  
فيه وظنوه مشتقا من الصوف  
حتى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا  
تميل بمقل ذى اللب العفيف  
إلى شيء من الحيف  
لهم بيض رايات العلا فى المواقف  
فقس رخما بالباز عند التناصف  
ثوب السقام به ووجدى المتلف  
روحى فداك عرفت أم لم تعرف

### حرف القاف

٩١

٩٦

١٠٠

٢١٤

٢٤٨

١٥٧

٣٢٣

٣١٦

وذو نسب فى الهالكين عريق  
أحب الغداة عتبة حقا  
وأقربها من كل خير صدوقها  
يجبل العنبر بالمسك الفتق  
استقى من خمره الباقى  
فى لفظة التصوف الشقاق  
يروى عظامى بمد موتى عروقها  
بأبى من مت منه فرقا

### حرف الكاف

صفحة	
٢١	وإذراء عيني دمعها في زيا لك
٩٤	تملكه المال الذي هو مال كـ
١٧٢	أى قلب ملكوا
٢٣١	قال لى أنت مال كـ
٢٨٣	ممن سواك ملأته بهوا كـ
٢٨٥	وحياً لأنك أهل لذا كـ
٢٩٧	أنا وحدى بكل من فى حما كـ
٣٠١	وحنو وجدته فى جفا كـ
٣٣٣	طمعت فى أن ترا كـ

### حرف اللام

١٩	لو أبصره الواشى لقرت بلا بله
٥٤	ونحن فى صخرة نزلها
٦٨	لكنك أظننى منى خيالاً
٧٨	كما علمت بعدد وليس له قبل
٨٣	عرقوبها مثل شهر الصوم فى الطول
٨٤	تجوب بظلفها متون الجمائل
٩٠	وقد قصرت فى عملى
٩٩	مالا بن آدم إن قتشت معقول
١٠٠	وكلنا عنه بالذات مشغول
١٠٢	نمن ترى إلا قليلاً
١٠٣	عوضاً ولو نال الغنى بسؤال

صفحة	
١٠٣	وأنت الدهر لا ترضى بحال
١٠٨	ومحدث بمدى للتخليل خليل
٢١١	ولا زمان ولا خلق ولا جيل
٢١٤	تمزج الخمر بالماء الزلال
٢٢٨	قد أطلوا البكا إذا الليل طالا
٢٣٢	فأصخ لقولى فهو أقوم قبلا
٢٣٦	إلى الصبر عنها والسلو سبيل
٢٥٩	بل فى شهود المارفين باطل
٢٨٨	وحرمه الصبر الجليل
٢٩٦	فلا أسمعته سعدى ولا أجلت مجل
٢٩٧	فأهل الهوى جندى وحكى على الكل
٢٩٨	وكيف ترى المواد من لا له ظل
٣٠٣	تمخاوا وما بينى وبين الهوى خلوا
٣١٧	ورجال وصلوه
٣٣٠	كان منى لك يئذل

### حرف الميم

٢٥	بهم نسق إذا انقطع المنام
٢٧	خطب وجدناك فيه تشبه العدم
٥١	فإنكما أهل لذاك كلا كما
٦٢	فأعجب لما تأتى به الأيام
٧٨	صار اليقين من الميان توها
٨٧	وخاتته قربك الأيام

٨٩	ضامتك والأيام ليس تضام
٩٦	تكون مع الأقدار حتما من الحتم
١٠٥	وما زال المسيء هو الظلوم
١٤١	وياضيمة الأعمال سوق السوائم
٢٧٤	فإنما اتصلت من نوره بهم
٢٧٦	هذا المقام وهذا الركن والحرم
٢٩٥	تصحيفه أخرى بأرض المعجم
٢٩٨	فيفدو بها معنى نحول نظاى
٣٠٠	فإن أحاديث الحبيب مداى
٣٠١	حبا لك كرك فليلمنى اللوم
٣٠٥	وأطرب فى المحراب وهى إمامى
٣٠٥	يلقنا الشوق من فرع إلى قدم
٣٠٦	أقامت به الأفراح وارتحل المم

### حرف النون

٧٨	بما شربت مشروبة الروح من ذهوى
٧٩	ولا زال عندك الإحسان
٨٠	كم ذا أراه ولا يرانى
٩٠	وعود فى يدى غان مغنى
١٠٣	من منطلق فى غير حينه
١٧٠	تدل على أنه عينه
١٧٤	عللانى بذكرها غللانى
١٧٨	ولا تصدقنا ولا صلينا

صفحة	
١٨٧	لقل لى أنت ممن بعبد الوثنا
١٩٥	لما كان الذى كانا
٢٢٧	بمن تهتفين ومن تندبنا
٢٢٧	وأصبر عنه كيف ذاك يكون
٢٢٧	إن بين الضلوع داءاً دفينا
٢٣٦	له طيب رباها مثيراً لأشجانى
٢٤٠	لنا الملك فى الدارين والعز والغنى
٢٤٧	بين الحياة وبين الموت خيرنا
٢٧١	هو الجوهر القالى عن البحر خبرنا
٢٧٧	ترققن لا تضعفن بالشوق أشجانى
٣١٥	دارك بعفوك أرواح المحبينا
٣١٦	على فتن بأفنان الشجون
٣٢٦	فى أكؤس من الجين
٣٣٢	ولا رقت للفوادى فىك أجفانُ

#### حرف الهاء

٩١	ولا عذر فى المقام لساء
٣٠٠	سائلاما وصلوه

#### حرف الياء

٢٩٤	صاده لحظ مهاة أو ظلىّ
-----	-----------------------



## كشاف

### حرف الالف

- أبان بن عثمان ج ٢ ص ١٨٩  
ابراهيم الخليل ج ١ ص ١٩٠ ج ٢ ص ٧ ، ١١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٩ ،  
٤٥ ، ١٣١  
ابراهيم الدسوقي ج ١ ص ٢٧١  
ابراهيم بن سعد ج ٢ ص ٢٦٦  
ابراهيم بن ميرة ج ٢ ص ٣٤٢  
الأثرم ج ١ ص ٥٠  
ابن الأثير ج ٢ ص ٥٣  
إبليس ج ٢ ص ٢٢  
أحمد (عليه السلام) ج ٢ ص ٢٨  
أحمد الصافي النجفي ج ١ ص ٣٨٨  
أحمد بن سعيد ج ٢ ص ٣١٩  
أحمد بن محمد الحلبي ج ١ ص ٣٢٤  
أحمد بن يوسف المصري ج ١ ص ٣٧٧  
ابن الأحنف ج ١ ص ٢١ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠  
ادريس (عليه السلام) ج ١ ص ٢٧٦  
آدم (عليه السلام) ج ١ ص ٩١ ، ١١٢ ، ٢٠٤ ، ٢٣١ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩  
ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥  
آدم بن عبد العزيز ج ١ ص ٨٨  
ابن أدهم (ابراهيم) ج ١ ص ٣٠ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ١٤٣ ، ج ٢ ص ١٨٦ ،  
١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٨

- ادوار روس (المستر) ج ۲ ص ۲۵  
ادونيس بن أفروديت ج ۱ ص ۳۸۴  
أرسلان ج ۱ ص ۱۳۹  
ابن الأزرق ج ۱ ص ۱۹۱  
ابن اسباط (محمد) ج ۲ ص ۲۴۲  
ابن اسباط (يوسف) ج ۲ ص ۳۴۶  
ابن اسحاق (محمد) ج ۲ ص ۶۳  
اسحاق ابن المفضل الهاشمي ج ۲ ص ۱۱۱  
الاسلامبولي ج ۱ ص ۶۴  
أسلم ج ۲ ص ۲۲۶  
الاسنوي ج ۱ ص ۱۹۳  
الاسواري ج ۲ ص ۳۶۱  
الأسود بن طالوت ج ۲ ص ۲۴۲  
الاشييلي ج ۲ ص ۲۲۹  
ابن أشرس (ثمارة) ج ۱ ص ۹۴  
أشعب ج ۱ ص ۸۵  
الاصبھاني (هاتفی) ج ۱ ص ۲۱۲  
الاصفھاني ج ۱ ص ۵۳ ، ۷۶ ج ۲ ص ۱۸۷  
الاصمعي ج ۱ ص ۳۱۵ ، ۳۲۷  
الاصمعي ج ۱ ص ۳۱۵ ، ۳۲۷  
الاعشي ج ۱ ص ۵۱  
أفضل الدين الشعراوي ج ۲ ص ۲۸۰  
أفلاطون ج ۲ ص ۳۰۸ ، ۳۰۹  
ابن آكثم ج ۱ ص ۵۷  
الالوسي ج ۱ ص ۵۲ ، ۲۲۹

- الآمدى ج ١ ص ٨٧  
الأمين (محمد) ج ١ ص ٨٩ ، ٩٨  
أم كلثوم ج ٢ ص ٣٥٢  
أنس بن مالك ج ٢ ص ٣٥٤  
الانطاكى ج ٢ ص ٣٣٢  
أنطون الجميل ج ١ ص ٣٤٨  
الأوزاعى ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٩٥  
أيوب (عليه السلام) ج ١ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ - ج ٢ ص ٣ ، ٧ ، ٤٠

#### حرف الباء

- البخترى ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ١٠٦ ، ٢٩٩  
البخارى ج ١ ص ١٩١  
بختنصر ج ١ ص ١٩٠  
البدوى (السيد أحمد) ج ١ ص ٣٨٧  
بديع الزمان ج ٢ ص ١٤١  
البراء بن عازب ج ٢ ص ٢٥١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٣  
ابن برمك (يحيى بن خالد) ج ١ ص ٥٤  
البستى ج ١ ص ٦٣  
البسطامى (أبو يزيد) ج ١ ص ١٩١  
بشار ج ١ ص ٩٩  
ابن بشار (أبو الحسن) ج ١ ص ٦٠  
بشر بن الحارث الخافى ج ١ ص ١١٩ - ج ٢ ص ٩٦ ، ١٩٦ ، ٢١٠  
بشر بن عبد الله ج ٢ ص ٣٤٠  
ابن بشير ج ٢ ص ١١٩  
البصرى (وانظر الحسن البصرى فيما بعد) ج ٢ ص ٣ ، ١٢٤ ، ١٨٩ ،  
٢٩٩ ، ٢٥٢ ، ٢٥١ ، ٢١٥ ، ١٩٥

- البغدادى ج ١ ص ٥١ ، ٢١٣ . ج ٢ ص ٦٢  
البغدادية ج ١ ص ٣٥٥  
بقراط ج ١ ص ٣٢٥  
أبو بكر (رضى الله عنه) ج ٢ ص ٩  
أبو بكر الكسائي ج ٢ ص ٩٣  
البكرى ج ١ ص ٢٠٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢  
بلاسيوس ج ١ ص ٢١٥  
البلخى ج ١ ص ١٩٢  
البلقيني ج ١ ص ١٨٨  
بنان الجمال ج ٢ ص ١٠٢  
البناني (ثابت) ج ٢ ص ١١  
البهاء زهير ج ٢ ص ٢٣٢  
بهاء الدين العاملى ج ١ ص ٦٠ ، ١٧٩  
البوصيرى ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٧٤ ، ٣٨٦ . ج ٢ ص ١٩١  
البويطى ج ١ ص ٥١ ، ١٩١ ، ٣٧٧  
بياتريس ج ١ ص ٢١٦  
البيرونى ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥

### حرف التاء

- التبريزى (جمال الدين) ج ١ ص ٨١  
التبريزى (الحسين بن أحمد) ج ١ ص ٣٠٨  
التستري ج ١ ص ١٤٥ ، ١٩٢ . ج ٢ ص ١٨٧  
ابن التعاويذى ج ١ ص ٣٣٢  
التفتازانى (محمد الغنيمى) ج ٢ ص ٢٩٧  
البقى السبكى ج ١ ص ١٣٤  
أبو تمام ج ١ ص ٥٤

تميم بن مر ج ١ ص ٥٠  
التوحيدى ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ . ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ،  
٧٦ ، ٧٧

### حرف التاء

الثعالبي ج ١ ص ٥٧ ، ٧٦ ، ٧٧  
ثعلب ج ١ ص ٢٢ ، ٥٥ ، ٩٢  
الثقفى (أبو على) ج ٢ ص ٢٣٩  
الثورى (وانظر أيضا سفیان) ج ١ ص ٥٨ ، ٦١ ، ١١٩ . ج ٢ ص  
٥٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٥

### حرف الجيم

ابن جابر ج ٢ ص ٢٢٩  
الجاحظ ج ١ ص ٥٥ ، ٦١ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩٣ ، ١٠٦ ، ٣٢٨ ، ٣٧٧  
ج ٢ ص ٧٠ ، ٧٧ ، ٢٠٨ ، ٢٦٥  
جالوت ج ١ ص ١٩٠  
جالينوس ج ١ ص ٣٢٥  
جبريل (عليه السلام) ج ١ ص ١٠٥ ، ١١٦ ، ٢٧٥ . ج ٢ ص ١٢٠  
ابن جبير (سعيد) ج ٢ ص ٥٦  
الجرجاني (صاحب التعريفات) ج ١ ص ٧٢ ، ٧٥ ، ٨٧ . ج ٢ ص ١٤٢  
ابن جريج ج ٢ ص ٢٥١  
جرير بن عبد الله ج ٢ ص ٢٥٠  
جميل (صاحب بشينة) ج ١ ص ١٩  
الحارث بن همام ج ٢ ص ٣٣٠  
الجنيد ج ١ ص ٥٦ ، ٧٨ ، ١٩٢ ، ٢٨٤ . ج ٢ ص ٣٤ ، ٩٣ ، ٩٥  
أبو جهل ج ١ ص ١٩٠  
ابن الجهم ج ٢ ص ٢٩٦

ابن الجوزى ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨١ ، ٣٣٤ . ج ٢  
ص ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧  
الجيلانى (عبد الكريم الجيلى) ج ١ ص ١٨٣ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .  
٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٦٢ ، ٣٩٥ . ج ٢ ص ٣١

### حرف الحاء

ابن حارثة (الأوس) ج ٢ ص ٨٧  
أبو حازم ج ١ ص ٦٧ . ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٢٤ ، ١٩٨ ، ١٣٩ .  
٢٢٩ ، ٢٣٠  
الحاكم (الفاطمي) ج ١ ص ٥٦  
حام ج ١ ص ١٩٠  
الحامولى (عبد) ج ٢ ص ٢٧٠  
حبيب الطالبانى ج ١ ص ٢٩٦  
ابن أبى حجلة ج ٢ ص ٢٣١  
ابن أبى الحديد ج ١ ص ٩٢ . ج ٢ ص ٧٤ ، ٨٧  
حذيفة بن اليمان ج ٢ ص ١٠ ، ١٢  
الحيرى ج ١ ص ٣٨٦ . ج ٢ ص ١٤  
حرملة بن كاهلة ج ٢ ص ٦٥  
ابن حزم ج ١ ص ١٨٣ . ج ٢ ص ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٣٤٥  
الحسن البصرى ج ١ ص ٣٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ١٢٣ ، ٣٩٣ .  
ج ٢ ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ١٣٨ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ .  
٣٥٤ ، ٣٤٨

حسن توفيق العدل ج ١ ص ١٥٤  
حسن الحويحى ج ١ ص ٣٠٩ . ج ٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩  
حسن رضوان ج ١ ص ٤٤ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،  
٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٣٥٦

- أبو الحسن الشاذلي ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩  
الحسن بن علي ج ١ ص ٢٧٢  
الحسين بن أحمد ج ٢ ص ١٨٩  
الحسين بن علي ج ١ ص ٣٨٤ ، ٣٠٩  
أبو الحسن النوري ج ٢ ص ١٤٦  
حسين الجعفي ج ١ ص ٣٩٣  
الحصري (أبو اسحاق صاحب زهر الآداب) ج ٢ ص ١٣ ، ٢٤١  
حكيم بن مرة ج ٢ ص ٢١٤  
الحلاج ج ١ ص ٤٦ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ،  
٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٣٦٦ ،  
٣٩٤  
ابن حمدان (سيف الدولة) ج ١ ص ٥٤  
أبو حمزة الصوفي ج ٢ ص ٣ ، ١٤ ، ٢٣٧  
ابن حنبل (الامام أحمد) ج ١ ص ٩٢ ، ١٩١ : ج ٢ ص ١٧ ، ٢١٠ ،  
٣٩٣  
حنظلة ابن أبي غفراء ج ١ ص ٥١  
أبو حنيفة (الامام) ج ١ ص ٥١ . ج ٢ ص ٢٦٦ ، ٣٦٨  
حواء (زوج آدم) ج ١ ص ١١٢  
أبو حيان ج ١ ص ٥٧  
حيدر ج ١ ص ٣٢٢ ، ٣٢٣  
ابن حيوس ج ٢ ص ٢٧١  
ابن حيوة (رجاء) ج ٢ ص ١٠٥

#### حرف الخاء

- خالد (الشيخ خالد الأزهرى) ج ٢ ص ٢٧٧  
خالد بن الوليد ج ٢ ص ٢٧٧

الخرائطي ج ٢ ص ٢٥١  
الخرّاز ج ١ ص ١٩٢ . ج ٢ ص ٩٦ ، ١٥٩ ، ٢٢٥  
ابن خلدون ج ٢ ص ١٥ ، ٣٣ ، ٣٥  
ابن خلّكان ج ١ ص ٣٣١  
خمارويه ج ٢ ص ١٠٢  
الخوارزمي ج ١ ص ٢٧٧ . ج ٢ ص ٦٩  
الخواص ج ١ ص ٣٤٤ . ج ٢ ص ٢٧٦ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ؛  
٢٩٣ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨  
ابن الحياط ج ١ ص ١٨٩  
ابن خيثم ج ١ ص ١٢٣  
خيصة ج ٢ ص ٢٢٥

### حرف الدال

الداراني ج ١ ص ٦١ ، ٣٢٠ . ج ٢ ص ١٣٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤  
داتى الشاعر ج ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٦  
داود (عليه السلام) ج ١ ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ؛  
١١٧ ، ١٩٠ ، ٢٨٢ . ج ٢ ص ٤٥ ، ٢٥١ ، ٢٦٤  
ابن داود ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠  
داود (الباشا) ج ٢ ص ٣٠٢  
داود الطائي ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩  
الدجوى (الشيخ يوسف) ج ٢ ص ٢٨٤  
أبو الدرداء ج ١ ص ٦٦ ، ١٩٠ . ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧  
الدريني ج ٢ ص ٩١  
دعل ج ١ ص ٣١ ، ٥٦ ، ٣٠١ . ج ٢ ص ٣٤٥  
الدقاق ج ٢ ص ١٥٨  
ابن دقيق العيد ج ٢ ص ٨١



ابن الدمينه ج ١ ص ٢٠

دوزى ج ١ ص ٥٧

ابن دينار ج ٢ ص ١١ ، ٥٦ ، ١٣٩ ، ٢٠٦

### حرف النال

الذبياني ج ٢ ص ١٩٢

أبو ذر ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢٢٠

الذهبي ج ١ ص ٢٧٥

### حرف الرائ

رابعة العدوية ج ١ ص ٢٨٥ . ج ٢ ص ١٢٨ ، ١٦١

الراهب (شخصية معنوية) ج ١ ص ٩٢

الربيع (حاجب المنصور) ج ٢ ص ١١١ ، ١٣٠

الربيع بن خيثم ج ٢ ص ٣٣٢

الربيع بن سليمان ج ١ ص ١٩١

الرشيد ج ١ ص ٢٥ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ٩٧ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ . ج ٢

ص ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٨

ابن رشيق ج ١ ص ٨٤

الرضا (على بن موسى) ج ٢ ص ٣٤

الرضى (وانظر الشريف أيضا) ج ١ ص ٣٩٤

الروزبارى (أبو على) ج ١ ص ٥٦ ، ٣٣٠

روسو (جان چاك) ج ٢ ص ٤

ابن رويم (عروة) ج ٢ ص ١٢٠

أبو الريحان البيرونى ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥

رينان ج ١ ص ٢١٠ ، ٢٧٥

### حرف الزاى

ابن زائدة (معن) ج ١ ص ١٦١

- الزبيدي ج ۱ ص ۵۷  
ابن الزبير ج ۱ ص ۵۰ . ج ۲ ص ۳۳۵  
أبو الحسن النووي ج ۲ ص ۱۴۶  
الزبير بن بکال ج ۱ ص ۵۰  
الزركلي (خير الدين) ج ۲ ص ۶۳  
زكريا (عليه السلام) ج ۱ ص ۱۸۶ . ج ۲ ص ۴۰  
الزمخشري ج ۱ ص ۱۶۸ ، ۵۰  
الزنجاني (أبو عبد الله) ج ۲ ص ۲۲۹  
الزهري ج ۱ ص ۲۲  
زهير ج ۲ ص ۱۴۱ ، ۲۳۲  
ابن الزيات ج ۲ ص ۲۷۹  
ابن زياد ج ۱ ص ۲۸  
زيد بن ثابت ج ۲ ص ۱۸۸  
ابن زيدون ج ۱ ص ۲۹۰  
زين العابدين ج ۲ ص ۶۳ ، ۶۵ ، ۶۶ ، ۶۷ ، ۶۸  
زين الدين بن علي ج ۱ ص ۲۲۹  
زينب (السيدة) ج ۱ ص ۲۲۰

#### حرف السين

- ابن السائب الكلبي ج ۱ ص ۵۰  
ابن سالم ج ۲ ص ۱۴۸  
سالم بن عبد الله ج ۱ ص ۸۵ . ج ۲ ص ۱۰۵  
السبكي ج ۱ ص ۱۹۳  
سينوزا ج ۱ ص ۱۸۱  
السجستاني ج ۱ ص ۲۲  
السرخسي ج ۲ ص ۹۸  
أبو سعد ج ۱ ص ۵۶

- سعد بن أبي وقاص ج ١ ص ١٩١  
سعدون المجنون ج ٢ ص ٥٨  
ابن سعيد الأنصاري (يحيى) ج ٢ ص ١٢٢  
ابن سعيد الحافظ ج ١ ص ٤٩  
سعيد بن صدقة بن المهمل ج ١ ص ٣٩١  
سعيد بن سليمان ج ٢ ص ١٠٧  
سعيد بن المسيب ج ٢ ص ١٨٩ ، ٣١٩  
سفيان الثوري ج ١ ص ٣٧ ، ٣٩١ . ج ٢ ص ٥٦ ، ٢٩٢  
سفيان بن محمد ج ٢ ص ٢٥٧  
سلافة بنت يزدد ج ٢ ص ٦٣  
السقطي (السري) ج ١ ص ١١٩ . ج ٢ ص ٢٧١  
سلامة حجازي ج ٢ ص ٢٧٠  
سلامة المغنية ج ١ ص ٦٢  
سلطان على ج ٢ ص ٣٦٦  
ابن سلمة ج ١ ص ٨٤  
أبو سلمة عبد الرحمن ج ٢ ص ١٩٨  
أم سلمة ج ٢ ص ١٠  
سليمان (عليه السلام) ج ١ ص ١١٣ ، ١٩٠  
سليمان الأعمى ج ١ ص ٢٥  
سليمان بن عبد الملك ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٢٤  
السنجاري ج ١ ص ٧٩  
السموئل ج ٢ ص ١٦٣  
ابن السماك ج ١ ص ٣٧ ، ٣٩ ، ١٢٤ . ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩  
٣٥٠ ، ١٢٤  
ابن سمعون ج ١ ص ٥٦  
سننون المحب ج ١ ص ١٩١ . ج ٢ ص ٢٣٠

سنجر بن ملك شاه ج ١ ص ٣٨٥  
السنجي ج ٢ ص ١١  
سهل ج ٢ ص ١٤٧ ، ١٦٦  
سهل بن عبد الملك ج ٢ ص ٢٢٥  
سهيل بن عبد الله ج ٢ ص ١٦٤  
السهيلي ج ٢ ص ٧٨  
السهوردي ج ٢ ص ١٥  
سيار بن الحكم ج ٢ ص ١٣٦  
ابن سيار القاضي ج ١ ص ٢٢  
السيد بكري ج ١ ص ٢٢٩  
سيد درويش ج ٢ ص ٢٧٠  
سيد دعاس مبارك ج ١ ص ٢٨٠  
ابن سيرين ج ١ ص ٦١ ، ٨٣ . ج ٢ ص ٩٢ ، ١٢٤  
السيوطي ج ٢ ص ١٩٥

### حرف الشين

الشاذلي ج ١ ص ١٤٩ - ١٩٣ . ج ٢ ص ٨٣ ، ٣٠٥  
الشافعي ج ١ ص ٨٣ ، ١٩١ . ج ٢ ص ٢٠ ، ١٨٩ ، ٢٦٦  
الشبلي ج ١ ص ٧٨ ، ١٢٤ ، ١٩٢ ، ٢٣١ . ج ٢ ص ٤٨ ، ١٥٦  
ابن شبة ج ١ ص ٥٠  
ابن شداد (عبد الله) ج ١ ص ٥٥  
ابن شداد (عنترة) ج ١ ص ٥٨  
شرف الدين بن الموقع ج ١ ص ٣٤٧  
الشريف الرضي ج ١ ص ٥٤ ، ٨٨ ، ١٠٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ، ٣٥٦ .  
٣٩٤

الشعبي ج ١ ص ٣٨ . ج ٢ ص ١٨٩ ، ١٠٦ ، ١٢٤ ، ٢٣٠  
الشمراني ج ١ ص ٤٧ ، ٤٨ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٩ .

١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٧١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ .  
ج ٢ ص ٢١١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ،  
٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ،  
٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ .  
٣٦٠ ، ٣٦٨

شعيب بن حرب ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤  
الشلمغاني ج ٢ ص ٣٦٥  
شمس الدين البكري ج ٢ ص ٢٣٢  
شمس الدين المدني ج ١ ص ١٦٨  
ابن شميل (النضر) ج ١ ص ٥٩  
الشناوي ج ٢ ص ٣٦٠  
شنودة ج ١ ص ٢٢٦  
ابن شهاب ج ١ ص ٨٢ ، ٨٣  
الشهرستاني (هبة الدين) ج ١ ص ٣٨٣  
الشونى ج ٢ ص ٢٨٢  
الشياني (أبو المشني) ج ٢ ص ٢٤٢  
الشيرازي (صدر الدين) ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٣٦٨

### حرف الصاد

الصاحب بن عباد ج ١ ص ٧٨ ج ٢ ص ٣٦٢  
صالح عبد الحى ج ٢ ص ٢٧٠  
صالح بن عبد الجليل ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١٠  
ابن الصباغ (أبو الحسن) ج ١ ص ٢٢٧  
صخر (عدو نبى الله سليمان) ج ١ ص ١٩٠  
الصفدى ج ١ ص ٧٨ ، ٨٠  
ابن أبى الصلت ج ١ ص ٦١

الصواف ج ١ ص ٣٠٩ ج ٢ ص ٢١٤  
ابن صيفي (أكثم) ج ٢ ص ٢١٤

#### حرف الضاد

ضمرة بن معبد ج ٢ ص ٦٥

أبو ضمضم ج ٢ ص ١٧٤

#### حرف الطاء

طاهر الصباغ ج ١ ص ٢٩٩

الطبري ج ١ ص ٧٥

الطرطوشي ج ١ ص ٣١٩ ، ٣٢٠

الطغرائي ج ٢ ص ٢٧٩

الطماوي ج ١ ص ١٦

الطوسي ج ٢ ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٩٦ ، ١٤٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٠٨

الطيباوي ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

#### حرف العين

عائشة (رضي الله عنها) ج ١ ص ٣٠ ، ٥٨ ، ٢٧٣ . ج ٢ ص ٤٤ ،  
٤٥ ، ٢٥١

العاملی ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨٤ . ج ٢ ص ٢٣١

ابن عباد ج ١ ص ٢٦ ج ٢ ص ٣٦٢

ابن عباس ج ١ ص ٨٣ ، ١٩١ . ج ٢ ص ٥٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٣٣٤

العباس (عم الرسول) ج ٢ ص ١٦

أبو العباس ج ١ ص ١٥٥

أبو العباس عيسى ج ١ ص ٦٢

عباس العزاوي ج ١ ص ٢١٨

أبو العباس المرسى ج ١ ص ١٣٤

ابن عبد الأعلى ج ٢ ص ٢٠

ابن عبد البر ج ٢ ص ١٨٨

- عبد الحفيظ خليفة ج ١ ص ٢٠٧  
ابن عبد الحق (محمد) ج ١ ص ٥٩  
عبد الحميد بن يحيى ج ٢ ص ٨٧  
عبد الرازق ج ١ ص ٧٥  
عبد الرحمن الشعراني ج ٢ ص ٢٧٩  
عبد الرحمن بن عوف ج ٢ ص ١٨٧  
عبد الرحمن القس ج ١ ص ٦٢  
ابن عبد السلام ج ٢ ص ١٨  
عبد السلام مبارك ج ١ ص ١٥ ، ١٩٣  
عبد العزيز محمد ج ١ ص ٢٠٧  
عبد العزيز بن عمران ج ١ ص ٥٠  
عبد الصمد البغدادي ج ١ ص ٣٢٨  
عبد العظيم القاياني ج ١ ص ٣٢٦  
عبد القادر الجمال ج ١ ص ٣٨٦  
عبد القادر الشعراوي ج ٢ ص ٢٧٨  
عبد القادر الأرزكي ج ١ ص ٣٥٨  
عبد الله البصري ج ٢ ص ٢١٥  
أبو عبد الله الصوفي ج ٢ ص ٢٤١  
عبد الله بن علي ج ٢ ص ١٢١  
عبد الله بن عثمان ج ١ ص ٨٢  
عبد الله بن المبارك ج ١ ص ٣٩٣  
عبد المسيح ج ١ ص ٥١  
عبد الملك بن مروان ج ٢ ص ٦٥ ، ١٨٩  
عبد الوهاب عزام ج ١ ص ٢١٢ ، ٢٧٣  
عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ج ١ ص ٨٢  
عبيد الله بن زياد ج ١ ص ٢٨ ج ٢ ص ٦٥

أبو عبيدة ج ١ ص ٥٠

أبو العتاهية ج ١ ص ٣٢ ، ٤٣ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٠٩٤ ، ٣٩٤

عثمان بن عفان ج ٢ ص ١٠ ، ١٨٨

عثمان الغريب ج ١ ص ٣٣٩

المجلوني ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣

ابن عجيبة ج ١ ص ٧٣ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ٣٣٥

ابن عربي ج ١ ص ٤٤ ، ٤٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١١٦ ، ١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٩٥ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣٣٦ ، ٣٩٥ . ج ٢ ص ١٨

٢٩ ، ١٠٠ ، ١٢٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٤

عدي بن حاتم ج ١ ص ١٥٨

عروة بن الزبير ج ١ ص ٥٩

ابن العريف ج ١ ص ٢٠٦ ، ٢٦٦

عز الدين المظلوم ج ١ ص ٣٤٤

عزت صقر ج ١ ص ٢٩٧

عطاء ج ٢ ص ٢٢١

عطاء السلمي ج ٢ ص ٥٨

ابن عطاء الله ج ١ ص ٣٥ ، ٤٣ ، ١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ٣١٢ . ج ٢ ص ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦

عفيفي (أبو العلا) ج ١ ص ١٧٩ ، ٢٠٦



- عقبة بن عامر ج ٢ ص ٣٢٩  
عكاف بن وداعة ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧  
أبو عكرمة ج ١ ص ٩٧  
أبو العلاء المعري ج ١ ص ٣٦ ، ٦٤ ، ١٢٧  
علقمة بن لييد ج ٢ ص ٨٥  
علي بن الحسين زين العابدين ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤  
علي بن الحسين ج ٢ ص ٣٥٤  
علي الجرجاني ج ٢ ص ٩٦  
أبو علي الروزباري ج ١ ص ١٨  
علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ج ١ ص ١٢٨ ، ١١١ ، ٢١٣ ،  
٢٧٣ ، ٣٦٥ ، ٣٨٨ . ج ٢ ص ١٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٩ ، ٦٣ ، ٩٠ ،  
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ٢٢٦ ، ٢٥١  
علي عبد الحميد مبارك ج ١ ص ٢٠٧  
علي عبد الرازق ج ١ ص ٣٥٧  
علي بن الفضيل ج ١ ص ٣١٩  
علي مبارك باشا ج ١ ص ٣٥٤ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨ . ج ٢ ص ١٧٨  
علي بن المحسن بن علي ج ٢ ص ٦٢  
علي محمود ج ١ ص ٣٠٩  
علي المرصفي ج ٢ ص ٢٩٠  
علي بن مكى ج ١ ص ٣٢٤  
علي بن مهدي ج ١ ص ٩٩  
عمارة بن حمزة ج ٢ ص ١١١  
ابن عمر ج ١ ص ١٩٠ . ج ٢ ص ١٨٨ ، ٣٣١  
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ج ١ ص ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ،  
١١٩ ، ١٩١ . ج ٢ ص ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ٣٤ ، ٦٠ ، ١٢٢ ، ٢٢٦ ، ٢٥٠  
عمر بن ذر ج ١ ص ٦٨

عمر بن أبي ربيعة ج ٢ ص ٢٩٧  
 عمر بن سعد بن أبي وقاص ج ٢ ص ٣٤٢  
 أبو عمر الصوفي ج ٢ ص ٢٤٢  
 عمر بن عبد العزيز ج ١ ص ٨٢ . ج ٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٦٤ ، ٣٤٦  
 عمران ج ١ ص ٥٠  
 عمرو بن عبيد ج ١ ص ٩٧ . ج ٢ ص ١٠٢ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ،  
 ١١٤ ، ٣٦١  
 العمري ج ٢ ص ١٢٠  
 ابن العميد ج ١ ص ٣٧٧  
 ابن عمير ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦  
 عيسى (عليه السلام) ج ١ ص ٣٠ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ١٢٦ ،  
 ١٢٨ ، ١٩٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢٧٥ ، ٣١٧ . ج ٢ ص ٤٧ ،  
 ٦٥ ، ٦٦  
 عيسى بن علي ج ١ ص ٣٠٧  
 عيسى بن هشام ج ٢ ص ٣٣١

### حرف الفين

الغزالي ج ١ ص ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ٣٥ ، ٥٨ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،  
 ١٢٢ ، ١٤١ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ، ٣٣٧ . ج ٢ ص  
 ١٦ ، ١٧ ، ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٦ ، ١٣٨ ،  
 ١٣٩ ، ١٦٩ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٣٥٦ ،  
 ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧  
 الفوثن بن مر ج ١ ص ٤٩ ، ٥٠  
 ابن غياث ج ٢ ص ٢٥٦  
 ابن غيلان ج ٢ ص ٨٨

### حرف الفاء

فاتح بن عثمان التكروري ج ١ ص ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢  
ابن الفارض ج ١ ص ٢٣ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ١٧٩ ، ٢٨٦ ،  
٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ،  
٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٩٥ .

ج ٢ ص ٢٦٩

فاطمة أم عبد الرحمن زوجة الشعراني ج ٢ ص ٢٧٩

فالح رفقى ج ١ ص ٢٩

أبو الفتح الأعور ج ٢ ص ٢٣١

فخر الدولة ج ١ ص ٢٦

أبو فراس ج ١ ص ٥٤

الفرزدق ج ١ ص ٦٨

فرعون ج ١ ص ١٩٠ . ج ٢ ص ٣٠٢

فرغل ج ١ ص ٢٢٦

أبو الفضل بن أبي الوفا ج ١ ص ٣٤٣

الفضل بن الربيع ج ١ ص ٨٨ ، ١٠٥ . ج ٢ ص ١٠٥ ، ١٠٦

الفضيل ج ١ ص ١٢٣ ، ١٤٣

الفضيل بن عياض ج ٢ ص ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦

فوز ج ١ ص ٢١

فون هامر ج ١ ص ٦٤

الفيروز ابادي ج ١ ص ٥٠ ، ١٣٩

ابن الغصيف ج ٢ ص ١٩

### حرف القاف

القاشاني ج ١ ص ١٥٨ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥

٢٧٦

أبو قتادة العدوي ج ٢ ص ١١

ابن قتيبة ج ١ ص ٣٧ ، ٦٠ ، ٦٨ . ج ٢ ص ٦٦ ، ١١٤ ، ١٤١ ، ٣٤٠ ،  
القس (عبد الرحمن) ج ١ ص ٦٢  
قس بن ساعدة ج ١ ص ١٦١  
القشيري ج ١ ص ٦٤ . ج ٢ ص ٢٤٣  
قطري بن العجاء ج ٢ ص ١٣٦  
القلانسي ج ٢ ص ٢٠٧  
أبو قلابة ج ٢ ص ٢١٥  
ابن القيم ج ١ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ،  
٢٨٠ ، ٢٨١ . ج ٢ ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ،  
٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧١

#### حرف الكاف

ابن الكاتب ج ٢ ص ١٨  
البتاني (محمد) ج ١ ص ٥٩  
كثير ج ١ ص ٣٨  
الكرخي (معروف) ج ١ ص ٦٠ . ج ٢ ص ٣٤ ، ١٩٦  
ابن أخى الكرخي ج ١ ص ٦٠  
كعب الأحبار ج ١ ص ١٩٠  
الكميت ج ١ ص ٣١ . ج ٢ ص ٣٤٥  
أبو الكميت الأندلسي ج ٢ ص ٢٣٦  
كميل بن زياد ج ٢ ص ٣٣

#### حرف اللام

لامرتين ج ١ ص ٢٢٢  
ابن اللبانة ج ١ ص ٢٦ ، ٢٧  
ليبد ج ٢ ص ١٤١  
لطفى جمعة ج ١ ص ٦٤ . ج ٢ ص ٢٦٩



١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٣ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧ ،  
٢١٥ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١

محمد بن أحمد بن موسى ج ١ ص ٥٩

محمد بن أحمد النجار ج ٢ ص ٢٤١

محمد البكري ج ١ ص ٢٧٨

محمد بن حبيب الطوسي ج ٢ ص ٣٣٠

محمد الحسين آل كاشف الغطاء ج ١ ص ٢٩٧

محمد بن الحنفية ج ٢ ص ٢٧٨

محمد حلمي عيد (الدكتور) ج ٢ ص ٢٧٧

محمد داود ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧

محمد بن سعيد ج ١ ص ١٥

محمد بن سليمان ج ٢ ص ١٦٢

محمد شاكر (الشيخ) ج ١ ص ٢٠٧

محمد الشناوي ج ٢ ص ٢٩١

محمد بن صالح ج ١ ص ١٠٣

محمد عثمان ج ٢ ص ٢٧٠

محمد بن عراق ج ١ ص ٣٤٣

محمد علي ج ١ ص ٢٢٤

محمد بن علي الدمشقي ج ١ ص ٣٣٣

محمد بن علي الصوفي ج ٢ ص ٢٤٢

محمد بن عبد الله ج ٢ ص ١١٣ ، ٢٥٠

محمد المرصفي ج ٢ ص ٢٨٣

محمد ناصر ج ١ ص ٤٩

محمد نسيم ج ٢ ص ٢٧٠

محيي الدين بن عربي ج ١ ص ١٩٣

ابن مجالد ج ٢ ص ١١٢

- مجاهد ج ١ ص ٥١  
مجنون ليلي ج ١ ص ٣٩ ، ١١٦ . ج ٢ ص ٢٧٥  
مخارق ج ١ ص ٩٦ ، ١٠٩  
المختار بن أبي عبيد ج ٢ ص ١٨٨  
المخزومي (أبو الحسن) ج ١ ص ٣٤٣  
ابن مدين ج ٢ ص ١٨  
أبو مدين ج ١ ص ١٩٣ ، ٣١٧  
مرداس ج ١ ص ٢٨  
المرتضى ج ٢ ص ٣٤  
مرجليوث ج ١ ص ٥٤ ، ٥٧  
المرزباني ج ١ ص ٨٢  
المرسي ج ١ ص ٣١٢ ج ٢ ص ١٦  
مرسيه ج ١ ص ٣٨٢  
المرصفي ج ٢ ص ٣٦٠  
المروزي ج ١ ص ١٢٣  
مريم (عليها السلام) ج ١ ص ٢١٢ ، ٢١٥  
مسروق ج ٢ ص ٢٢٥  
ابن مسعود ج ٢ ص ٢١٠ ، ٢٦٧ ، ٣٣١  
مسلم الخواص ج ٢ ص ٢٤٢  
مسلم بن الوليد ج ١ ص ٢٥ . ج ٢ ص ٢٣٩  
ابن المسيب ج ١ ص ٨٣ . ج ٢ ص ١٣  
المسيح (عليه السلام) ج ١ ص ٤٩ ، ١٢٥ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٧٩ ، ٢١٧  
ج ٢ ص ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٤٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٧٥  
ابن مشيش ج ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢  
مصعد بن الزبير ج ٢ ص ٣٦١  
مصطفى عبد الرازق ج ١ ص ٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٨٥ ، ٣٤٨

- مصطفى المرافي (محمد) ج ١ ص ٢٠٧  
مصطفى كمال ج ١ ص ٢٩  
مصلح (الشيخ) ج ٢ ص ٢٦٩  
مطرف بن عبد الله ج ٢ ص ١٥١ ، ١٦٤  
مطرف ج ١ ص ٣٦  
المطهر الأزدي ج ١ ص ٣٧٧  
ابن المطلب ج ١ ص ٨٤  
معاذ بن جبل ج ٢ ص ٣٣١  
معاوية ج ٢ ص ١٨٨  
ابن المعتدل ج ٢ ص ٢٣١  
المعز ج ١ ص ٢٤  
المعلی الصوفي ج ٢ ص ٢٤٢  
المغزبي (أبو عثمان) ج ١ ص ١٩٢  
المقري ج ١ ص ٨٠ ، ٨١  
المقريزي ج ١ ص ٣٢٥ ، ٣٥٥  
ابن المقفع ج ١ ص ١٥٧ . ج ٢ ص ١١٨  
مكحول ج ٢ ص ١١٩  
المكي ج ١ ص ١٤٢ . ج ٢ ص ١٠ ، ١٢٦ ، ٦٣ ، ١٥٠ ، ١٩٣ ، ١٩٤ .  
٢٢٠ ، ٢٢٠  
مكين الدين بن الأسمر ج ١ ص ٣٣٤  
ابن الملوحي ج ١ ص ١٩  
ابن مليكة ج ٢ ص ٢٥١  
المنتصر ج ١ ص ٢٤  
ابن المنذري (ابراهيم) ج ١ ص ٥٠  
المنصور ج ٢ ص ١٠ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ .  
١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠



- منصور فهمي ج ٢ ص ٣٠ ، ٢٢٤  
المنيلأوى ج ٢ ص ٢٧٠  
مهيار الديلمي ج ٢ ص ٢٧٢  
المهدي (الشيخ محمد) ج ١ ص ٢٩١  
المهدي (الخليفة) ج ٢ ص ١١٣  
مهرجان ج ٢ ص ٢٣٧  
المواهب الساذلي ج ٢ ص ١٢٩  
موسوليني ج ١ ص ٢٨  
موسى (عليه السلام) ج ١ ص ٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٧٦ . ج ٢ ص ٤٠ ، ٥٥٠ ، ٣٥٤

الموصلى ج ٢ ص ٢٤١

### حرف النون

- النابلسى ج ١ ص ٤٤ ، ١٥٨ ، ١٧٢ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٤٦ .  
٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٧٠ ، ٣٩٥  
نابليون ج ١ ص ٢٢٤  
ابن نباتة المصرى ج ١ ص ٢٦٦  
النخعى ج ٢ ص ١٨٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٤  
النسيى ج ١ ص ١٩٣  
أبو نصر التمار ج ٢ ص ٢١٠  
النعمان ج ١ ص ٥٥  
نعيمان ج ٢ ص ٣٤٤  
النمرود ج ١ ص ٥٨ ، ١٩٠  
أبو نواس ج ١ ص ٣٢ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،  
١٠٩ ، ٢٨٧ ، ٣٩٤  
نوح (عليه السلام) ج ١ ص ٥٣ ، ١٩٠ . ج ٢ ص ٤٠ ، ٤١  
النورى ج ٢ ص ١٦١

ذو النون المصري ج ١ ص ١٩١ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ . ج ٢ ص ٩٦ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٦٥

التويرى ج ٢ ص ٥١ ، ٥٤

نيكلسون ج ١ ص ٢٠٥ ، ٢١٩ . ج ٢ ص ٣٦٩

### حرف الهاء

أبو هاشم الصوفي ج ١ ص ٦٣

هارون ج ١ ص ٥١ ، ٢٧٦

هارون الرشيد ج ٢ ص ١٠٤

هارون بن علي ج ١ ص ٩٩

ابن هبيرة ج ٢ ص ١٢٤

أبو هريرة ج ٢ ص ٢٢ ، ١٣٠

ابن هرمة ج ١ ص ٩٩

أبو هلال ج ١ ص ٨٧

هتلر ج ١ ص ٢٧

هيان بن بيان ج ٢ ص ٣٣٠

الهيشم بن جميل ج ٢ ص ٢٥٧

### حرف الواو

الواسطي ج ١ ص ٣٣٧ ج ٢ ص ٢٤١ ، ٢٤٤

ابن واسع ج ١ ص ٩

وهب بن منبه ج ١ ص ٣١٩ ج ٢ ص ٢٥١

وهيب بن الورد ج ٢ ص ٣٤٦

### حرف الياء

اليافعي ج ١ ص ١٨ ، ٤٤ ، ٥٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٤٤ ، ٢٤٥ . ج ٢ ص ١٥ ، ١٥٢ ، ١٥٨ ، ٣٩٧

ياقوت ج ١ ص ٥١ ، ٥٧ ، ٣٨٥ ، ٣٩١ . ج ٢ ص ٩٨

- يحيى (عليه السلام) ج ١ ص ١١١ ، ١١٥ ، ١١٦  
يحيى بن خالد بن برمك ج ١ ص ٥٤  
يحيى بن معاذ ج ١ ص ١٥٥ . ج ٢ ص ٢٦٥  
أبو يزيد ج ١ ص ١٨٨ ، ٢٧٦  
يزيد بن الديان ج ١ ص ٥١  
يزيد بن معاوية ج ٢ ص ١٨٨ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥  
يسوع ج ١ ص ٢١٠  
يعقوب بن الربيع ج ١ ص ٨٨  
اليمانى ج ٢ ص ٣٤٥  
يوسف (عليه السلام) ج ١ ص ٨٨ ، ١٦٥ . ج ٢ ص ٤٦ ، ٢٥٣  
أبو يوسف ج ٢ ص ١٨٩  
يوسف بن الحسين ج ٢ ص ٩٢ ، ٢٣٩  
يوسف بن يعقوب ج ٢ ص ١٨٩  
يونس بن عبد الأعلى ج ١ ص ١٢٦  
يونس بن متى ج ١ ص ٢٧٦  
ابن اليمان ج ٢ ص ٣ ، ١١

---

لم يحو هذا الفهرس جميع أعلام الكتاب ، وإنما ذكرت فيه الأعلام التى  
يحتاج اليها المراجع فى بعض الأحيان

## فهرس

صفحة	
٣	كيف نشأ التصوف فى الأخلاق
٣٨	الأدعية والأوراد
٥٢	آداب الدعاء
٥٦	دعاء الاستسقاء
٦٣	أدعية زين العابدين
٦٩	أدعية التوحيدى
٧٨	الاستغاثات والأحزاب
٨٥	الوصايا والنصائح
٩٥	وصايا ذى النون المصرى
١٠٢	الشجاعة الأدبية
١٢٦	الدنيا فى أذهان الصوفية
١٤١	المقامات والأحوال
١٦٩	التجريد والأسباب
١٨٦	آداب الطعام
١٩٨	آداب الصيام
٢٠٦	آداب الزواج
٢١٢	آداب الأخوة
٢٢٨	الحب ، الحب ، الحب
٢٦١	الموسيقا والغناء
٢٧٦	الآداب الصوفية عند الشعراى
٣١٠	المهلكات والمنجيات
٣٦٤	خاتمة الكتاب
٣٧٦	قوافى الجزء الأول
٣٨٧	فهرس الأعلام